

بسم الله الرحمن الرحيم

صالح للجنون

(رواية)

طلال سيف

طلال سيف: صالح للجنون (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود - الدقي 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67
E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: مايو 2013
رقم الإيداع بدار الكتب 9674/ 2013/
I.S.B.N. 978-977-476-164-9

الغلاف تصميم : رامى الشيخ
الأفكار والآراء الواردة بإصدارات الحضارة للنشر تعبّر عن المؤلفين،
ولا تعبّر بالضرورة عن توجهات الناشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

"يقدر المقدرون والقضاء يضحك"

إهداء...

إلى من قرأ على باب مصر بالسريانية وجاب برايبها وخط برديته
"حل الرموز وبرز الأسقام في كشف أصول اللغات والأفلام" وإلى
مولى مولانا ذى النون سيدى إسرائيل المغربى وإلى ابن وحشية النبطى،
وصاحب فجر الضمير هنرى بريستد الأمريكى... أهديهم حكايات
مولانا الصالحة للجنون.

obeikandi.com

"ما بين المتن والسند"

حاشية أولى

وقف عمر بن الخطاب على المنبر وقد خرج فجأة عن نص الخطبة وراح ينادى "يا سارية الجبل. الجبل، إنه من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم" ثم نزل وصلى، فانفرد به الإمام على، وقال: يا إمام تركت الناس يقولون عليك - لقد جن عمر - فقال عمر: فليقولوا ما يقولون "حادثه شهيرة" مبتور جزء الجنون منها.

حاشية ثانية

سأل أحدهم مولانا محيي الدين بن عربي: من المؤمن ومن الكافر يا إمام؟ فقال: لا يدرك المؤمن من الكافر حتى يموت ويغيب في قبره "قول مأثور" ينكره من ارتدوا ثوب الحقيقة وحدهم.

حاشية ليست أخيرة

إذا ما أصابته مصيبة، خلع شال عمامته وربطها حول خصره، ثم وضع عصاته على كتفيه وأمسكها بكلتا يديه وراح يرقص في الصالة الفسيحة، وهو يغنى: أخضر يا عود اللينة يا ليله بيضا عندنا، هاتوا العاذولة نحبسها لما نفرح ابننا. نقلا عن مولانا مصطفى بن أحمد "واقعة قلما تحدث. رغم صراحة النص فيها" لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

obeikandi.com

نونو

ما بين الداخل والخارج، صوت مجاذيب وصرير صراصير حقول بعيدة وقيق ضفادع في مخبئها الشتوى وخادمت يحملن "مشنات" الطعام إلى حجرة شيخ مجاذيب الحضرة، مولانا مصطفى بن أحمد بن عمر بن هلال الآتى من الحارة الضيقة إلى صدر البلدة الجديدة، بعدما وضع يده فى يد الكفرة، كما يحلو للشيخ أبوزهر تسميتهم، بدأ بمالك محلج الأقطان "ياكمغللو" "ليونانى" وانهاء بـ "واسيلى" مرورا بـ "سيرو" و"كامتشو" لكنه دوما ما كان ينسى ذكر الخواجه "لاكى" ذلك المتوحد آناء الليل وبضع سويغات من النهار، جالسا على مقعده، مراقبا لعمال المحلج، لكن حاله يشى بغير فعل المراقبة، فكان دوما ما يشرد ناحية النهر المائل ماؤه إلى الحمرة، مجمداً ناظره إلى شجرة الحمير العتيقة، التى لا يجرو أى من السكان أو العمال الاقتراب ناحيتها ليلاً كان أو نهاراً، لما تردد حولها من أساطير تؤكد غرق كل من يأتيها متظلاً أو أكلاً أو مغتسلاً بماء النهر، على الرغم من تأكيدات الشيخ أبوزهر بأن تلك الأقوال خرافات تقود صاحبها إلى الكفر، إلا أنه لم يجرو يوماً على الاقتراب منها، متعللاً بأنها فى حرم أرض الكفرة، لذا فقد لعنها الله فى ذاتها وليس من الأكاذيب التى يتناولها الناس حولها.

مساء التف عمال المحلج، ومن بعدهم سكان القرية حول جثة جديدة ومنشفة لإمرأة فى الثلاثينات من عمرها، وجهها بلون "الكوييا" التى

يستخدمها "سبيرو" في أوراق حسابات الملحج وقد التقطها جذع الجميزة العتيقة والتي يسميها الناس في البلدة "شجرة العجمي" ولا أحد يعرف من هو ذلك العجمي فارسيا كان أم رومانيا، ربما كان من ممالك الزمن البعيد، ولا أحد يجزم بأنه لم يكن هكسوسيا أو فرنسا عابرا أو إنجليزيا محدثا، وربما كان عربيا أو مصريا أصيلا، فاللغة في بلادنا كقبيحة تزيت فأصاها وابل فبدت كهلوان في سيرك عابر شأنها شأن المارين فوق جسور النهر منذ آلاف السنين، لم نعد نخصيمهم من كثرة ازدحام كتب التاريخ بأسمائهم، لذا لم يحدد الواقفون مع ظهور الجثة، جنس الغارق أسفل الملعونة، وبدت الهمهمات محمومة ما بين الرحمة له والرحمة لها، وكأن الألف اللازمة للتأنيث أو عدم وجودها سيغير من حال الجثة. ظلت الهمهمات والمشاورات حتى اقتربت الشمس من المغيب ولم يجرؤ واحد على النزول إلى النهر لانتشال الغريق الذي لم يقطعوا أمرهم في جنسه متعللين بجرمة اللبس إن كانت امرأة، مما اضطر الحاجة فهيمة إلى الصراخ: إذا كانت امرأة فيمكنكم ارتداء القفازات، وإن كانت غير ذلك... لم تكمل الحاجة فهيمة محاضرتها المعروفة مسبقا لدى القاصي والداني إثر كل غريق يجذبه جذع جميزة العجمي بشكل مستديم مع بلوغ الهلال مداه بدرا، لأن شيخ الخفراء سيردد حتما: لا بد من استشارة الشيخ أبوزهر، كي نحكم شرع الله، فلا يحق القول علينا فيدمرنا الله تدميرا، وحتما سيحاول بن النقاش أيضا كتم غيظ ضحكاته الساخرة، فهو لا يؤمن بما يؤمن به الناس في بلدتنا، محملا بأفكار "أبيقور" الملحد و"نيتشه" المجنون كما يحلو له أن يصفها إذا ما حاول الشيخ أبوزهر هدايته

بكلماته المحفوظة والمكررة على مسامع الأهلين: اتقوا الله. توبوا إلى الله. سيدخلكم الله قبراً مظلماً به ثعبان أقرع. في هذه اللحظة بالتحديد وعند ذكر الثعبان الأقرع لا يستطيع النقاش كتم غيظ ضحكاته فينفجر مهنلاً منتشياً: هذا على افتراض أن هناك ثعابين لها شعر. للتو تنتفخ أوداج الواعظ ويصرخ: كافر، ثم يرحل دون إقناع أو تأثير، فالوعظ للمؤمنين كما قال "لاكي" في لقاء عابر مع شيخ الحضرة الذي سأله: لماذا لا تذهب مع زملائك إلى كنيسة أبانوب بالضفة الأخرى من النهر؟ فابتسم "لاكي" ولم يعقب إلا: بالوعظ للمؤمنين والدعوة للكافرين، وأنا لست بهذا ولست بذاك.

نصف كافر. نصف مؤمن هذا الولد الخجول الصامت "لاكي" والذي أتانا في عمر الرابعة عشرة من عمره، بعينين خضراوين هادئتين هدوء شجر الغفل اليناع، وشعر بلون سنابل القمح في بؤنه، وجسد كشجر الكافور الناضج يحل له لبس البياض من النعلين إلى القبعة، لا يعلو صوته على عامل ولا يرفع ناظره إلى امرأة، به حياء عذراء وخفة عصفور وصوت قمرى حزين، يشرب نبيذ العنب ليلاً ولا يسرف، يكره القديسين والأباء والكهنة ومشايخ مساجدنا، عدا شيخ مسجد سيدي عزالدين، هذا ملخص كان يرويه شيخ الحضرة على مسامع كل من يسأل عن "لاكي" الذي شق صفوف الناظرين للجنة وفي صحبته الشيخ غراب، ذلك المعتوه المتسخ المتهتك ستر جسده بتهتك جلبابه كما يراه الناظرون، لم يلتفتا إلى الحوار الدائر بين الحاجه فهيمة وشيخ الخفراء ولا همهمات الحضور، ولا قداسة انتظار رد الشيخ أبوزهر. لتوها نزلا من المهبط الترابي، المتخذ شكل

منحدر من أعلى الجسر إلى فم النهر. محاط من جانبيه بالبوص والغاب في شكل هرمى قاعدته تتسع لمرور فردين لا ثالث لهما. توقف الشيخ غراب عند مبتدى الماء وقد أسند يده اليمنى على صدر "لاكى" فى إشارة إلى عدم رغبته فى إقامه بهذا الأمر المتكرر. ابتعد "لاكى" ثلاث خطوات للخلف، بينما كان الشيخ غراب ينظر ناحية الجثة وقد سمع بعض أهل السمع صوت نحبيه المكتوم، وهو يغرد: روح الله فىنا لا تموت.. وإن انتهكها فقر البيوت.. توت توت.. سبحان الحى الذى لا يموت، ثم قذف نفسه بعنف لا يتناسب مع جسده المنهك فكان صوت الارتطام بالماء مفزعاً، لكن "لاكى" القريب والذى ناله قسط من الماء المندفع نتيجة الارتطام على ملابسه ووجهه، بدا كملاك سماوى ظهر كما العذراء فى ليلالى الأزمت السياسية بين النحاس باشا والمملك فاروق، أو هكذا خيل إليهم صورة "لاكى" فى تلك الليلة الحزينة.

غاب الشيخ غراب فى الماء حتى ظن الطائون به سوءاً، فأوقدوا المشاعل وقربوها من فوهة النهر دون عبور باب المهبط المرتعش غابه بفعل المشاعل المرتبكة، فلم يظهر. راحوا ينادون عليه، فلم يظهر. صرخ شيخ الخفراء: هذا جزاء من لا ينتظر رأى الله وشرع الله، غرق الشيخ غراب معلولاً بالإثم. الوجوه الصموتة راحت بين وجل وخشية. خوف وفزع. لكن العجيب فى الأمر أن ابن النقاش، راح يقلب كفيه تعجبا وحسرة، وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. مات الشيخ الطيب. إن الله وإن إليه راجعون.

بيد أن حالات الألم ينسى الإنسان معها أبيقور ونييتشه ويعود إلى صلب
كيونة أبويه، متناسيا تلك المقولة التي كان يرددها كما "زرادشت نييتشه":
ألم أخبرك بأن الإله قد مات. مات الإله!!

فجأة عاد الإله دون استعداد ابن النقاش لمكتبته التي بناها على مدار
سنوات، وفجأة أيضا مات الإله من جديد، حينما ظهر شبح الشيخ غراب
على الضفة الأخرى وهو يغرد: توت توت.. سبحان الحى الذى لا يموت
كان على ابن النقاش مداراة بسملة وحوقلته وخزى كل شئ وعكسه، بأن
أخذ نفسا عميقا مستردا به بعضا من ذاكرة الكتب المكسدة على أرفف
مسروقة من شونة المحلج، والتي تتصدر واجهتها كتابات نييتشه وكافكا والمعلم
الأول دون الفارابى وابن سينا وأبو حامد. قال موجها كلامه لشيخ الحفراء:
علينا إنهاء هذه المهزلة للتو، وعلينا عدم انتظار رد الله وشرع الله، وعلينا
أيضا سرعة إبلاغ المركز واستدعاء الإنقاذ من المنصورة. هذا ما يقتضيه
العقل والعلم معا. كان كلامه يصل إلى "لاكى" المنشغل بالنظر إلى الجثة فى
مهابة تناسب حجم مصيبة الموت، لكن الإصرار على الكلام المحمل بفقايع لا
روح فيها ولا حتى رائحة تننه، دفع "لاكى" إلى الالتفات برقبته ناظرا بعينيه
الهادئتين ناحية النقاش، الذى شعر بأن "لاكى" يمكن أن يفعل معه كما فعل
من قبل مع إبراهيم النشال، يوم أن حاول ضرب مصطفى باشا النحاس
بكرة "الجلة" الطرية.

كان ميدان النحاس بسمنود لم يتخذ ذلك الشكل القائم عليه هذه الأيام،
ولم يزل الباشا ساكنا دار أبيه المتوفى الحاج محمد النحاس، تاجر الأخشاب

الشهير يومذاك. كانت أرضا زراعية قد مهدها الناس لاستقبال مؤتمر للبasha عقب مظاهرات الطلبة التي خرجت وانضم الشعب إليها، كي يعلنوا جميعا -الشعب مع النحاس- تلك المظاهرات التي فوجئ الناس يومها بخروج جماعة يترأسها مدرس للغة العربية كي تصرخ هي الأخرى: الله مع الملك.

كان "لاكي" موقنا بأن الشعب مع النحاس، لكنه لم ير الله وسط الجماعة كي يؤمن بأن الله مع الملك، ذلك الملك الذى وصفته الجماعة بعد ذلك بالعريد السكير الخائن، ولم يحصل "لاكى" على تبرير بصدد الموقنين من الشيخ أبوزهر المتهم بالتحريض على إلقاء "الجلة" بوجه البasha. لكن ما أحزن نصف الكافر. نصف المؤمن، تلك الحيرة التى وقع فيها - كيف يجرؤ إنسان على استعمال الرب بتلك الحقارة؟ - وأى إله هذا الذى يؤيد ملكا مؤمنا ثم يتراجع عنه لكونه اكتشف فجأة سوءته، تلك السوءة التى اتخذها الناس بديلا للخوف من النزول إلى شجرة العجمى تحت مسمى الله وشرع الله الذى لم ير فيه مجذوبا خطيئة اللهم الخوف والتفلى الذى يدفع الناس للهروب من مبتدى فعل الله باسم الله، فدفع بالله نفسه إلى الماء ثانية وراح يهتز كجمل عالق فى حلقة النهر، وهو يردد توت توت ويقترب بعنف ناحية الجثة وقد تحولت تغريداته إلى تهليل فرح: نونو. نونو.

جميعنا كان فى انتظار ظهور الشيخ أبوزهر أو حتى رده الذى لا بد وأن يأتى موافقا لحالة الرهبة من شجرة العجمى والنزول إليها، وجميعنا أيضا كان موقنا بأنها لن يأتيا، ومازلنا مصرين على الانتظار.

شبح قارب صيد مضطرب يأتى مسرعا ناحية غراب. لم يشك "لاكى" لحظة واحدة بأن كلام غراب هلاوس مجنون مريض، فتهللت أساريره ببعض من حمرة النبىذ الذى لم يشربه حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وكأن النبىذ ممنوع عنه قسرا فى حالات المصائب الكبرى والتفارج الكبرى. هى ليلة مشابهة لتلك الليلة التى ذهب فيها إلى صوان مؤتمر النحاس باشا دون أن يأخذ كأسه المعتاد، بدا الباشا بوجهه النهى أقرب ما يكون إلى قديس عتيق عينه اليمنى بها حول واضح يكسبه ألفة مع الناس الذين اعتادوا قادتهم بلا خلل جسمانى، وقد بدأ المؤتمر ببضع آيات من القرآن الكريم، قرأها الباشا بنفسه. كان "لاكى" إلى جوار المنصة، خلفه حقول الذرة الممتدة إلى نهاية الشوف، وعن يساره حشود ألفتة من جماهير سمود وضواحيها، وأمامه زاوية مكتملة من منصة المؤتمر. لمح "لاكى" الشيخ أبوزهر وهو يحرك خائنة عينه اليسرى فى اتجاه إبراهيم النشال، الذى أخرج من سيالة جلبابه كرة الجلة الطرية. اندفع "لاكى" إلى المنصة فى الوقت الذى كانت كرة النشال فى اتجاه وجه الباشا، فاستقبلها وجه "لاكى" حينما أحاط الباشا بكامل ظهره فاردا ذراعيه عن آخرهما. بدا الاضطراب فى صفوف الجماهير الذين أحكموا القبض على النشال جيدا، فى تلك اللحظة التى كان الشيخ أبوزهر يغيب فيها وسط الجماهير، وكأنه لم يشارك ولم يحرك خائنة عينه، تماما مثل هذه اللحظة التى يغيب فيها الآن عن جماهير شجرة العجمى وقت الهمهمات والاضطرابات التى أصابت الناس من جنون الشيخ غراب، وذلك القارب الآتى من بعيد كشبح هارب. يبدو أن "لاكى" قد

أدرك بفعل ارتباطه المزمّن بالشيخ غراب وشيخ الحضرة، ما ستصير إليه الأمور، ومن سيكون على ذلك القارب الذى دنا من الجثة، لحظة اقتراب غراب منها، كانت يدا مولانا مصطفى بن أحمد، متشابكة مع يدي الشيخ غراب وهما يخرجان الجثة من النهر. كانت عينا "لاكى" مثبتة على تلك الجثة التى تبين جنسها بفعل المشاركة فى إخراجها، وليس بفعل الجدل المزمّن لحظة الاختلاف الذى افتعله الناس للهروب من النزول ناحية شجرة الموت، فالمبادرون هم أصحاب المعرفة، وحدثهم من يحسم المعارك بجدية الفعل، الجدية وحدها التى دفعت "لاكى" إلى تسديد قبضته فى وجه إبراهيم النشال، فسقط مغشيا عليه فى غيبوبة كاملة لمدة أسبوعين، على الرغم من أن الباشا قد أمر الناس عبر مكبر الصوت بعدم التعرض له. صعد "لاكى" بصمته وعينيه المصوبتين ناحية مكبر الصوت، أخذه من يد الباشا برفق شديد، ثم قال بعربيته التى تشبه لغة طفل لم يتجاوز الرابعة: الشعب مع النحاس، لأن الله مع الشعب.

تصفيق وصفير من الناس واستغراب ودهشة من الباشا، فهو يعرف أن "لاكى" وأمثاله لا يليق بهم أن يكونوا إلى جوار عدو الإنجليز الأول، لكن هذه الدهشة زالت تماما لدى الباشا عندما شرح عمر "أفندى" دياب السكرتير الإدارى بمجلس الشيوخ فى ذلك التاريخ، وهو ابن القرية التى تطل على النهر من الناحية الشرقية لسمنود، والتى يعيش فيها "لاكى" منذ ست سنوات

قال: هو ولد بولندي يتيم، أتى به "ياكامغلو" إلى القرية مع أسرته وتركه في حضرة "سبيرو" الكاتب. وقد التقيته يوم أن زرت القرية مع شيخ الحضرة الآتي لزيارتي والترحيب بوجودي، بدا خجولا صامتا، لكنني لاحظت أنه إذا ماثبت عينيه على شيء، لا يحولها عنه، فبدأ لي أن به مسًا من جنون لكنني حينما ألقيت إليه سؤالاً عن فكرة إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين وما يراه من الدور الإنجليزي في ذلك، رفع رأسه ناحيتي، ثم ثبت عينيه في عيني بطريقة فيها شيء من الوقاحة، مما دفعني إلى الهروب بوجهي ناحية الشيخ مصطفى. قال: لا تلومن أحدا على قوته. لكن لم نفسك على ضعفك، فهذا حرى بالنهوض، سيقام الوطن وسيفعل الإنجليز ما يريدون. بدت في كلماته وأسلوبه وقاحة لا تناسب هيئته الهادئة، وقد أحس شيخ الحضرة بغضبي مما دفعه للتدخل كي يقلل من حجم التوتر. قال: إن "لاكي" لا يقصد شرا يا "بك" لكنه مؤمن بقدسية الحق مهما كان صاحبه، وبأن الحق دون قوة مبادرة محض نواح أرامل بأئسات، يقينا أدركت أنه لم يقصد إهانتى، وأنه تحدث إليّ بأدب أغضبني، لحقيقة ما قاله عن قوة الإنجليز وضعفنا. لحظتها تأكدت أنه يسعى في هذه الدنيا خلف فكرة ربما لن يناله منها إلا الألم.

فرح "لاكي" بحركات الشيخ غراب الهستيرية، حينما راح يحتضن الجثة ويرفعها عن الأرض ويميزها بعنف وهو يصرخ: نونو نونو

نزل شيخ الحضرة إلى القارب وقد أحضر منشفة بيضاء، وفردها بين ذراعيه وراح ينتظر. كان غراب قد أوقف الجثة رأسيًا واحتضنها كما رجل وامرأة في حالة عشق عابر. بدا صوت شيخ الخفراء غاضبا: ماذا يفعل هذا

المريض بهذا الميت؟ أوقف هذه المهزلة يا شيخ الحضرة. أوقفها يا خواجه "الأكي" الوحيد الذي لم يبد عليه التذمر، هو ابن النقاش. راح يصفق ويصفر ويكرر: "مريض يعشق ميتا" وماذا يضيركم؟! فعل جديد. إبداع وحرية...

رفع شيخ الخفراء بندقيته في الهواء وضرب عيارين خرطوش، أسكت دويهما صخب الحضور، ثم قال: يا شيخ الحضرة، إن لم توقف هذه المهزلة الآن سأقتل هذا المجنون. ثم ضرب طلقة أخرى غاضبة، اختلط صوتها بصوت بكاء طفل سقط لتوه بين رجلي الجثة، فالتقطه الشيخ مصطفى بالمنشفة، فيما كان الشيخ غراب يخلع بقايا جلبابه ويغطي جسد المرأة التي مددها بسكون جلال الموت، وراح يبيكي جثة ليست لديهم بمجهولة، أسفل شجرة ليست بأى حال من الأحوال ملعونة، إلا بفعل الجهل الذي صدقه بعضهم بأن الله مع الملك، فالمرأة التي ارتفعوا بجثتها من أسفل الجسر إلى أعلاه، والتف حولها الملتفون، قد تعرف عليها الكثيرون، لكن واحدا لم يجرؤ على ذكر اسمها حتى شيخ الحضرة والخواجة والشيخ غراب يعرفونها جيدا لكنهم أيضا آثروا سلامة أنفسهم بالصمت المهين.

ترى هل يتحول الصالحون إلى ألواح من ثلج إذا ما اصطدموا بقوة غاشمة؟ ربما نعم وربما لا فهناك من لا تحركه العواطف في اتخاذ ردة الفعل العجول حيال أمور تحتاج إلى تدابير العقل، فالكوارث تأتينا من هنا. أشار جدى

بركات ناحية قلبه، ثم بدأ في تحريك سبابته في الفراغ على شكل دائرة وهو يردد: الكوارث تأتينا من هنا، ثم أوقف فجأة حركة سبابته الدائرية، وحولها إلى خط مستقيم ناحية تمثال عبدالمنعم رياض، وعينه اثنتان ناحية التمثال وليس إلى الجماهير التي تجرى لتوها ناحية الميدان وهي تنادى: الشعب يريد إسقاط النظام، ثم التفت برأسه مثبتا عينيه في فراغ شارع محمد محمود لحظة ما كانت الجماهير تجرى ناحية الشارع وهي تنادى: الشعب يريد إسقاط النظام، وظلت إشاراته وتثبيطاته مستمرة مع حركة الجماهير التي تجرى من ناحية إلى أخرى دون سبب واضح لهذا الإرتجال المنظم. حاولت النهوض لتحرى سبب تلك التحركات العشوائية ليلة الثامن والعشرين من شهر يناير لكن جدى بركات جذبني من يدى بقوة لا تتناسب وأرذل العمر الذى يحياه فسقطت جالسا إلى جواره وسط دائرة الميدان. قال: هذه ليست ثورتكم، ثم ثبت ما تبقى من عينيه الخضراوين المنهكين بفعل الزمن تجاه عيني الزائغتين في زوايا ميدان التحرير، فلم أعقب ولم أبد غيظي من محاولاته البائسة لإقناعي بأنه يمتلك مفاتيح الحكمة، لكننى مضطر لعدم إغضابه حتى ينتهى من حكايات بعضها أعرف وحكايات بعضها مبتور فى منته وسنده لكنه من يستطيع ملء فجواتها. امتثلت لرغبته تماما، ولاسيما أننى تعرفت إليه فى تلك الليلة، بعدما دخلت الخيول والجمال إلى ميدان التحرير للقضاء على المتظاهرين المنادين بإسقاط النظام. رجل تجاوز التسعين على ما يبدو من فعل الزمن فى وجهه، يمتلك بقايا جسد يشى بقوة كانت ثم زال بعضها بفعل السنين. أت من ناحية باب اللوق. يتكئ على عصا من شجر اللبمون

يحمل حول رقبتة عشرات السبع الخشبية والمعدنية الملونة والمتخذة أشكالا مختلفة. في كل إصبع من أصابعه خاتما يحمل فصا حجريا ملونا. بلا مقدمات أسند ذراعه على ذراعى، ثم سار بي ناحية وسط الميدان، شهامتى كسلم مصرى وحدها.. أقسم بالله وحدها ما دفعتنى إلى ترك نوبة الحراسة على مدخل الشارع المهدد ككل مداخل الميدان بالاعتداء. سرت كى أجلسه بعيدا عن توتر المعارك، لا أعرف سببا لتلك السخرية التى كان يسخر بها منى، كلما أردت أن أثبت له بطولتى فى مواجهة البلطجية المدججين بالعصى والسيوف والجنائزير، هؤلاء الكفار الذين دخلوا إلى الميدان عصرا وكانوا حوالى عشرين كفرا، يحاولون بوقاحة طرد مليونى إنسان غاضب من النظام، كان يزداد سخرية بضحكة مكتومة وأزداد غيظا، حتى قررت فى لحظة محمومة تركه وسط ارتباك الثوار ودعوت الله أن يسقط بطلق نارى غادر، أو تحت أرجل أحد البلطجية المدسوسين بيننا، لكن إيمانى منعنى قررت إيصاله، ثم تركه إلى مصير معروف لمثل هؤلاء الذين كره الله انبعاثهم، فأطال عمرهم وأساء عملهم. كان اليوم محمومًا بغضب الثوار وبشهداء يموتون بفعل قناصة غير مرئيين، وأنباء آتية عن حالة من الفوضى عمت البلاد، وسجون وأقسام شرطة تم اقتحامها من قبل مجهولين، ولست مستعدا لاحتمال هذا المعتوه وسخريته، فرمى يأتى عشرات البلطجية لقتل الملايين بالمسدسات محلية الصنع والتى عرفنا اسمها فيما بعد "بالفرد" أو أن يعمل بعض القناصة عن بعد لتصفية هذه الحشود. نزعت ذراعى عن ذراعه بعنف، لكننى هدأت تماما حينما نظر إلى نظرة جد شفوق، ثم ربت على

كتفى بطيبة لا افتعال فيها. أردت أن أثبت له حجم الخطر الذى تتعرض له البلاد، وأنهم لا رحمة فيهم، فرفعت واقي الرأس، فظهرت جروحي من أثر معركة الجمال. مد يده وألبسنى الغطاء، ثم علقت ذراعه بذراعى من جديد وسرنا فى اتجاه وسط الميدان. حينما وصلنا وقبل أن أتحرّك ناحية نوبة حراستى، مد يده مصافحا ثم ربت بيده اليسرى على ظهر كفى الأيمن المصافح له، وقال: كيف حال أمك؟ وهل ماتت جدتك خالدة. نزعت يدى عن يديه بفعل اندهاش أصابنى بالتجمد.

- من أخبرك باسم جدتي؟ ولماذا تسألنى عن أمي؟
أشار بيده فى استخفاف وسخرية، أن انصرف. قلت: لن أنصرف حتى تخبرنى.

عاود ابتسامته الساخرة وقد ثبت عينيّه ناحية باب اللوق، ثم ضحك: اذهب قبل أن تأتى الخيول والجمال. قبل أن تبتلع جميزة العجمى ما تبقى من ضحاياكم، لن ينفعكم سخرية ابن النقاش ولا شرع أبوزهر. أجلستنى إلى جواره جدتي خالدة وشجرة العجمى اللتان أعرفهما من حكايات أمى وفضولى لمعرفة بن النقاش وشرع أبوزهر اللذين لم يردا فى متن الحواديت.

اهتزاز الهاتف النقال يمنحنى مساحة للحضور من دهشة هذا اللقاء غير الواردة وسط هذا الزحام. الشاشة تعلن مفتاح باريس. من المؤكد أن أخى الأكبر يطمئن على.

- أين أنت؟

- فى ميدان التحرير.
- وماذا تفعل فى ميدان التحرير؟
- أجاهد فى سبيل الله؟
- صوت ضحكات أخى جاءت أكثر سخرية من ذلك العجوز الذى اضطرت للجلوس إلى جواره.
- وماذا عن الجمال والخيول؟ أينتصر معاوية أم على؟ جعلتمونا سخرية للعالم. فضحك الله
- ومن قائد ثورتكم؟
- الله.
- يخرب بيت أبوك.. أسألك عمن يقود الثورة.
- أتعنى من البشر؟
- يا ابن المهبولة.. وهل يحتاج السؤال إلى سؤال للمعرفة؟
- نعم.. من الزيت.
- لا أحد.
- إذاً روح يا ابن المجنونة واشترى لأمك كوز العسل وحب العزيز من ساحة البدوى ولا تتابع فضائيات غسل الجنازة ونكاح الأطفال بعد اليوم.
- انتهت المكالمة التى أغضبتنى دون مقدمات، ربما أنهى أخى الاتصال وربما من سوء الإشارة فى محيط التظاهرات. فالتفت إلى جدى بركات كما أخبرنى

باسمه، فلم أجده عن يميني أو يساري. رحت ألتفت بشغف إلى كل النواحي، فلم أعر على أثره وكأن الأرض ابتلعتة لتوها. أسفل قدمي وسط حديقة المنتصف، سمعته يردد ساخرا وهو نائم على ظهره، عاقدا يديه أسفل رأسه، واضعا ساقا على أخرى، ناظرا إلى السماء: الشعب يريد إسقاط النظام الشعب يريد إسقاط النظام.

أحكمت وضع الهاتف في جيبى ثم جلست إلى جواره ومازال يردد بسخريته: الشعب يريد إسقاط النظام. أحسست بأنه واحد من هؤلاء الذين دفعهم النظام اللعين، لإفساد حلمنا الثورى، فلكزته فى كتفه وقلت: ماذا تريد مني أيها المعتوه؟

لم يحرك موضع ثبوت عينيه عن السماء، فيما كان قد أمسكنى من ذراعى الأيسر ودفعنى بعنف لم أتوقعه من شيخ على مشارف أعوامه المئة فإنطرحت على جنبى الأيمن، فاصطدم رأسى المجروح بحجر لقيط فأحسست بدوار يشبه الإغماء. نهض من اتكائه وأجلسنى وقد احتضننى بيمينه، بتناقض تام عما أحدثه لى منذ ثوان، بينما كنت أشاهد وأسمع بائعا جانلا ينادى: كوز العسل المسكر. حب العزيز الطرى. بركاتك يا بدوى يا حمال المحمول يا بدوى، أو هكذا خيل إلى أنى سمعت وشاهدت. لكن المؤكد فى هذه الليلة، أن عجوزا كفيفا مر إلى جوارنا فناداه جدى بركات: تعال يا جوستقى. دنا العجوز المتكئ على عصاة من شجر الزيتون ومد يده ناحيتى فأجلسته عن يمينى ومازلت أشعر بدوار الارتطام. توسطت المسافة بينى وبينهما، وما بين الحلم والواقع وهتاف الجماهير الآتية من البلدان القريبة

والبعيدة: الشعب يريد إسقاط النظام. أتى صحفي لالتقاط بعض التصاوير المعبرة عن لحظة وطنية بين أجيال وفئات واتجاهات شعبية مختلفة، فبدأت لتوى في خلع غطاء رأسى كى أكشف ضادات جروحي التى لا بد وأن تظهر فى الجريدة، ورحت أرسم ملامح الغضب على وجهى، لا أعرف بالتحديد ما دفعنى لرفع يدى فى الهواء وقد جلست على ركبتى بعدما كنت أجلس القرفصاء وفتحت فى عن آخره كدليل قاطع على ثوريتى الأبدية، لكن ما حدث أفسد فرحتى بتلك الحالة التى لم تكتمل والتى شهبها جدى بركات بحالة ابن النقاش، حينما قال: تذكرنى به على الرغم من الاختلاف فيما تعتقدون فأنت محافظ مسلم، وهو علمانى ملحد، لكن عشق التصاوير رغبة جائعة لا تفرق بين تقى وبغى إلا مارحم ربي. وحده أحمد النادى من ثبت على موقفه رغم حضوره المتأخر لحظة رفع الجثة من الجسر إلى دوار العمدة فقد تعرف إلى صاحبها، لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة مثلما فعل بن النقاش لحظة ما صرح على شهود الأعيان بأن الغريقة هى سهيلة أنس، رائدة باغيات خمارة يانكى بسمنود والتى كانت مؤخرا على علاقة بابن... فى هذه اللحظة وقبل أن يخبرنا بما كنا نعرف، كانت أيادى الحفراء تتلقفه بعنف حتى غاب فى "كارتة العمدة" إلى الدوار الذى ظل محتجزا فيه ثلاثة أيام خرج بعدها كى يعلن خطأه بقوله: كنت أظنها سهيلة، ساحنى الله. كنا متأكدين تماما أنه يكذب ولم نلم عليه، فكلنا ابن النقاش، لكن ما أدهش الحاجة "لاكى" هو طلب بن النقاش السماح من الله الذى لا يؤمن به قيد ثمرة جميز عربى. فالله هو الوسيلة التى نحملها بدناءتنا خطيئة عهر آثامنا لا

لضعف في ذاته، بل لقوة مطلقة تحملت وحدها غثيان الموتورين. قيدت الحادثة غرقا طبيعيا لإمرأة لم يستدل عليها، رغم إصرار أحمد النادى على تحرير محضر يؤكد خلاله هوية الجثة وشكه في افتعال حادثة الغرق وبالتحديد في هذا التوقيت، توقيت اكتمال الهلال بدرا ووجودها أسفل شجرة العجمى، كي تقيد الحادثة ضد الطرف الأسطورى. فسهولة كانت على علاقة باين سموح باشا، الساكن في عزبته النيلية بالبر الغربى، لكن لا دليل قطعى غير حكايات وشهادات شهود لن تكتمل، ربما رغبة من الطرف الذى يملك مفاتيح التحقيقات على إغلاق الملف حفاظا على علاقته مع الباشا، فتم احتجاز النادى وترويجه، إلا أنه أصر على موقفه، فكوئى بقضية أودعته السجن ثلاث سنوات. كان "لاكى" وشيخ الحضرة هما المعنيان بتدبير نفقاته في السجن ونفقات أسرته بالقرية، لم يكن تفضلا منها بقدر ما كان الهروب من خزى الصمت بتبرير المشاركة الوهمية في إقرار الحق بالمال.

أحسست بقشعريرة في بدنى، أورثتني خجلا من العجوزين اللذين أتوسطهما وحمدت الله أن تلك الصورة لم تكتمل، وقد شككت في كون العجوز الجوسقى كفيفا، لحظة أن رفع عصاته وطوحها في الهواء كأفعى التقطت مراقبة التصوير التى سقطت بضربة واحدة، وبينما كان الصحفى ينحنى كي يعيدها، كانت الضربة الثانية على رأسه، فصرخ مبتعدا عن المراقبة وراح ينادى وهو ممسك بمكان جرحه والنزيف يسيل على وجهه: بلطجية النظام. راح الشيخان في ضحك مزوج بسعادة لا تتناسب وقدسية الحالة وراحا يرددان: الشعب يريد إسقاط النظام، في استخفاف وضعة.

صوت سيارات الإسعاف المتوتر، تعلن سقوط ضحايا جدد، الناس ترفع الموقى والمصابين، وهم يصرخون: سلمية... سلمية، فى إشارة إلى رغبتهم بإنهاء قبول مطالبنا دون دماء. نهضت متلهفا وأنا أردد: سلمية.. سلمية، ثم حاولت الانطلاق ناحية شارع "شامبليون" لكننى انكفأت على وجهى على حين غرة، حينما وضع الأعمى الجوسقى عصاته غيلة بين قدمى. لابد وأن أهرب من هذين القذرين المحملين بنفخات شيطانية، أتيا بها إلى الميدان لقتل ثورتنا. لكن عصاة الأعمى لا تخطئ الهدف، وعنف العجوز وبده المصنوعة من شجر الكافور لا فكاك من قبضتها. جلست رغما عنى وقد ابتسمت تلك الابتسامة الهزيلة التى يفتعلها المغلوبون على أمرهم. رفع الأعمى عصاته ودسها ما بين كنفى وصدرى وراح يضربنى، وهو يقول: لماذا تضحك بعته طفل ضبطه أبوه وهو يلعب فى دبره؟ "من ليس له كبير فليشتر له كبيرا، يا ابن الحمار" ما رحلتم من الأندلس بالورود، وما دخلتم القسطنطينية بالأوهام فدولة العميان فى حاجة إلى بطل من نور. كان لابد لى من أخذهما على محمل - خاطبوا الناس على قدر عقولهم - فلا بد من الفكك من أسر جنونهما، لن أحتمل المزيد من الإهانة المحملة بجنون الرمز والتعمية. قلت: أستأذنكما يا عمى. سألتى جدى بركات إلى أى الجهات أتجه.

أجبت: إلى شارع "شامبليون" حيث المعارك هناك دائرة. سألتى ثانية: من شامبليون هذا الذى ستذهب إليه؟

كان لابد أن أضع حدا لهذا التعنيف الممتزج بسخرية وقحة، وليذهبا إلى الجحيم، ولو قبض بركات على معصى، سألقن رأسه حجرا ينهى حياته ولو رفع الأعمى عصاه، سأطبق على رقبتة حتى يختنق. على الفور جمعت قوى المتناثرة في زوايا الميدان واتخذت قرارى بالمواجهة، لن أجه ولن أضيع وقتى فى شرح مآثر الحملة الفرنسية وعلمائها وحسن ما فعله "شامبليون" بإمالة الأذى عن حضارتنا. أدت لهما ظهري ونزلت عن مرتفع حديقة الوسط، فى اتجاه شارع "شامبليون" توقفت أمام إحدى شاشات عرض الأخبار المنتشرة فى الميدان، ولم أكن قد ابتعدت كثيرا عن الشيخين الخرفين. كان الصحفى الذى ضربه الجوسقى على رأسه مازال ينزف على شاشة إحدى القنوات الفضائية التى تخصصت مؤخرا فى رصد ومتابعة أخبار الثورة المصرية. كان يحكى عما أصابه من بلطجية النظام، فى أثناء رصده لتحركاتهم أعلى كوبرى أكتوبر وسجله بعنف لا إنسانية فيه ولا رحمة وتحطيم مقالة العمل.

ظننت أن الأمر قد التبس فى رأسى وأنه شخص مغاير لمن ضربه الأعمى التفت ناحية الشيخين، فإذا بالجوسقى يحمل مقالة التصوير على راحة يده اليمنى ويحركها إلى أعلى ثم إلى أسفل وهو يضحك، فى إشارة تؤكد معانيها، أن الصحفى المطروح عبر الشاشة هو ذاته صاحب المقالة أخذتى سنة من دوار فجلست للتو مكافى، فالأعمى ليس بأعمى، والصحفى ليس شهيدا للبلطجية، وسهيلة أنس ليست مجهولة الهوية والعجمى ربما يكون عربيا، والشعب يريد إسقاط النظام. إذاً هى الحرب.. لكن من مع من، ومن ضد

من. نظام أسكننا فسيح قهر وشقاء، وجاهير تقطع الميدان بعشوائية مجنونة خوفا من تكرار تجربة الجمال والخيال العشرينية في مواجهة ملايين البشر. هل أختصر المسافة وأعود متخاذلا إلى قريتي، كي أعلن: اللانظام يريد إسقاط اللانظام. هل ننتج بثقافة الخراف نظاما أكثر بؤسا مما ندعوه الآن بالنظام؟ حتى لو كنا خرافا ضالة، فأين المسيح إذا؟ أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، إنما المسيح بعث لخراف بيت إسرائيل الضالة ولم يبعث لبيت...!!!

على شفا جرف من جنون أبدى، لقاء تلك التساؤلات التي دفعني إليها الشيخان، لكن لا بد أن أعرف بيت من نحن الذين أدركنا وأجدادنا شجرة بعمر الزمن، فأسميناها شجرة العجمي ونسبنا إليها ما نسبناه لحواء من بهتان رغم صراحة نص الغواية. عجمي يعنى فى اللغة أجنبيا. هل كنا نقصد هذا حقا؟! أم كعادتنا فى معاملة اللغة كامرأة ابتسمت لرجل فتحرش بها فى أول لقاء منفرد كعاهرة أغوته بالابتسامة. إذا سأعود إليهما قهرا كي أقول لهما من هو "شامبليون". نهضت متكئا على دوارى، فحانتني رجلى اليسرى. كدت أقع لولا أن احتضنتني من الخلف يدان ناعمتان، جذبتا جسدى إلى صدر أنثوى دافئ فى تلك الليلة الباردة. التفت برأسى نصف التفاتة، فإذا بـ"مونيك" تبسم إبتسامتها الجليدية الودودة. أحاطت خصرى بيمينها وسرنا حتى أجلسنتى على حافة رصيف الحديقة، على مقربة من الشيخين. بيد أن من ترفضة ساعة، تمنى وصالة دقائق، فتعود بوجه غير الذى ذهب به،

لحظتها تحمل آلام توحيد ذاتك فى أناتك التى رأيت بها جدك بركات عجوزا خرفا، أتى بفعل الخطيئة كى يفسد حلمك فى التغيير.

بأطراف باردة كما شتاء يناير، لامست مونيكا التى كنت قد تعرفت إليها بالجامعة الأمريكية منذ شهور، أطراف أصابعى المرتعشة، رغم أنها تعلم جيدا أننى لا ألامس النساء ولا أشرب وقد طرحت تباعضى لمشروع الله الثورى. سمحت يدى التى وددت لها أن تستجيب لتلك الملامسة الهادئة فى تلك الليلة الصاخبة، لكن ربما أكون على موعد للمراقبة من جدى بركات الذى سيسخر حتما منى، أو من الأعمى الذى يتصيد الأشياء كأفعى يافعة

مونيكا تشبه آجنس وإيمىلى وكل اللاتى عرفتهن فى محيط وسط القاهرة يجدن اللغة العربية وينكرنها فى الوقت ذاته. مونيكا وحدها التى اعترفت فى اللقاء الثالث لنا بأنها تجيد اللغة، لكن تفضل عدم إظهار ذلك. احترمت رغبته فى ذلك تأدبا، فهى خلاف آجنس تماما. مونيكا أقل جمالا. أكثر هدوءا. مفعمة بالحياة. تساعد كل من تعرفه دون أن يطلب منها. تحركاتها وأماكن وجودها وشكل العلاقات التى تبنيها مع شباب الفنانين والكتاب والشعراء فى سن العشرين، تشبه حالة آجنس تماما، رغم اختلاف جنسيتها ومجال عملها، فأجنس البولندية تعمل فى الجامعة الألمانية كأستاذ للفنون التشكيلية، تصر على عدم معرفتها للغتنا، لكن ردود تحركات قسماتها، تشى بكذب أشر. كنت أتعلم فى اللقاءات التى جمعتنا على مقهى الندوة بصحبة الأصدقاء المشتركين، أن أكون عنصريا، يوما أقسمت برأس من ماتوا ومن جاءوا بأننى على استعداد لقتل كل من يتآمر على وطنى، غير عابئ

بوجودها، ومدعيا جملها باللغة، ثم حولت وجهي إليها فجأة وسألتها: هل تريدن بمصر شرا؟ لم أكن متوقعا أن الفعل المدروس والمخطط يأتى بنتائج قاطعة في الإيجاب. تغير لون وجهها إلى الصفرة المزوجة بالارتباك. قالت: أبدا. أبدا never، ثم توجهت إلى صديقي عادل الذى سيصبح فيما بعد فنان الجرافتى الشهير وقالت بإنجليزيتها الطلقة، أنها لا تفهم شيئا مما قلته، ويبدو أنها محقة فى ذلك، فالإنسان الذى يسعى لتصديق مايرغب فى تصديقه فقط، بناء على برجة مسبقة، لا يصدق منقول الحواس بقدر ما يصدق منقول الأوامر، وسيثبت التحرير صحة مقولتى، ولاسيما بعد فكاكى من حصار الله الذى اخترته عن طيب خاطر.

مونيك تلامس بجانب مؤخرتها زاوية من مؤخرتى. جسدها يبعث إشارات الرغبة المحمومة فى جسدى. ترجع بظهرها إلى الخلف، ثم تميل بنهدا النافر على ظهرى، التفت ناحية الشيخين اللذين نهضا واقفين. استند كل منهما على الآخر واتجها ناحية مسجد عمر مكرم. كان لابد أن أتبعهما طلبت من مونيك الانتظار حتى أنتهى، فهزت رأسها إيجابا وأشعلت سيجارة رحت أتشم رائحتها فى أثناء متابعتى لهما. مونيك ليست آجنس، مونيك لا تؤمر، فقط تفعل ما تريد وقتما تريد كيفما تريد، فى لقائنا الثالث وحينما سألتها عن طبيعة عملها، ارتشفت من كوب الشاي ثم أدارت الكوب بين يديها وقد ابتسمت ابتسامة لا سعادة فيها ولا ألم. بعفوية طفل يغالبه النوم قالت: باحثة. أعدت السؤال التقليدى الريب: فى أى شئ؟ قالت: الأبحاث الاجتماعية.

ولصالح من تعملين؟ أخذت رشفة أخرى وأنزلت ساقا عن الأخرى وراحت تنظر في الكوب، وقد أحنّت كامل جذعها، ثم اعتدلت وهى تنظر إلى. قالت: أنا جاسوسة على مايدو. كان إعجابى بردها الناعم، يماثل كرهى لغباء آجنس التى سأراها قريبا أو أتمنى أن أراها أسفل شجرة العجمى.

التصقت مونيكا بكتفى فى أثناء محاولتى البائسة لإيقاف الجدين اللذين أنكرانى تماما. عينا بركات لا تتحول عن أولئك الفقراء الذين افترشوا الأرصفة والحدائق والطرق. مصريون بحجم فضاءات الله عشقا للوطن. وجوه أنهبها الجوع وأخرى حاملة بدير المدينة ووادى الملوك، أمهات ياصرار حتحور وعدالة ماعت. تعثر حسام فى هلاهيل جدى بركات، فانكفأ على وجهه. مد العجوز الجوسقى عصاه إلى طفل الشوارع الذى سيصبح عما قريب مساعدا ممها لصديقى عادل. نهض حسام مستندا على العصا، فأمسكه بركات من ذقنه وراح يتفحصه كخبير أدلة جنائية. صفرة وجه حسام ليست وحدها دليل بؤس مفتعل باسم الفقراء الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام ملابسه لا تستر هزال جسده من قسوة برد يناير. بقايا نعلين يخرج عنها إصبعه الأكبر من الفرده اليمنى، والأصغر من الفرده اليسرى. أما وسط الحذاء فمستور ببقايا جلد قابل للتمزق. أخرج جدى بركات عبوة من بسكويت محلى الصنع من طيات جلبابه وناولها للصغير، كنت قد تجاوزتها ووقفت لها مواجها، عينا بركات الخضراوان تلمعان بفعل ملح الدمع المختلط بأنوار المئذنة. عينا الجوسقى المغمضتان بدتا كفنجانين من نحاس أحمر. دموعها تتساقط مع رذاذ المطر المتساقط لتوه.

السماء تشى ببكاء ليلى طويل. كان حسام قد تناول البسكويت وانحنى على يد جدى بركات كى يقبلها، فسحب العجوز يده وراح يداعب شعره المبتل. غاب حسام وسط الجماهير، ومازلت ومونيكا فى مواجهة الجدين. بعضايت غمزنى الجوسقى فى كتفى. قال: وحده عبدالله الفيصل من ثار بلا دماء.. خذ صاحبك واستمع إلى ثورة شكه كانت عينا بركات معلقة فى السماء، وهو يتحدث إلى فراغ، وكأنه يحدث "أنوريس شو" إله الهواء عند القدماء - سلمية على ساكنى القصور ومراحيض فضائيات السياسة - يا نار كوفى بردا وسلاما على الفقراء

إلى جاردن سیتی ذهابا بعدما يؤست من مرافقتها. حقا كنت متعبا. باردا مثل هذا الرجل الذى لم نره إلا عصر ذلك اليوم بعد انتهاء معركة البغال، معذرة أقصد الجمال، وهو يعتلى ظهر شاب غفى جسده. يجرى خلفه مئات الشباب الملتحي والحليق. يرددون خلفه سلمية، فى الوقت الذى كان الشهداء فيه يتساقطون ملء الأبصار والجرحى يصرخون ملء تراتيل قداس عيد القيامة المجيد. لكنها سلمية... سلمية.

أوشك أذان الفجر على الارتفاع ولم أصل العشاء بعد. حتما سأعود إلى خيمتى وسط الميدان، فالمسجد مزدحم ودورات المياه مشغولة عن آخرها لفت مونيكا ذراعها حتى أحاطنى، وبدأنا فى المسير ناحية المنتصف الصلاة تأخذ حيزا كبيرا من رغبتى التى تحولت بفعل أنفاس مونيكا والتصاقها بجسدى إلى رغبة محمومة فى أن تطول المسافة ونحن كعاشقين. خطواتنا الحذرة تحاول أن تجد لها فراغا فى الأمكنة التى افترشها الناس للنوم والراحة

كلما حاولنا تخطى رجلا أو امرأة ومجذر شديد، نراه يرفع عن رأسه الغطاء ويتسّم، ثم يقول: تفضل بالمرور. بيد أنها محاولات بائسة للنوم في لحظات يأتيك الموت فيها بغتة، أو ربما محاولات للهروب من مصير مجهول وصلنا إلى الحديقة والسكون الحذر قد شمل الميدان، فيما عدا بعض التحركات المرتبكة في الأطراف. أرحت جسدى أمام الخيمة، فيما كانت مونيكا تنظر في ساعة هاتفها النقال وتتحرك بتوتر وكأنها في انتظار موعد قد تأخر. الصلاة خير من النوم، ينادى المؤذن قبل الصلاة بنصف ساعة أشعر بوهن في جسمي وصدايح يفتك برأسي المتعبة من أثر جرح المعركة غابت مونيكا عني للحظات، فيما كانت آجنس تصافحها بإشارة بعيدة فتلتق مونيكا التحية بابتسامة باردة، لا أعرف سر تعاونها رغم معرفتي المؤكدة أنها يكرهان بعضهما. بيد أن الملونين يعرفون معنى آخر للتعایش، كنا نعرف غيره في كتب الدين - أكره المشركين واقتل الكافرين تدخل جنة رب العالمين - حكايات عن الحاكم بأمر الله والمعتصم بالله والمؤمن بالله، لكن يبدو أنهم يدرسون كتبنا مغامرة تزدهم بالمخترع بالله والباحث بأمر الله والناهض بفعل الله. وكأن الله في الغرب مغاير لله في شرقنا الساحر المؤمن بأن العلم هو الدين وحده، والدين وحده هو النهضة. إلى جوارى جلست مونيكا وقد تخلصت من توترها. أتت بابتسامة طفولية وأشعلت لنا سيجارتين رغم علمها بأننى لا أدخن. اعتدلت جالسا. مالت برأسها على كتفى وراحت تنفث الدخان في وجهى بدلال. قالت: يبدو أنك متعب جدا، والنوم هنا سيزيد من تعبك، ثم لامست جبتي بكفها الواثق ومررته بهدوء على وجهى

ثم رقبتى. جسدى يؤلمنى حقاً، لكن الألم الآتى كشحنات كهرومغناطيسية بفعل يدها، جعلنى ساكناً مستسلماً لمداعباتها. نهضت ثم مدت يدها إلى فتلقفتها بارتعاشة مريض أبدى. ساعدتنى على النهوض، فيما كان مكبر المسجد يرفع الأذان. تجاوزنا كوبرى قصر النيل الذى شعرت به مضطرباً كما خطواتى المرتعشة وركبنا سيارتها فى سكون وسكينة صوت الشيخ القارئ لمبتدى سورة غافر. كان يأتينى الصوت عبر فتحة صغيرة من نافذة السيارة "غافر الذنب وقابل التوب. شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير" كنا نبعد والصوت يتلاشى فى أذنى. حالة من البكاء المكتوم لم تفارقنى إلا عندما فتحت مونيكا باب شقتها بالزمالك وقالت بهدوء: تفضل.

من ممر يتسع لكليتنا مررت إلى صالة فسيحة، ليس فيها سوى سجادة إيرانية ملقى عليها عدة مساند متناثرة بشكل جمالى مفتعل، حائط خشبى مفرغ بطراز إيطالى يفصل تلك الصالة عن الصالة التى تليها والمضاءة بمصابيح خافتة ومخفية فى سقف من جبس موشى برسومات إسلامية. بها منضدة طعام أمريكية وصالون فرنسى ومدفأتان أشعلتهما مونيكا فور جلوسى، بينما دخلت هى إلى المطبخ وعادت بكوب من النعناع الساخن وضعت بين يدي استأذنت للاستحمام. شعرت بدفء جعلنى أخلع معطفى وحذاءى، ثم رفعت ساقى على منضدة الصالون الرخامية. غابت مونيكا فى الحمام فلم أنشغل بغياها كثيراً، كنت قد غفوت حتى عادت وأيقظتنى. كان الماء الساخن قد أشعل وجنتيها حمرة متقدة. بقايا الماء المتساقط عن شعرها المعقود تحت غطاء "البرنس" الوردى بدا كبلورات ماس إفريقى على عنقها

الثلجى. رقم ثمانية المبعاد بين نهديها بدا كزهر لوز يانع حينما أسقطت غطاء الشعر بهز رأسها مرات متتالية، بدلال أنثى خجولة أو هكذا شعرت بها، مدت يدها إلى يدي فنهضت مواجهها لها وقد فاحت رائحة عطر التفاح من جسدها. لم أكن متوقعا تلك الرائحة التي أشعلتنى. أمى وهى عندى صادقة، أخبرتنى مرارًا وأكدت أن للمسيحيين رائحة "زنخة" مثل خنازير تاجر نقايات. كنت أشم كل زملائى المسيحيين فى الجامعة بهذه الرائحة، فأمى أبدا لا تكذب، لكن يبدو أنها لم تكن تعرف مسيحي الغرب.

أرشدتنى مونيكا إلى موضع الحمام، فاعتليت أربعة سلالم رخامية واتجهت عبر باب بلا ضفتين إلى ممر طويل ناحية اليسار.

كان الحمام فى مواجهة غرفتين إحداها للنوم والأخرى للعمل. المكان ليس به صلبان ولا تماثيل للعدراء كما ظننت. بضع لوحات لرسامين غير معروفين، جميعها من "الإيكوريل" إلا لوحة زيتية واحدة فى غرفة النوم، لفاتة عارية توارى سوء أنوثتها بيمينها وثنديها بذراعها الأيسر الذى أرخته منزويا على نهديها ورأسها مخنى كأنها تنظر إلى جسدها بقدسية أزلية. دعتنى مونيكا إلى النوم بجوارها، وكنت أتمنى أن تفعل ذلك، مذ رأيت بالحمام لباسها الداخلى الذى لا يجاوز نصف قبضة يدي. رحت أتشممه وأحركه على جسدى. ففار تنور رغبتي. كان "البرنس" الذى قدمته لى، قد منح جسدى مساحة من التحرر والراحة. الحجرة مشتعلة بلهيب المدفأة وأنفاسى المضطربة. استبدلت مونيكا الضوء المرتفع بآخر خافت. كنت قد تمددت بنصف جسدى على السرير وأسندت ظهري ورأسى على مخدتين إضافيتين من

"الفاير" الناعم، بينما كانت مونيكا قد خرجت ثم عادت بكأسين من غياب محلى بطعم التفاح. ناولتنى واحدا، ثم إلى جوارى تمددت نصف نائمة سحبت الغطاء على جذعينا، ثم رفعت كأسها، فرفعت كأسى. قالت: فى صحتك. للتو أحسست بدوار أول كأس وأول امرأة وأول دفء. مددت يدى كى أحيط عنقها. فارتفعت بجسدها وقبلتنى من جبينى، ثم استدارت وهى تقول: تصبح على خير. لم يكن هذا ما أتمناه، لكن ما أظن أنى فاعل رأسى الدائر بفعل الجسد النعناع وخمر التفاح يتجاذبان ذراعى اللاهثة. دوار الخمر والإرهاق كانا أكثر أثرا من جسد مونيكا الشهى، فقد نامت لتوها كطفلة على ثدى الهددة.

فى مطار القاهرة أوى تحذرنى من لحم الخنزير. جدى بركات يصرخ عندما رآنى تحت شجرة العجمى أخلع ملابسى للاستحمام فى النهر. الشعب يريد إسقاط النظام. الرجل المعتلى جسد الشاب العفى مازال يحوب التحرير رغم أننى متأكد من عدم مشاركته إلا اليوم. آجنس تنام مع صبى فى السابعة عشرة من عمره.

مونيكا توقظنى من فعل الأحلام ودوار السكر فى رأسى. قبلة على شفتين لم يذكر الله كعادتهما. تذكرت أننى لم أصل العشاء والفجر. نهضت فزعا كانت بقميص نوم أحمر وستيان لا يجب إلا حلمتها. تنكشف مفاتها الأسطورية بلا ضمير أحبته. العقب الموشوم على مؤخرتها يحذر من اللمس أو الاقتراب أو التصوير. بدت كشكنة عسكرية تحيطها فراديس علوية كانت للزوجة بين فخذى فى حاجة إلى الاستحمام. أعدت مونيكا مائدة الإفطار

قبل خروجي إليها بذلك "البرنس" الذي لم ألاحظ أنه موشوم من ناحيتي الصدر بعصافير ملونة، وعلى المؤخرة بطاووس كيني إلا في المرأة رأيته كهلوان في سيرك صيني، رحت أبحث عن ملابس، فلم أجدها أشارت مونيكا ناحية المدفأة، فوجدت المعطف مغسولا وقد طرحته عليها كي يجف. جلسنا قبالة بعضنا. مدت يدها ناحية فمي بقطعة خبز، وما إن فتمحت فمي حتى تراجع إلى فمها في دلال أثوى طازج. ضحكنا حتى كدت أموت شرقا، فنهضت عن مقعدي وجلست جوارها. رحت أطعمها وتطعمني حتى ذابت شفتانا قبلا. تعانقنا حتى الغياب. سمعنا إلى السرير، فاستلقت بود أفرغت سنينا من الفقر والقهو والحرمان على جسدها الموشى بالحياة مغمضة العينين. مبتسمة فرحة بخجل المرة الأولى التي لم تكن كذلك استندت إلى شباك السرير وقد أطلقت زفرة أخرجت سنين الحرمان عن جسدي. تهمت في فراغ الغرفة مبتسما بسخرية لقاءات شيخي المتزوج من أربع نساء لم يتجاوزن العشرين. أتخيل مؤخرته التي تعلو وتهبط معهن ولحيته التي يمشطها بيده وهو يجبرنا عن جواز نكاح الأطفال، أرى في الفراغ وجهه النوراني وهو يجبرنا عن جنة الفقراء ومأثمهم من العذاب. بيدها لكزتي مونيكا، فعدت لحضور قاذبي إلى اعتلائها ثانية فثالثة، فهربا من حرمانى نهضت مونيكا عن السرير وهي تضحك. عقدت يدي تحت رأسي وأرخيت جسدي الذي استعاد عافيته المسلوقة في عراء الميدان. استبدلت مونيكا ملابسها وعادت وفي يدها نسخة من مفتاح الشقة، أعطتني إياه وقالت أن البيت بيتي وعلى ألا أخرج من شيء. أمسكت يدها

وهي تناولنى المفتاح. حاولت جذبها إلى السرير، فانحنيت على جبهتي وقبلتني، ثم خطت بشفتيها نسخة معربة من قبلة أمريكية احترافية على شفتي وتركني غارقا في خدر لذيذ. نهضت إلى المطبخ باحثا عن خمر التفاح وقد نسيت نوبة حراستي والشعب يريد وماحدث في تلك الليلة التي لولاها لظللت أشتم الرائحة "الزئخة" للمسيحيين حتى يوم يبعثون.

كإيمان ماركس بالخلود، كنت مؤمنا بأن الشعب يريد وبأن الثورة بلا قيادة ستحقق نتائجها، هذا ما قاله رئيس الفصيل الذي كنت أنتمى إليه ورددته المحطات الفضائية من بعده، ولأنه لا يحق لى إلا الاستجابة، فكان لابد من الخروج مع إخواني يوم الخامس والعشرين لمراقبة حال التظاهرات داخل الميدان، لم يكن مصرحا لنا بالمشاركة، ولم يكن مصرحا لنا إلا بالقول إنها ثورة شعبية لا قائد لها. في اليوم الثالث من تفجر الغضب أتننا الأوامر بالمشاركة، فكان الإخوة يلهثون خلف الرجل المعتلى لكتفي الشاب العفى وهم يرددون: سلمية... سلمية.

بيد أن بركات والجوسقى وجسد مونيكا الطاغى حد الاقتتال، كانوا يدركون أنها ليست ثورتنا. فراح العجوزان يكرسان خبرات السنين في السخرية منى وحدها مونيكا من أشفقت على وعاملتني برحمة تتناسب وقهر نظام أورثنا الخنوع، وجاعة ضمنتى لصفوفها منذ عام، وأقنعتني بأن الفشل يأتي إن لم نلتزم بأوامر الجماعة.

الأخبار تأتي عن طريق الرسائل القصيرة على هاتفي النقال. الشعب هو القائد والمعلم. الثورة لا قائد لها. سلمية هي. كنت في طريقي من الزمالك إلى الميدان عبر الجسر الممتد أعلى النهر، وكان أذان الظهر يكسر حدة الصراخ. ليلة أفقدتني صلواتي ونسكي ومحياي ومماتي. أشعر بألم في معدتي وغثيان ورغبة في القيئ ربما بفعل الكأس الذي تناولته قبل الخروج وربما إحساس بخطيئة الزنا التي لم تفارقتي بعقب رائحتها اللذيذة منذ الصباح. حتما لا بد من التوبة والاستغفار والعودة إلى إخوان الكفاح. بلا تردد أخرجت مفتاح مونيكا وألقيت به في النهر، ثم حذفت اسمها من قائمة اتصالات هاتفي. استوقفت سيارة أجرة. سألني صاحبها إلى أين.. فأجبت: مسجد السيدة زينب.

مررنا من السبتيه إلى شارع رمسيس ورحنا نتأرجح بين الشوارع الخلفية والمغلقة حتى دخلنا شارع منصور. رأيت آجنس على الناصية إلى جوار صبي تمازحه، فالتقت أعيننا دون ابتسامة أو تحية. أدركت أن مونيكا في الميدان طالما آجنس ليست هناك، فالمناوبة حتما تقتضي ذلك. الهاتف النقال يخبرني برغبة رئيس الفصيل الذي أنتمى إليه، في رؤيتي خلال عشر دقائق من الآن.

- تفضل يا أستاذ. السيدة زينب.

نزلت بعدما تشاجرت مع السائق لطلبه خمسة جنيهات زائدة، بحجة بدل المخاطرة، فليس هناك مواصلات في ظل ذلك التوتر. وكعادتنا في تبرير

سلب حقوقنا، وبعد شجار كاد يصل إلى العراك، أعطيته ما طلب متعللاً بأنه على حق، حينما قال: يا أستاذ هذه أيام سوداء عليك أن تقدر ذلك. قلت: أنت على حق ونزلت في اتجاه مقام العتريس والعيدروس.

ما بين المقام وحائط باب المسجد فجوة، تكاد لا تسمح لجسد منفرد أن يتوارى داخلها. كان مغطى ببطانية متسخة وممزقة. لا يظهر من جسده سوى نصف وجهه بأُس. حسام - رحت أوقفه. كان نومه عميقاً ووجهه الطفولي يقطر براءة وراحة كونية

- حسام - رحت أكرر. فتح عينيه مبتسماً

- صباح الخير يا أستاذ.

- صباح النور. ما دفعك للنوم هنا؟

ابتسم بحال لا سخرية فيه ولا ألم، ثم اعتدل جالساً وقد لف البطانية حول جسده.

قال: ما أنا منى هنا، هو عين ما أنا منك هناك.

شعرت بأنه كان يراقبني أو أن مونيكا قد تكون وضعية إلى هذا الحد الذي جعلها تفضي بفضيحتي لطفل لم يتجاوز التاسعة، فعلاقة قديمة جمعتهما من ريادة مقهى الندوة.

على كل حال جئت كي أنسى ما حدث وأتطهر من جرح خطيئتي. أعطيته خمسة جنيهات، فأخذها شاكراً، ثم ابتسم وراح يردد وهو يطوح بالعملة في الهواء ويرقص: الشعب يريد إسقاط النظام، بينما اتجهت إلى باب المسجد الذى سقطت على أول درجات الهبوط المؤدية إلى الداخل. سمعت أصوات مجاذيب تهلل وتضحك، ينادى بعضها بعضاً: فريسة جديدة لعصاة الجوسقى. كان منزويًا في نهاية الدرجة الأولى، لحظة أن وضع العصا بين ساقى. أصابت الأرض الحجرية حاجبى بجرح غائر. رحت ألملمه بمنديل ورقي، ولا أحد يريد المساعدة ولا حتى الكف عن السخريّة.

رأيت حسامًا أمامى ممسكًا بشاش وقطن ومطهر ولاصق جروح. راح ينظف الجرح ويضمده وهو يضحك إلى العجوز الجوسقى، ويقول: نفحه قويه يا جاد حرام عليك.

بيد أن النفحات التى تقدمها منّا فى أنفسنا وأذى فى عقولنا الرديئة، لا يقبلها الله ترفعا وعلوا، ويبدو أن ابن النقاش كان محققا فيما نقله عن "نيتشه"، أن الأسوأ منا يقدم صدقاته كي يُشعر ذا الحاجة بدونيته، فكان لابد أن أُمْنَح حسام مبلغا آخر، فرفض ما قدمته إليه، وقال: يكفى يا أستاذ.

من منا صاحب الفضل على الآخر، أنا أم حسام الذى أفق أكثر من خمسة عشر جنيها على جرحي؟

مد العجوز الجوسقى عصاته إلى، فنهضت بها حيث يجلس. أشار أن اجلس، فجلست كما مجاذيب الأبواب. مد يده ودفع وجهى بعيدا عن وجهه

وقال بأن رائحة فى تشبه خنزير تاجر نفايات، ثم نهض، وهو يقول: لا تتحرك حتى نأتيك.

كان وحده، ترى ماذا يقصد بـ نأتيك؟

حسام بالقطع سيحمينى بحضوره من عبث المجانين. لن يتركنى فريسة لعبتهم. لكن لماذا يفعل ذلك؟ ليس لى فضل مسبق عليه. بل هو صاحب اليد العليا على ذاتى المتهتكة جراء الخطايا. يعاودنى اتصال الرئيس. لن أجيبه على أى من الأحوال. أغلقت الهاتف ورحت أفتقد وجود حسام الذى اختفى

جدى بركات محاط بعشرات المجاذيب. ذراعه متشابك وذراع الأعمى. توقفوا جميعهم أمامى. تضاءلت حتى كدت أتلأشى خوفا من تلك الأعين المجنونة والمتحفة بالفتك. صرت ذلك الطفل الذى ضبطه أبوه وهو يعبث فى دبره شعرت بالبول يحاصرني وبالرغبة الآنية فى اللجوء لأقذر مرحاض قريب أشار جدى بركات إلى المجاذيب فتهبأوا على شكل طابور عرض عسكري ودبت أرجلهم فى الأرض وانصرفوا يرددون: الشعب يريد.. الشعب يريد

نظر جدى بركات إليّ بقرف شديد، ثم جلس والجوسقى إلى جوارى توسطتهما عن خوف واستسلام. طال صمتها حتى كدت أبول فى ملاسبي لولا أن تداركنى الجوسقى بضربة من عصاته فى صدرى، تبعها بركات بسؤال عن ذلك الفصيل الذى أنتمى إليه منذ عام، أو هكذا فهمت السؤال قلت: هى جماعة تريد تطبيق شرع الله وتحكيم الله فى الزرع والضرع

فالرسول قدوتنا والقرآن دستورنا. ضحك الجوسقى ملء شذقيه، وأخرج بصاقه في وجهي من أثر الضحك. قال ومن زعيمكم؟ قلت: سيدنا. وهل هناك ضرورة بأن يكون لكم زعيم وسيد، أجبنا بنعم. فلا نجاح بلا قيادة.

عاود الجوسقى فعل عصاته في صدري وهو ييصق ضاحكا، وكيف لثورة أن تنجح بلا قائد؟ ألم أخبرك بأن دولة العميان في حاجة إلى قائد من نور؟! يقينا هو محق، سيدنا هو القائد، لكن ما أخبرني به الرئيس خلاف ذلك، هو القائل بأن ثورتنا بلا قائد والرئيس لا ينطق عن الهوى، بل بأمر الله وسيدنا الأعمى رفع عصاته في الهواء ونادى حساما الذي أناه على عجل.

- أمرك يا جدى.

- أخبره بدولة العميان.

- هى دولة قائدها من نور.

إشارات وتعمية ورمز أفقدوني صوابى. شعرت بشلل تام في تفكيرى. من أتى بى إلى عالم التعمية هذا؟ تمنيت لو أننى ابن وحشية النبطى كى أفك رموز التعمية أو أقرأ بسرانية الغنوصية وهيراطيقية الفراعين كما "ذوالنون" المصرى، تمنيت أن أكون اللحظة "ذوالنون" ولو اضطرت للحمل على حمار. مكبلا بالأغلال. متها بالكفر والجنون، لكننى أملك للحقيقة مفتاحا سأذهب إلى الخليفة المتوكل وحدى فى قيودى، سأستمع إلى نصيحة تلك السيدة التى ستقابلنى: لا تدافع عن نفسك ياذا النون. سأقول لها: سأفعل إن شاء الله.

حتما سيقدم الى مصر عبدالله بن عبد الحكم عريضة اتهامى ، بإحداث بدع فى الدين، سيقول يا أمير المؤمنين، هذا الكافر يتحدث بكلام كهنة امون الذين تلبسوه فى البرابى، وهو ينقل نقوشهم وتصوير جدران مقابرهم. يدعى أنه يملك علما للمقامات وطبقات للأولياء. لن أرد على هذه الترهات بأى حال من الأحوال. وحينما يسألنى المتوكل لماذا لا تدافع عن نفسك؟ سأقول يا أمير المؤمنين إن دافعت عن نفسى بالبراءة فإننى قد كذبت فريقا من المسلمين، وإن اتهمت نفسى بالكفر فقد قلت فيها ما لا يعلمه ربى عنها. ربما يعجبه قولى ويقول عظمى يا ثوبان. سأقول يا حاكم ديار الله: ان لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشفرفهم بخالص من الشكر، فهم الذين تمر صفهم مع الملائكة فراغا حتى اذا صارت إليه ملأها لهم من سر ما أسروا إليه لحظتها سيبكى، ويقول: إن كان هذا كافرا، فأين المؤمنون إذا؟! سياتركنى وسأذهب إلى رابعة العدوية وأصطحبها إلى ديارى. فصاحبة السكر والليل هى عين حقيقة زاهدة هذا الزمان.

كيف حال شارع شامبليون يا أمير المعرفة؟ اعترضنى سؤال جدى بركات وأعادنى إلى ليلة الأمس. كنت سأخبره بأن شامبليون هو صاحب هذا السبق الحضارى فى كشف أصول لغة الأجداد.

بدأ فعل عصاة الجوسقى يتحرك فى صدرى من جديد. طالما تعرف عن ثوبان ما تعرف فلماذا لم تكمل؟! المعرفة المنقوصة جمل مكتمل، ونصف الفضائل صحيح الرذائل، فأبو الفيض ثوبان ذوالنون المصرى هو صاحب

رسالة "حل الرموز وبراء الأسقام في كشف أصول اللغات والأقلام" ولن تنجح ثورة تحمل شوارعها إثمًا لعشاقها.

دوى صافرات الإسعاف يحجبني عن ضجر العالم. العميان وأبطال النور وشامبليون وذوالنون وابن وحشية النبطي، وقراءاتي غير المكتملة. رائحة مشفى مغلول بالجرحى واستسلام الموتى. عصاة الجوسقي تدب على أرض من بلاط الاحتلال القديم. بيد أنه لم يعد هناك فارق بين يقظتي ومنامي حلمي وصحوى. سلامة عقلي والجنون. لم أعد أرى سوى اضطرابات ودماء وقتلى. شهداء يوجون في أحياء. كنت بينهم عند باب الأزهر. أستمع إلى ذلك الشيخ الأعشى، الذى ينادونه الناس بسيدنا سليمان الجوسقي. كيف يحمل في وجهه صلابة مقاتل. يجتمع حوله آلاف البشر الذى أناه محتميا من أخبار هجوم بونايرت على البلاد. جيش من العميان فى مقدمة الصفوف، لا يسمحون لأى مبصر من الاقتراب نحو زعيمهم. يعرفون بعضهم بإشارة ملمس متفق عليها، يتم تغييرها كل أسبوع فى الاجتماع المقرر ببيت سيدنا سليمان والذى لا يسمح لأحد بالتخلف عنه إلا لضرورة ما.

حارسان يقفان عند الباب، يصافحها كل من يمر، ثم يحرك المار الإصبع المتفق عليه أن يحركه هذا الأسبوع وبطريقة معروفة مقدما وبعدد لا يجب تجاوزه وإلا تم القبض عليه والتحقيق معه. كان حال عميان الجوسقي سليمان، يشى بنعمة قد سلبها المماليك الحكام من أهل البلاد. بعضهم يأتى بصحبة مرافق، وبعضهم يأتى بسيارات تجرها الخيل، وبعضهم برفقة مكارى يظلل الركاب بمظلة من قماش الخيام. نعمة كانت بفضل قائد من نور الشاب

سليمان الجوسقى، ذلك الكفيف الآتى من قرية جوسق بمحافظة الشرقية، كى يكمل تعليمه فى الأزهر الشريف، لم يحتمل وطأة القهر وعذابات الفقر التى يحياها العميان، فجاب البلاد من الفرما إلى الإسكندرية ومن أسوان إلى دمياط يجمع العميان ويرحل بهم إلى عالم من نور. يقتطع من أرزاقهم لمستقبلهم. يبنى لهم مشروعات منظمة تدر دخلا كافيا لصاحبها الذى يتعهد بدفع جزء من الربح لبیت العميان أو صرح سليمان كما كانوا يسمونه. كان يصرخ فيهم: من بونايرته هذا الذى تهابون؟ حقا لم يكن يعرف بونايرته الذى سيموت جدى على يديه. أفقت من الغيبوبة والأعمى يدب عصاته على البلاط القديم والدمع ينزل من عينيه المغضتين، وهو يردد: رحمك الله يا جدى كنت بطلا من نور.

حسام ومونيكا وبركات والجوسقى حول سريرى فى مشفى القصر العينى أماكن تأخذنا وأخرى تلفظنا رغما عنا، وكأننا نحيا ذرات عصف فى مواجهة ريح سموم ورغم ذلك تتبع بؤس غوايتنا فى تحميل الله عهر آثامنا. نهض جدى بركات والجوسقى وهما بالخروج. أمسكت يد العجوز الجوسقى ورجوته الانتظار.... وماذا فعل نابليون بجذك؟ ولماذا فعل؟ ابتسم بحزن، ثم هز رأسه قائلا: المهم أنه لم يفعل بالعميان، فجدى والمسيح حملا خطيئة العميان وأقنذا خراف الرب من الهلاك. خرج العجوزان وظل حسام ومونيكا التى لم أعرف كيف وصلت إلى هنا، رغم أننى لم أعرف أيضا كيف وصلت أنا إلى هنا. وجب على مغادرة المشفى ومنح المصاب القادم نصيبا من الحلم أمسكنى حسام من معصمى، بينما وضعت مونيكا ذراعها تحت

إبطى، وبدأنا فى المغادرة. استوقفتنى الممرضة البدينة وبعد فاصل من سباب، طلبت منى الانتظار حتى أوقع على المحضر. لم أكن أعرف سبب مجيئى إلى هنا كى أوقع على شئ. أشعر ببلل فى ملابسى الداخلية، لكننى حمدت الله أنه لم يتجاوز بنطالى. عادت الممرضة وفى يدها ملف أوراق كثيفة وناولتنى أنبوب قلم متآكل وطلبت توقيعى على محضر إثبات مصاب ثورة. محض جرح غائر من قذيفة حجرية لم أتبين مصدرها وآخر بفعل عصاة الجوسقي وضيع كدمات جراء السقوط على أرض باب المسجد الحجرية. لن أوقع، هذا ما قلته بغضب للممرضة التى ملمت الأوراق دون أن تعيد الطلب مرارا كعادة الناس فى بلادنا. أمسكتها مونيكا من كفها برفق، فتوقفت لتوها. مالت مونيكا على أذنى وقالت: وقع فأنت لا تعرف قيمة هذا الملف مستقبلا وقعت دون أن أقرأ ولم أبد اهتماما، ثم خرجنا إلى الميدان. مازال الشعب يريد إسقاط النظام، ومازال الرجل المعتلى لكثف الشاب العفى يردد: سلمية. لكن هذه المرة يعتلى كتنى رئيس الفصيل الذى أنتمى إليه، وجل السائرين خلفه من إخوة الكفاح. تركتنى مونيكا عند الخيمة برفقة حسام، الذى تركنى بدوره غائبا فى أول مسيرة مرت إلى جوارنا، راح يردد معهم: "ارحل يعنى امشى يالى ما بتفهمشى". مشاهد الأمس تتكرر هذه اللحظة دون تغيير يذكر جماهير تجرى بلاهدف فى اتجاهات عابثة. شعارات جميعها يدور حول الرحيل. شاشات العرض التى تستضيف مئات الزعماء والنشطاء الذين ظهروا فجأة على شاشات عشقت وطننا فجأة وراحت تبكى الشهداء والجرحى ومن فقدوا نور أعينهم فى القتال. إصرار

من الشباب المنتقى بعناية للتسجيل مع الفضائيات على عدم وجود قائد للثورة وبات المشهد وكأنه مصمم بطريقة الويندوز الرقمية. كنت على يقين بأن ثورتنا بلا قائد ناجحة وأن جماعتنا دون قائد كارثة تقود الجماعة إلى الحل والتفسخ، فسيدنا هو القائد، هم قالوا لنا هذا. وحده من حفظ دماءنا، لم يُقتل منا قتيلا واحد بفضل حكمته، قال رئيس الفصل بأن سيدنا أمر بعدم المشاركة حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود وقد ظهرت حكمته في اتباع شرع الله، أنه لم يقدم منا شهيدا واحدا، فالشرطة التي كانت تقتلنا قد انسحبت. يومها قرر سيدنا المشاركة. كنا نتحرك بأوامر محددة وفي اتجاهات نحمد الله أن القناصة والغوغاء لم يصلوا إليها. إنها عناية الله لأحبابه. أما الذين لا قائد لهم فقد ذهبوا في أكفانهم ولم يتبق من ذكراهم سوى تصاوير وبعض رسومات على حوائط الميدان، بدأها عادل الذي تناولت رسوماته العشرات من وكالات الأنباء العالمية والمحلية بعدها أصبح الميدان محطة لفن الجرافتي. رحت أفتش قوائم هاتفي بحثا عن رسالة منسية من مونيكا تعيد إلي رقمها الذي حذفت. لن أحتمل النوم في الميدان والطرق مغلقة في وجه قريتي. بيد أننا نخسر أبواب راحتنا باسم الله وشرع الله، نعمل عواطفنا إذا ما ذكرناه، ننسى بفعل مصمص الشفاة والنواح على ماض زاهر أننا أمة مبتداها اقرأ وصلبها يعقلون في تسع وأربعين آية بين الصراحة والاشتقاق، ترى هل كنت في أحضان مونيكا كخزير تجار النفايات؟ لم أكن في المبتدى بقارئ وما كنت في الصلب بعاقل وما استعذت الله في المنتهى من شر الوسواس الخناس. ليتني احتفظت بالرقم والمفتاح فאלله غني

عن الأغبياء. وجسدى يشتاقل لمونيكاً، وأصوات شتائم آتية من الخيام الخلفية. نهضت مع من نهض لتحرى تلك الجلبة، كانت آجنس عارية تماماً، إلى جوارها صبي فى السابعة عشرة، مثلها عار. لم يكن يحيطهما عن قرب سوى إخوة جماعتنا، فكنت واحداً من الذين نالوا قسماً وافراً من الولولج إلى ذلك الجسد البولندى الأشبه بعاريات موديليانى ونساء كلميت الفاجرات لم تسمح جماعتنا باقتراب المنقالات للتصوير، سوى منقالة واحدة. إخوتى جميعهم يصورون بهواتفهم النقالة. بعض شباننا يجذب الفتى العارى ويدفعه إلى آخر يسلمه لثالث وهكذا، فى مشهد مدرّوس بعناية كتابات محمد ناجى ومنقالة أحمد صقر. كانت آجنس التى لم يتعرض لها أحد بأذى، توارى سوءتها بأن تفوقعت على نفسها وأرخت رأسها إلى ركبتيها، فانسدل شعرها الذهبى وغطى عورتها. رحت أمر بين إخوتى محملاً بمحدد كراهيتى للأجانب الذين أتوا لتدمير بلادنا، هؤلاء الذين تشبه رأتهم رائحة خنزير تاجر النفايات، ركلتها بعنف يتناسب والكراهية، ففوجئت بالإخوة يجذبونى بعنف وقسوة، كنت أتوقع عكسها تماماً، فالزانى والزانية لابد من جلدتهما. انتهى المشهد على ستر جسديهما بملاءات كأنها مجهزة مسبقاً وتم تسليمهما إلى ضباط الجيش، يضع لقطات عابرة. كانت تلك هى المرة الأخيرة التى رأيت فيها آجنس لحماً ودماء وليست صورة يعرضها أبومالك الفقير على فضائية الإيمان، وقد ظل جسدها الطازج فى ذاكرة نجوى وسرى.

"الزَّائِنَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ".

صوت جدى بركات يتلو فى أذنى. رحت أتحسس موضعه وسط الزحام. لم أجد له أثرا، لكننى على يقين بأنه التالى. يعاودنى الصوت مكررا نفس الآية وأعاود البحث بلا جدوى. دارت رأسى كمنقالة تلتقط صورة محورية لميدان فسيح. رأيته أعلى مجمع التحرير وهو يشير إلى عقله ويردد - من هنا - ثم يشير إلى قلبه ويردد- من هنا- ثم إلى موضع ذكورته - من هنا - عدت إلى عالم الرمز والتعمية. الصداق يفتك بى. أشعر بسيطا تفتك بجلد رأسى وأزاميل حجارين الجبال تدق فيها بلا رحمة. الزائنة والزانى، صوت يردده بركات وهو يلتقى بنفسه من أعلى المجمع ويسبح فى فضاءات الله، ويشير إلى رأسه ويسخر: الزائنة والزانى. الألم يتجاوز حدود الجماعة والشعب يريد وشامبليون والراحلون والآتون من مدن السراب. السياط الأربعون. الخمسون المئة. نباح الأزاميل تتلاشى ووجع رأسى يتجاوز مرورا إلى جسدى المتعب رحت أطرق الباب بضعف مريض يحتضر واليد الأخرى تدق الجرس. ليتنى احتفظت بالمفتاح. مونيكال ليست بالداخل وجسدى يشترق سرير الراحة وعقلى تائه بين الله والجماعة ومدن القهر. استسلمت للسلم الرخامى وتمددت مستندا إلى باب الشقة. عند الفجر كانت يدها الباردة توقظنى. لم تنطق بكلمة. عندما فتحت باب الشقة دخلت مستبقا خطواتها. وحدى إلى الحمام ومنه إلى السرير، مرتديا "برنس" العصافير

والطاووس الكيني. لست نادما على تلك الهيئة التي رأيت نفسى عليها فى الصباح. مسخ محاط بمرايا الحمام. "البرنس" يكشف عن ساقين مشعرتين كما كلب أرمنى. مؤخرتى المحصورة بفعل تعارض مقاسى وجسد مونيكا، يشعرنى بالغثيان. تجربة تكشف عن القبح الذكورى المستبد فى ذواتنا. التفت برأسى وأعطيت ظهرى للمرأة ورحت أتخسس موضع الطاووس الكينى، ثم استدرت وداعبت عصافير صدرى هذا ما يفعله الشواذ على الشبكة العنكبوتية. ليس هناك أى ميزة كى نداعب حجيم مؤخراتنا، ولا أرى فيها إلا مستودعا للنفايات. للمرة الأولى أطرح ذلك السؤال الذى وجدته أكثر وجودية من سارتر وعثا من كافكا. لماذا خلق الله لنا نهدين؟ الماء المتساقط من "الدش" لا أستطيع التحكم فى توقيفه أحيانا ينزل باردا فيحدث رعشة فى جسدى، ومرات ينزل ساخنا درجة الاكتواء.

الشعب يريد إسقاط النظام. رحت أضحك وأنا أتذكر يوميات هذا الثائر المتسريل بتياب أنثى وعرى عاهرة تحت خلل الماء المنهمر. الجوسقى وجدى بركات وحسام يرددون معى: الشعب يريد ضبط خلل الماء. خرجت من الحمام منتشيا وعاريا، متجردا كما مولانا على عبدالدايم. قنشت عن مونيكا التى لم تنم فى سريرها. وجدتتها فى غرفة مكتبها. منكفئة برأسها على يديها التى عقدتها على حافة المكتب، أمام الحاسوب المفتوح منذ البارحة على ما يبدو. وضعت يدى على كتفها الأيسر وهزرتها بهدوء. فتحت عينها بتناقل ونظرتنى باشمئزاز يتناسب وهيئة ذكر بط يفح بهياج. رفعت رأسها وفركت عينها المرهقتين. قالت: ارتدى ملابسك. كنت أتوقع أن تسعد بجرائى

وتتذكر أن ذلك مقدمة لاستدعاء اليوم الفائت. دخلت مونيكا إلى غرفة النوم وسمعت صوتها وأنا في الصلاة أرتدي ملابسى: سأنام قليلا فلا تزججنى، ثم سمعت صوت إغلاق الباب بعنف. حتما هذه إهانة، لكننى لن أخرج فالشقة شقتى ومونيكا وما تملك خاصتى، هذا ما علمه لنا رئيس الفصيل فى محاضرات الرد على الخصوم السياسيين والعلمانيين الكفار حال الهجوم على الجماعة: إن قال لك قائل بأن جماعتنا أسسها الإنجليز ومولها الفرنسيون واحتج إليك بما دفعه البارون "دى بنوا" رئيس شركة قناة السويس للإمام الشهيد. على الفور أجب كما أجب الإمام: الأرض أرضنا والبحر بحرنا ومال الكفرة مالنا لن أخرج مهزوما على أى حال وسألقها درسا لن تنساه، سأحرقها غيظا حينما تعلم ما فعلت داخل شقتها النجسة. دخلت إلى المطبخ وأخذت الولاعة واتجهت إلى الصلاة. أشعلتها عدة مرات أمام عيني. النار لا تواجه إلا بالنار هى السبب فى إهمالى الصلاة لمدة يومين، سأشعلها هكذا... تركت الولاعة واتجهت للوضوء. فالصلاة خير رد على حقارتها. ستعلم الكافرة أننى ذكرت الله فى عقر دارها.

الله أكبر... بخشوع أجدت المران عليه رحت أصلى. الركعة قبل الأخيرة تأخذنى إلى عوالم نسييتها منذ انضمامى للجماعة. نسييت حضرة سيدى إبراهيم القرشى الدسوقي وحزبيه الكبير والصغير. نسييت أورادى وأذكارى التى علمنى خالى إياها. راح عن ذاكرتى حكايات الأولياء والصالحين التى تشربتها زمنا من الوهم.

سمع الله لمن حمده.. مولانا على عبدالدايم يقف أمامي بعريه التام. مجردا من الملابس كما مولود لتوه. رغم ذلك العرى لم تظهر له عورة. قال شيخى: إن مولانا عبدالدايم.. معذرة شيخى هذا غير شيخى الذى كان يحدثنا عن مجد الفقراء، فالأخير هو شيخ الجماعة التى انضمت إليها بعدما تركت جماعتنا البرهامية وقبل الانضمام إلى جماعتنا الآنية، فأنا ابن الجماعات على حد وصف صديقى عادل. قال الشيخ الصوفى أو من كان شيخى فى يوم ولى: أن مولانا عبدالدايم، كان أستاذا للشرعية بجامعة الأزهر، وكان يحاضرنا يوما فى التجرد، وكلما أفاض، قلنا لا نفهم، فيعيد على مسامعنا ويشرح، فنقول لا نفهم. ضل وضللنا، حتى قال بلهجة غرائبية: أتريدون أن تفهموا للتجرد معان. هى هكذا... وخلع العمامة والحبة والقفطان حتى صار كيوم يبعثون. خرج من باب الجامعة ولم يعد. رأيته فى ميدان المحطة وقد حفر حفرة برميلية ولزمها حتى قبضه الله بعد أيام. لحظتها كنت أرى هذه الحكاية دليل زهد ونقاء وبعدما تركت الجماعة رأيتها تخاريف عشاق للتنطع أما هذه اللحظة فأراه ماثلا أمامى بعريه وتجرده، قسما وجهه تماثل وجه بركات والجوسقى، نفس الاستخفاف والسخرية والتعمية. أغمضت عيني ودعوت ربي أن أدركنى برحمتك من الجنون وانصر عبدك على الكفار وألحقنى بالصالحين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. اختفى الشيخ العارى وظهرت مونيكا عن يسارى وأنا أسلم التسليم الأخيرة. محترقة لم تكن. غاضبة لم أرها. مبتسمة كانت وهى تردد: حرما. أليس هذا ما تقولون أن انتهاء الصلاة؟

ببلاهة قلت: نعم ودعوت الله أن ينصرنا على الكفرة. مدت يدها كي أنهض
فدسست يدي تحت إبطي، كي لا ألامسها ثانية. لقد انتصرت وسأخرج بلا
رجعة وبلا أرضنا وبجرنا وأموالنا، هذا قراري الأخير. نهضت مواجها لها وقد
ثبت عيني في وجهها الذي يشبه خنزير تاجر النفايات، ثم أعدت عليها ما
قلت متعمدا بعدما تعمدت هي إهانتى بالتجاهل: دعوت الله أن ينصرنا
على الكفرة. هربت من نظراتي القاسية. هكذا خيل إلى قبل أن تدير
ظهرها وتجلس خلف مائدة الطعام، وقد أطلقت ضحكة أكثر عهرا من
جسد آجنس وسخرية من جدى بركات. قالت: تعالى إلى هنا، أريد أن
أخبرك بشئ. رأيته أكثر تجاهلا لدعواتي، غير مهتمة باقتحام صلواتي وأذكارى
ودعائى لشقة عهرا. اقتربت ناحيتها، فأشارت كي أقرب إليها بأذنى. ملت
حيث طلبت أمسكتنى من شحمة أذنى كتلميذ خائب وأسرت بهدوء وبلا
افتعال، أنت دعوت الرب. لكن ما يجبر الرب على استجابة دعائك؟!
الرب يكره الأغبياء فمنهم تنبعث رائحة خنازير كونية تأكل الطيب والحديث.
الوهم صفقة لا يدركها المغيبون في بحور الغباء المشتعل باسم الله. كما
"لاكي" كنت نصف كافر نصف مؤمن. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء في
لحظة جعلتني مونيكا تحت قدميها دون إهانة وبثبات انفعالى أدهشنى. ماذا
تريدين مني؟ بغضب سألتها.. أشعلت سيجارتها بنفس الولاة التي أتيت
بها من المطبخ. وسألتنى بثباتها الذي لا روح فيه ولا ريحان. ماذا تريد أنت
مني؟ ثم ناولتنى الولاة وراحت تنفس الدخان في وجهى. مددت يدي إلى
علبة سجايرها وأشعلت واحدة كانت الثانية التي دختها في حياتي وحتى

اليوم الفائت. لم أجبها كما لم تجبني هي. تحررت من بعض ملابسها حتى ظهرت حلمة نهدها الأيمن قالت: ألا تريد أن تنام معي. طرقت إلى الأرض. غطيت وجهي بكتلتا يدي كي أوارى بكائي المكتوم هزيمة وخجلا. أى شيطان أنت؟ سبائير وخمر وزنا. مصائب أتت من خلفك. رفعت رأسي وغشاء عيني بحزن يناسب جرائمي، لم أجدها خلف المنضدة. دخان سبائيرها يأتي من الخلف. كانت على كنية الصالون عارية تمام. وقد وضعت ساقا على أخرى. المرة الثانية في حياتي تتكشف مفاتيح أنثى أمام ناظري. نهضت وسرت إليها حتى توقفت أمامها وقد هدأت حدقي وأنا أكرر: أى شيطان أنت؟ أخذت نفسا من سيجارتها وأرخت رجلها ونقشت في موضع أنوثتها ولم تجب. جلست على مقعد يأخذ زاوية يسار الكنية وبدأت في إدارة عيني في الفراغ مع الاحتفاظ بحق سرقات متتالية من اختلاس النظر إلى جسدها العفى. وككل الخائبين الذين يفعلون الكوارث ويغضون أعينهم ظنا بأن عمامهم سيحيط المدركين لفعلهم. كانت تضحك كلما أعدت عيني إلى مواضعها. اعتدلت مونيكا وجلست القرفصاء، فاعتدل نظري إليها دون ادعاء بالهروب. قالت وهي تسحب نفسا عميقا من سيجارة جديدة أشعلتها: وأى شيطان جعلنى أضاجع أبى بوعى ووله وعشق. حقا إنها كافرة.. لا لا.. هى شيطان مرید، بل خلق آخر من الشر. نهضت عن مكانها في اتجاه المطبخ. كانت مؤخرتها الصغيرة والمتقنة حد الافتتان تثير في نفسي الاشتها. عادت وفي يديها كأسين من خمر التفاح. قالت اشرب فأنت كافر مثلى ومثل أبى وجوزيف والشيخ حسونه والشعب الراغب في تغيير

النظام وزعيم جماعتكم والتاريخ اشرب فالكفر ليس هنا. كانت تشير إلى أنوثتها. اشرب فالكفر هنا، وراحت تشير إلى عقلها. اشرب فالكفر يكمل هنا، ثم أشارت إلى قلبها. الكفر أن تخون الله وتدعى البراءة. اشرب أيها الكافر وضاجعني، فأنا أحبك.

ارقت مونيكا على فخذي وراحت تبكي. احتضنتها بهزيمة منكوبين ينعيان حالهما. فقد تجاوزت الثالثة والعشرين حينما خرجت من قريتي مع عادل وعبدالرحمن وجورج ولحقتنا عادة التي تخرجت في كلية الهندسة والتحق بمعهد التمثيل. رحنا نبحت عن الحياة في شوارع القاهرة الحجرية، فتخطفتنا أيادي الله في الجماعات التي تشبه حداثات جائعة. ما بين سلف وخلف ولبيراليين وعلمانيين تأرجحت ذواتنا المضطربة. وحده جورج من أدرك مبكرا قيمة لحيته وقلنسوة الكاهن الذي ارتداها حتى صار أبونا جورج ونصح عبدالرحمن في لقاءها الأخير بأن يدرس جيدا تأثير المشهد الهليودي في الخطاب الجماعي في بلادنا، وما للملابس والديكور والإكسسوار من معجزات تفوق القرآن والإنجيل والتوراة في هذا الزمان. في المرة الأخيرة التي التقيت فيها بعبدالرحمن الذي اتخذ لنفسه اسما حركيا "الشيخ حسونة" وقبل أن يتخذ سعد اسما مشابها، كان قد أعفى لحيته وقصر جلبابه وقد نضجت سيمة الصلاة في وجهه وقد اتخذت شكلا غرائبيا كما شارة السيارة الميتسوبيشي، قبل أن يصبح فضيلة الشيخ حسونة المنيأوى. كان حافقا غاضبا على عادة التي وصفها بالعاهرة بعد نجاح محاكها "فيلمها" الأخير كنت أعجب من هذا الانقلاب المفاجئ على تلك الفتاة التي تمنى أن يصلها منذ

الجامعة، ربما من رفضها الدائم له وربما أن غيرته على بنات المسلمين دفعته إلى كل تلك الكراهية. ذكريات مشتتة تدفعني لإظهار خطيئتي مع مونيكا " التي افترشت برأسها فحذي، ومازال نخيبها مستمرا ودموعها تتساقط بلا توقف. ربما أخذتها ذكريات مشابهة في مانهاتن، تلك المدينة التي ولدت فيها قبل ثمان وعشرين سنة.

الصمت ينخر في ذاكرتي ولا أعرف كيف أعذر عن إيلاهما. مررت بأصابعي المهترئة على شعرها ولم أتجاوز إلى ذلك الجسد المؤطر بحمي الحياة. أخرجنا من هذا الموات صوت جرس الباب. نهضت مونيكا بتثاقل محموم وتوجهت ناحيته. جريت خلفها وأنا أصرخ: مونيكا. في تنبيه حاد بأنها عارية. لم تلتفت وكأنها لم تسمع صراخي. توقفت خلفها وهي تفتح كان البواب ينالها كيس الخبز الساخن وبضع متطلبات للمطبخ. لم يكن مندهشا أو ماثرا أو غاضبا كما توقعت. قال: أى أوامر أخرى يا ست وهم بالانصراف. بصوتها المتعب طلبت منه أن ينتظر. دخلت إلى غرفتها وظللت أمام البواب مندهشا من تجاهله لعرىها المقيت ووجود رجل غريب فى شقة تقع تحت دائرة حمايته. شأتني فى الشيخ حسونة، غلبت دهشتي من البواب. بيد أن الدين فى المساجل "الإستديوهات" المكيفة لا يتجاوز أذن المترصين على أبواب الفقر. عادت مونيكا ونقدته فئات ورقية لم أتبين عددها. ابتسم الرجل وشكرها، ثم دعا الله أن يكثر من أمثالها. عادت مونيكا إلى الصلاة ولم تغلق الباب ولم تهتم لكونه مفتوحا. أغلقت الباب وعدت إليها. كانت قد سترت جسدها بروب حريري أحمر وتبيأت فى شكل كاهن بوذى عتيق.

بدت بوجه غير الذى كانت عليه. هادئة. متزنة. يعلو شفتيها ابتسامة نقية. أريكتنى بتلك التغيرات المفاجئة. كنت قد اتخذت قرارى بإسعادها، فالأجانب يعشقون المصريين. رأيت نساءهم يلتقطون صورا وهن ممسكات بالإله "مين كم" بمعبد الأقصر، فرحات بميزاته النسبية التى يمتلكها المصريون وحدهم. فإله الإخصاب خاصتنا، وليس على وجه الأرض له مثيل. أصدقائى الذين سافروا إلى الغرب ولم يحصلوا على أوراق ثبوتية للإقامة أو الجنسية، يقسمون أنهم ضاجعوا نصف نساء الغرب، وما منعهم من مضاجعة ما تبقى سوى ضيق الوقت، فهن يعشقن أحفاد "مين كم" حد الجنون، كنت أعيش حكاياتهم التى تمر أمام عيني كمحكاة فى دار عرض بأحلام السفر إلى فردوسهم الحاضر، لكن لماذا لم يتزوجوا تلك العاهرات اللاتي يتجنهن؟ كى يوقفوا مهزلة ملاحقة الشرطة لهم، كما كانوا يقصونها يوميا عبر وسائل الاتصال.

"مين كم" يحبك يامونيكا ويطلب يدك الآن. ثم جثوت أمامها على ركبتي كما شاهدت ريتشارد قلب الأسد فى محاكمة الناصر صلاح الدين، وقلت: أيتها القديسة المباركة أريد الموافقة فورا أو اللعنة فورا. وضعت "مونيكا" يدها على رأسى وضحكت: بالطبع لا. أنا فقط أحبك

عجبت لقرارها غير المدروس والمتعجل. كيف لامرأة أدركت فحولتى وإخلاصى أن ترفض سبعة آلاف سنة حضارة ونضج وإخصاب. نهضت واقفا ببلاهة الطفل المضبوط من أبيه، فهضت غير راغبة فى تركى بهذه الحالة المنغولية. قبلتنى من خدى بروعة أم شقوق ثم سارت بى إلى "البلاكونة"، استندنا

على خشب السور الذى يعلو حديد الكريстал المشغول ورحنا ننظر ناحية النهر، فى محاولة بائسة للخروج من خزى الرفض. سألتها عن طبيعة عملها وكأنتى لم أسألها من قبل.

قالت: أخبرتك من قبل.. أعمل جاسوسة.

- مونيكا لا تسخرى منى.

- أنا لا أسخر منك حبيبى.

ليس هناك سخرية واستخفاف وإهانة أكثر مما تقوله الآن. لا عقل ولا منطق يقبل ذلك الادعاء الساذج.

مونيكا بحق حبى لك أخبرينى ماذا تعملين ؟

هزت رأسها فتمايل شعرها الفحمر على وجهها وقد دفعت جسدها بانحناء بعيدا عن السور وهى ممسكه له بيديها، فانحنى جسدها بطريقة ألهمت "مين كيم" بداخلى.

قالت: جاسوسة، ثم سارت نحو الداخل بدلال. كلما خطت خطوة التفتت برأسها ناحيتى وابتسمت بغنج عروسة طازجة. وراءها دخلت إلى السرير وضعت رأسها على ذراعى وقد دفعت الغطاء عن جسدها المشتهى. قالت تذكرنى بأبى حينما أجلسسته بين فخذى.. لم أدعها تكمل، فلا عملها ولا أبيها ولا شئ يعنينى هذه اللحظة. رحت فى لهيب أنوثتها أرتشف بفحيح كوبرا وهياج ذكر البط، حتى ارتويينا. أمسكت مدور "ريموت" المشاهد وأدارته.. كان الشعب مازال يريد إسقاط النظام، ومولانا حسونة المنيأوى الذى

شاهدته يوم الخامس والعشرين يسب الثورة والثوار ويذكر الناس بأحاديث وآيات تلعن الخارجين على النظام، يذكرهم اليوم بقيمة الجهاد في سبيل الله وضرورة الخروج على النظام.

الشعب يريد تغيير النظام بالمحبة والمسرة والسلام، كان جورج هو المتحدث التالى بلحيته وكنهوته وصوته الأخف الذى لم يكن كذلك قبل البابوية. الكل يريد، وأنا لم أعد أريد غير مونيكا التى كانت تضحك وكأنها تشاهد توم وجيرى. تضحك وتدب برجليها على السرير فى سعادة وانتشاء. بصاق يتناثر من فمها كنتيجة آنية لحالة الضحك المتواصل. تصرخ بفرح وهى تشير إلى عبدالرحمن وجورج وتردد: جوزيف. جوزيف فى ميدان التحرير.

جلست "مونيكا" وتربعت ثم جذبت الغطاء على فخذها ومازالت نوبة الضحك لم تنتهى بعد. قفزت بجسدها واختطفقت قبله من فى ومازالت تضحك. تردد فى سعادة وسخرية: أنت طيب لذا أنا أحبك. لم يكن أبى طيبا مثلك. كان سافلا وأمى أكثر منه سفالة.. لا لا، أمى كانت مسكينة.. كان لا يدخل إلى غرفتها حينما يسمع صوت غنجها فى أحضان الغريب التى تتصيده بمشقة كانت قد ترهلت بفعل القهر والعبث والعفونة من زوج أشبه بخنزير تاجر النفايات. كنت أسعد لأن هناك من الرجال المخمورين وكان أغلبهم من المصريين المهاجرين حديثا والعرب الفقراء، يمنحونها فرصة فى مواصلة الحياة، بعدما تركها أبى واعتادنى بديلا عنها. كنت فى السابعة عشرة من عمرى. يومها كنت خلف المكتب أذاكر تحت ضوء الأباجورة الذى منح الحجرة بهاء الصمت والخفوت. كان مخمورا. رائحته كقبر مشتعل بالعفونة اقترب منى

بلحيته التي كان قد أعدها منذ زمن للعمل ككاخام مقدس، ولم يخلقها حتى بعد طرده من المعبد عندما طلب من جوزيف أن يفي بوعده اقتراب كحية مدربة.

فزعا دفعت الغطاء عنى وهبطت واقفا أمام السرير كمن رأى مدينة من العقارب السوداء. مندهشا مصدوما سألتها وأنا أشير بسبابتى: "مونيكا" أنت يهودية إذأ؟!!

رأيتها تضع يدها على فمها وكأنها تستعد لقيئ مفاجئ من ذكرى الاغتصاب الأسري. نهضت مسرعة إلى الحمام وراحت تتقيأ، خلفها كنت نائرا. مندهشا حانقا: "مونيكا" أنت يهودية أم لا؟

وجهما الأصفر يعلن عن حالة من الإغماء القريب، استلقت على قاعدة المرحاض والعرق ينبت من جبهتها، لم أكن مهتما إلا بالسؤال. "مونيكا" أنت يهودية ؟ باجهاد ومعاناة راحت تبتسم وتردد بفرح ممزوج بالألم: بيد أنتى حامل منك، ثم أشارت ناحية بطنها وقالت: هنا نونو.. نونو منك.

يارو

عناية الله أدركته من الموت الآتى ليلا، بلا قمر ولا مشعل ولا شاهد يقر بحقيقة أدركها. سيمسون فى خلواتهم بأن القاتل عمر وهلال وعبد المعبود شراكة لا فائز فيها، لكنهم ساعة خروج الجثة من النهر، سيلعنون شجرة اشتها الموت، ويقلبون أكف الحسرة على رحيل شيخ الحضرة. مأواه جنة الخلد، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. سيجلسون حول مشاعل سمرهم ويحكون الحكايات عن ورعه وزهده وتقواه، عن حقد أبناء عمومته المشتعل يلعنون شجرة العجمى، التى لم يفكروا يوما باجتثاث جذورها

كانت ليلة شتوية من لىالى طوبة الكئيبة، حينما اتخذ الهلايلة الثلاثة قرارهم بقتل شيخ الحضرة والقاء جثته تحت شجرة العجمى وهو لهمم ابن. قرار أسري لا شأن لنا به، فنترحم على هايل ونوارى سوءة قاتله خوفا من الله رغم أن الحكاية أنثى. نسمى أطفال قريتنا الكئيبة قايل رغم أنه ملعون فى كل كتب الرب، فجرائم اشتها المجد لا علاقة لها بفعل الله فى حضرة قدسه إلا ما أورده الشيخ أبوزهر دفاعا عن هلال وعمر وعبدالمعبود، وتحميل عجيزة خطيئة قطع الرحم. جميعنا يعلم أن عجيزة ليس للرحم قاطعا، فهو ابن شيخ الحضرة بلا رحم أو فراش، هذا من أنجبته سهيلة الغارقة، وقبله الشيخ غراب والتقطه شيخ الحضرة بالمنشفة وكنت شاهدا على نسب الحكاية.

وحدى يا خواجه "لاكى" هذا ما قاله حينما سمعنا صوت أحمد النادى وهو يصرخ ويضرب باب سرايا المحلج بعنف "الحق أبوك يا عجيزة هايموتوه" ساعتها كنا نتسامر حول مدفئة الجاز التى أهداها "ياكامغلو" وكانت مشار دهشة الناس وتعجبهم.

الخواجة "لاكى" لديه ماكينة تبعث الدفء دون موقد خشبى.. يا سبحان الله!! كنت أسمعهم وأنا أمر بجوارهم، فلا ألتفت، فالملتفت متعثر لا محالة، هذا ما علمنيه شيخ الحضرة الذى تمنيت نجاته فى تلك اللحظة. تعثر عجيزة بالمدفأة وهو يخرج متلهفا فنهض مشمرا جلبابه بيده اليسرى وراح يقفز على السلم الخشبى المؤدى إلى الشارع بغضب من اشتعلت فيه النيران. أمسك بأحمد النادى من كتفيه، وهزه بعنف موتور:

- أين أبى؟

- فى الغيط.

توقف قبل أن يجرى فى اتجاه جسر النهر ورفع رأسه إلى شباك السرايا: الفرر والطلقات يا خواجه "لاكى".

بالطبع أنت لا تعرف الفرر. لكنك حتما تعرفه. المادة لا تتغير، لكنها اللغة تلك اللعوب التى تأخذنا إلى عوالم سفلية وأخرى علوية.

ضحك جدى بركات وتبعه الجوسقى الذى ردد وهو يداعب رأس عصاته "ألا يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم" ثم أخرج طرف لسانه وحرك عليه سبابته كما سكين تحده جزا. لم يكن الفرر يعنينى، بل تلك

اللعب التي تأخذنا إلى عوالمها. بذهول مستمع مشئت توقفت عند كلمات جدى بركات.

- وكنتُ شاهدا على نسب الحكاية - وأهدانيها ياكامغلو- وحدى يا خواجه لايكى هذا ما قاله حيناً... وأنا أمر بجوارهم!!!
من أنت يا جدى بحق الله؟

استند جدى بركات على كتف الجوسقى الذى استند بدوره على عصاته، وقد بدى بركات متأكلاً، لم تعد لشجرة الكافور قوتها فى جسده. لم يعد يمتلك تلك النظرة الثابتة فى مواضع الحسرة. خرج عن شارع محمد محمود إلى حديقة منتصف الميدان قبل أن نسمع طلقات الرصاص.

يسقط يسقط حكم العسكر. هذا هو النداء الذى اقتحم الميدان بعد أشهر من نفاذ الحلم وسقوط النظام. رحل الرئيس وسقط النظام، لكن العسكر أبدا لا يرحلون، فهم الآن النظام الجديد، على أى حال لن أتبع العجوزين. ظللت بالميدان مرابطاً على ناصية الشارع. ألتقط قنابل الغاز بمنديل مبلل، حصلت عليه من "إيميلى" أطرح المنديل على القذيفة وأهديها إلى العسكر بقوة وعنف. المشهد لا يختلف عما كان منذ شهور. موت وقنص وأطراف ثالثة ترغب فى إشعال البلاد كما قال مولانا عبدالرحمن المنيأوى، الذى أقسم على جبل عرفات، وهو بملابس الإحرام بأن الخروج على الحاكم قطعاً حرام بالطبع كان يقصد الخروج على العسكر. لكن الحرام عندى لم يكن الخروج عليهم كما قال حسونة، كان خروج عين حسام، وهو يساعد عادل

فى رسم جداريته الشهيرة؁ هو ذات عين الحرام. لم أكن قريباً بالقدر الذى يسمح بالتحقق من قناص العيون؁ لكننى تيقنت من ضياع عين حسام إلى الأبد حينما ترك فجأة وبلا مقدمات علبة اللون الأحمر وراح يجرى؁ وهو يصرخ واضعاً يده على عينه؁ فاختلط الدم باللون: عيني. عيني. تبعه عادل وفى يده فرشاة مضطربة من هول المفاجأة. صراخ إيمىلى ملاً الميدان فزعا تلقفته بين يدي وأرحت جسده على فرش المشفى الميدانى. الطيبة الشابة تحرك رأسها يميناً ويساراً؁ أسفاً على نور افتقدناه أبداً. تحول صراخ إيمىلى إلى بكاء وعويل. أحكمت الطيبة الضادة على عينه. حملته إلى خيمتى الجديدة؁ وهو فاقد للوعى تماماً. كنت قد رحلت عن خيمة الجماعة وسكنت خيمة العلمانيين منذ رحيل مونيكا بطفلى الذى لا أعرف مصيره. أخذ العجوز الجوسقى رأس حسام على فخذه؁ ثم أراح كف يده الأيمن على جبهته وراح يقرأ: إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور؁ ثم شهق وزفر بألم مهموم يخرج ثقل العالم من صدره المتعب وهم بألمه وهم به الألم لولا أن سقطت دموع نفثت الكربات عن عينيه المغمضتين؁ ووضع قبلة على ضمادة عين حسام المتدثر بنوم عميق أو غيبوبة أزلية. رجوت عادل أن يذهب لاستكمال جدارية نائحات مقبرة راموزا التى أشعلت جدران الميدان والشوارع الخلفية فيما بعد؁ لكنه رفض أن يترك حسام وإيمىلى التى تمددت بجسدها جوار الصغير واحتضنته بنحيب لم ينقطع طوال الليل.

الشعب يريد إسقاط النظام. اشتعلت الهتافات مع حلول الظلام؁ فثبت جدى بركات عينيه المتعبتين فى وجهى. لم تكن لعينيه تلك القوة التى تركته

عليها منذ شهر. أمسكني من ذراعي، فلم أشعر بقسوته الفاتنة. راح يهزني بوجه لا سخرية فيه، وصرخ: اذهب كي تسقط النظام. اذهب وستذهب وستظل تذهب، حتى تذهب البراءة منكم. حوّل وجهه عني ونظر إلى حسام وبكى قال: يا جوسقى هل تقبل هذا المسكين بدولتكم؟ - دولة العميان - قال الأعمى: مات سليمان ولم يعد لنا قائد من نور.

النور يخرج من شرفات السماء معلنا قيادة الشمس للضياء. المآذن وأجراس الكنائس. صوت محركات السيارات. عبث الصباح، جميعهم يهمس للميدان أن استيقظ.

كنت والجوسقى أول المنتهين من نومنا المضطرب. الأعمى يفرك عينيه وكأنه يعدهما لرؤية عبث جديد. نهض بعصاته، وقد أشار أن أصحابه إلى دورة المياه. تخطينا بقايا النيام بحذر، كنا قد اعتدناه منذ الثورة الأولى. توقف الأعمى فجأة عند جسدين نائمين في بطانية واحدة، لا يظهر منها إلا رأس فتاة وشاب. حسر جلبابه حتى الحصر وأنزل سرواله وبال على الوجهين الناهضين فزعا وصراخا وسبابا. استيقظ النائمون في محيطهما فرعين ظنا منهم بهجوم مجهول من طرف ثالث. حاول الشاب ضرب الجوسقى، فالتقطه الحاضرون بالتعنيف والتأنيب - ليس على الأعمى حرج - عدة أصوات خرجت في تزامن واحد كأنه معد مسبقا. علت ابتسامة خفيفة شففيه. استند على ذراعي وتولى عائدا.

ما زالت الابتسامة على وجهه. فجأة توقف وأمسك العصاة بكتلتا يديه ثم أسند ذقنه على طرفها وردد في هدوء: ليس على الأعمى حرج، هذا ما فعله جدى سليمان مع نابليون بونابرتة. كان الفرنسيون قد حلوا ديارنا وبها استقروا سادة متوجين. هرب النظام ولم يتبق إلا الشعب. كان الأزهر للأزمات قائدا والرجال بأمر من يثقون فيهم من العلماء يأترون. استنجدوا بسليمان الأعمى الذى توسط صحن المسجد وخطب فيهم: إنكم بشر مثلكم مثلهم. فاخرجوا إليهم فإما أن تبيدوهم أو يبيدوكم، لكنهم منا أبادوا واستقروا بالديار فبدأت دولة العميان فى العمل. كانت أوامر الجوسقى بأن ينتشر العميان فى أرجاء القاهرة أمام الخمارات وحدها. ينتظرون خروج الجنود الفرنسيين من الحانات سكارى. ينادون عليهم أن الله يا محسنون، فإذا ما أتاهم محسن ومد يده بالصدقة، أمسكه الأعمى باليمين وطعنه فى قلبه بخنجر محباً فى اليسار. لم يكن جيش العميان هزليا، بل كان مدربا على الحركات والسكنات والطعن والزال والمراقبة والفرار. تدريبات جلب لها سليمان جنودا من المماليك الهارين بالأجر، حتى إذا ما انتهوا من تدريب العميان، أفذ فيهم العميان التجربة كي يتأكدوا من ثمره التدريب ومقابل المال المدفوع مقدما. كان سليمان ينادى المدرب ويطلب منه تمثيل ما سيحدث أمام الحانة. فيخفى الأعمى خنجره فى كم جلبابه الأيسر، ثم يتحرك المدرب بضجيج سكير فيناديه الأعمى. يظل المملوك فى أداء الدور حتى ينفذ الخنجر فى قلبه فيتأكد أن التمثيل لا ينفصل عن الحياة إلا بالخروج من الحياة. بعدما يتأكد سليمان من موته، كان يأمر جنوده بالبصق عليه قبل

دفنه بطريقة تناسب مجد خائن. نجح جيش سليمان حتى حار بونايرته، وعملت أجهزته عن جد إلى أن تيقنوا من شخص المحرض، سليمان الجوسقى. لم يقبض عليه بونايرته، بل طلبه للقاء وراح يمينه كما منى حسن طوبار، شيخ صيادي المنزلة من قبل. كان جدى مهتماً بأخباره، مسروراً بنجاحه كقائد فى المعارك بيد أن الأمنيات لا تعرف طريقاً إلى قلوب أبطال النور، فرفض سليمان ما رفضه طوبار، حتى إذا يأس بونايرته، عرض عليه ولاية حكم مصر. وافق جدى سليمان وسط ذهول العميان وسبابهم واتهام بعضهم له بالخيانة. مد الأعمى يده مصالفاً لنابليون، الذى أقبل منتشياً بالخدعة، حتى تشابكت اليدان، فأحكم الجوسقى وثاق يد بونايرت اليمنى وصفعه على وجهه باليسرى ثم قال مقولته الأخيرة: هذه ليست يدى، إنها يد الشعب. صرخ أحد العميان: شيخكم ضرب بونايرته ألا تكبرون.

الله أكبر. الله أكبر. تكبيرات فى حضرة بونايرته وتكبيرات فى حضرة الميدان أعادتنا إلى الخيمة دون أن أعرف للجوسقى مصيراً. كانت الطلقات والقذائف الدخانية وألسنة النيران تخرج من محمد محمود، وإيميلى تحاول منع حسام من الذهاب إلى هناك. فعادل قد عاد لاستكمال نأحات راموزا وحسام يصصر على استكمال المساعدة، وكأنه لم يفقد عينه بالأمس. سعيداً منتشياً ببراءة الأطفال راح يقبل إيميلى ويرجو جدى بركات للسماح له بالمغادرة. لم يهدأ إلا بعدما عاد عادل وقد انتهى من الجدارية، محملاً بصندوق الألوان والخامات

وجلس إلى جوارنا. فتح حسام الصندوق وأمسك بفرشاة صغيره ثم قدمها إلى عادل وهو يتنسم بطهر البراءة واليتم والتشرد. رفع ضحادة العين الراحلة وطلب منه أن يرسم له عين حورس مكانها. وحده يضحك وجميعنا محزون من هول المصاب.

عين بعين يا أولاد الحرام. صرخ عجيذة في أولاد عم أبيه. كان شيخ الحضرة مرتبكا بينهم، موقن بأنه لن يسلم من شرهم ولا سيما بعد الاتفاق الذي عقده مع الخواجا "يكا مغللو" مالك محلج الأفطان، والذي بمقتضاه يحل شيخ الحضرة في توريد العمالة اللازمة للمحلج محل أبناء عمه. كان قد اتخذ قرارا بترك داره الطينية التي لم تعد تتسع لأولاده الثمانية. تلك الدار المتآكلة، التي كانت شبابيك حجرتها الاثنتين توازي أحذية المارين إلى جوارها. فالبلدة القديمة ليس فيها إلا بيتٌ واحدٌ يمكننا عده دارا تصلح لسكنى البشر. دار الهلايلة. هؤلاء المنعوتون بغناهم وسطوتهم وبطشهم، فبعضهم حصل على لقب البكوية من الملك، وبعضهم يعمل في إدارات الإنجليز المنتشرة في البلاد. منهم العمدة وشيخ البلد والخفراء. وحده شيخ الحضرة الذي لم يرتض العمل معهم أو الامتثال لطلبات العمدة الراغب في تطوير حاله، بما يتناسب ومجد الأسرة. جميعهم أقر بأنه جالب للعار وسوء طالع الأسرة بتصرفاته الوقحة، هو لا يحيا إلا بين الرعاع والمهمشين. كارثة على الأسرة بأكملها أن يعمل ذلك المعتوه صيدا للأسماك، تاركا نصيبه من قوة لا تنفذ وثرأ محقق إذا ما قال نعم. لم يكن قرار مغادرة البلدة القديمة ارتجاليا كما ظنه

أهل الجوار، لكنها الصفة التي تلقاها على وجهه من ولد عمه. كان يعتقد أن حفظ القرآن والتفقه في الدين وحب الناس مانعا له من الإهانة التي تلقاها بالمسجد. كنا يوم جمعة وكان يخطب في الناس خطابا مغيرا لما قاله الشيخ أبوزهر في الجمعة الماضية، والتي راح يعدد فيها الشيخ أبوزهر مآثر الفقر وأحاديث المساكين، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم تمنى أن يحشر معهم. بدأ شيخ الحضرة خطابه بأن الزكاة ركن من الأركان والفقراء لا يؤدونها فالغنى أفضل عند الله. اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، فالغنى أفضل عند الله. اشترى عثمان بئر رومة وجيش جيش العسرة فالغنى أفضل عند الله. حتى إذا فرغ الناس من صلاتهم، وجد صفة على وجهه من يد عبدالمعبود، دون بادرة أو حجة لبداية الحرب. فقط سطوة المال وقوة دفعه في مواجهة الأضداد. لم يستطع شيخ الحضرة رد الصفة ولم يفعل سوى رفع عينيه إلى السماء. فأكبر أولاده أحمد الذي ولد قبل النقاط عجيذة بثلاثة أشهر، لم يتجاوز الخامسة عشرة، وحتما ستكون المواجهة خاسرة. انسحب إلى داره دون أن يجلس مع الناس جلسة ما بعد الصلاة التي اعتادوها منذ زمن. تعسا صامتا لم يرد على نداءات أمه وأحضان الأطفال الذين التفوا من حوله. لم يشعر بذهول محزون من هول القهر والمفاجأة بصراخ عجيذة وأحمد اللذين أقسما على رد الصفة صفعات ومزيد. انسحب إلى سلم وسط الدار وصعد إلى السطح. بين أكوام عيدان حطب الذرة وبقايا أعواد الحطب الهندي، أحنى جسده المنزوى في فضيحة التعدي دون بادرة أو جرأة على الرد. خلع عمامة رأسه ووضعها على ركبته اليمنى

وراح يشكو الله جبروت العصاة. المطر الساقط لتوه يحدث طرق طبل متواصل على أعواد الخطب. الدجاجات الشاردة تهرب إلى خزاناتها احتماءً من الماء الذى بدأ فى التزايد. مازال شيخ الحضرة على حاله مستسلماً للاشئ. فزع مفاجئ فى خزانة الفراخ إثر برق ورعد، أجبر شيخ الحضرة على النزول إلى بحراية الفرن الدافئة. أجلسه بلل ملابسه ورعشة جسده إلى جوار المحمى. شاخصاً فى النار، فاسترد بعضاً من عافيته. كانت أمه وأم العيال يحزان فطير الجمعة المعهود. ابتسم إلى أم العيال ونهض متجهاً إلى المندرة، فتبعته جدتك خالدة حتى توقفت قبالتها ومازالت الابتسامة المهزومة ملازمة لشفتيه المرتعشتين بإحساس الإهانة والضعف. طلب منها قرط أذنيها و"بنطنطيفها" الذهبى كاستعارة سيردها إذا ما تيسر الأمر. معاشرة بالمعروف جمعتها. حب أطره قدس الصمت بلا ضجيج الكلمات. فالحب فعل معروف. لا صدقة يتبعها أذى. الحب غنى عن الثثرة. بلا تردد خلعت قرطها و"بنطنطيف" عنقها الذهبى وحملتها بقبلة وهى تناوله المنديل الأبيض التى وضعت فيه مصاغها القديم قدم ليلة عرسها. بثن هذا المصاغ استأجر جدك فدانين أرض كدخل بديل عن تركه مهنة الصيد، وكنت.... أقصد وكان الخواجه "لاكى" بما لديه من دلال عند المالك "ياكامغلو" استطاع منح الشيخ فرصة مقابلة العمالة. طارت عقول الهلايلة الثلاثة من فقدهم المقابلة. العمدة كان يقصد أن يعمل شيخ الحضرة عندهم أو معهم كمكياج فى وجه العائلة وليس منافساً لهم فى مفاتيح خزائن المحلج. مقابلة تجعل صاحبها فى عداد من يمتلكون مئة جنيه فى السنة الواحدة. أحاطوا

جدك ساعة رى الأرض بعد منتصف تلك الليلة. كانت الساقية تدور والموقد مشتعل للتدفئة وشيخ الحضرة متدثر بعباءة اشتراها مؤخرًا، وقد أخرج من جيب الصدرى لفافة التبغ وورق البفرة. راح يعد سيجارة تصلح لدفع شأى الموقد. صوت غليان الشأى على الراكية فى ليلالى الشتاء الكثيية أكثر شجنا من صوت عبدالمطلب. أتاه عمر وهلال من الأمام وعبد المعبود من الخلف. كان يحرك لسانه على ورقة البفرة المحشوة تبغا، وهو يطلب منها الجلوس دون أن يشعر بوجود عبد المعبود وكى يستمتعان معه بدفع الشأى. يد عبد المعبود تجذبه من مؤخرة العباءة: انهض وأغلق الحوال عن أرضك، سنروى أرضنا الآن.

- لم يعد سوى ثلاث "ترايع" وانتهى

ركله هلال بنعل حذائه فى صدره وراح يسبه: قلنا أغلق الحوال

نهض جدك حينما شعر بأن الحكاية ليست الماء ولا "الترايع" المنقوصة. بل حجة تصلح لإنهاء حياته. خلع العباءة عن كتفيه، ولف ذيل الجلباب كحبل ملتو ودسه تحت طيها وأدخله من "السيالة" ليخرج متدليا كحية تعلقت بشجرة توت، ثم خاض الترايع المتبقية، يغلق عنها "الحواويل" لكن تلك الاستجابة لم تكن كافية لإبطال نية دبتر بليل، فأتاه عمر من الخلف ممسكا برقبته بينما كان عبدالمعبود يجذبه من الأمام ليضعا رأسه فى الطين. كادت تزهب روحه لولا طلقة خرجت من فرفر عجيزة، وهو يصرخ يا أولاد

الحرام، فتوقفوا لتوهم رفع جدك رأسه الملتهبة بوحل الأرض كعفريت أبو المشاعل في ليالى المحاق.

على من تطلق النار يا ابن الزنا. قالها كبيرهم عبدالمعبود، فصرخ شيخ الحضرة: اسكت يا ابن عمى، وهيا نرحل يا ولدى. ضحك عمر بسخرية واثق من رد فعل خبره منذ زمن بعيد: لن ترحلا حتى يلتقى ابن الزنا بالفرفر تحت قدمى هاتين ويقبل رجل سيده عبدالمعبود. أعاد جدك الصراخ: أسألك بالله وبالرحم الذى أنت قاطعه يا عمر أن تصمت.

بيد واثقة أزاح عجيزه شيخ الحضرة برفق ثم قال: أعلم جيدا أننى بن الزنا لكن ما فى قلوبكم التى تستحق قلعهما أشمل وأعم. لم أشعر فى حضرة هذا الرجل الطيب أننى ابن الزنا هذا، لكننى سأوقن بها حقا إن تركتكم تفترسون هذا الحزون. اخلعوا جلايبكم يا أولاد الحرام، وانزلوا الترة للتو. التفت الهلايلة الثلاثة إلى بعضهم فى دهشة من رد الفعل غير المنتظر. حالة لم تصادفهم من غريب أو قريب ولم يجرؤ عليها أحد من قبل. هدأت حدتهم وتغيرت لهجتهم حينما قال عبدالمعبود: يمكنك الانصراف يا مصطفى أنت وهذا الحلوف. شكر جدك عطاء كرمهم، ثم أمسك عجيزة من زنده وراح يدفعه. كوتد عتيق ثبت عجيزه فى مكانه ووجه كلامه إلى الكبير: نعم يمكننا الانصراف، هذا وارد جدا، لكن غير الوارد استحالة مغادرتكم دون خلع الجلايب. بخوف الضعفاء الذين يمكنهم الانتصار إذا ثبتوا لحظة الجد زمنا قصيرا، عنف جدك عجيزة: "اختشى يا عديم "الرباية". بغضب ممزوج برحمة الحب وحمل الجميل. صوب عجيزة الفرفر إلى صدر أبيه قائلا وهو يشير إلى

زند ذراعه: على الطلاق من ذراعى هذا، إن لم تسكت يا أبى لأسكنتك
الترعة معهم. كانت عينا الشيخ تحاول إخفاء سعادة دبت في كيانه المتوحد
مع النهر والفقر ووحدة الرجل الذى لا إخوة رجال له، يمنعونه مما يمنع الرجال
أهليهم وقت العوز والحاجة.

بغدر كما قالوا أو مفاجأة كما أسأها جدك، أطلق عجيزة طليقة اخترقت فخذ
عبد المعبود تبعها بأمر خلع الجلايب. لم يعد أمامهم تجاه جدية الفعل المؤطر
بغضبة الشباب، غير الاستجابة. خلعوا الجلايب، فتساقطت العمامات
بين الوحل، فصرخ فيهم أن إلبسوا عماماتكم. فغطوا رؤوسهم على الفور
ونزلوا إلى الترعة. وحتى شقشقة النهار ظلت لعبة القط والفأر. طليقة تجعلهم
يغوصون في الماء فتطفوا العمام على صفحته وأخرى تخرجهم إلى وجهه،
فيأمرهم بارتداء العمام. الفلاحون والتراجيل اصطفوا حول المشهد شماتة
ورغبة في التشفى من الهلايلة الذين سقوهم من المر أزيارا وأباريق انتهى
المشهد الغرائبي بحضور العمدة وشيخ الحفراء والشيخ أبو زهر ومن تبعهم.
جميعهم حلوا بالدوار بعيدا عن الأعين المتشوقة لاستكمال المشهد الجلسة
أشبه بمحاكمة حورية بعدما فر جاسكو هاربا إلى جبل دير المدينة

التفت إلى جدى بركات الذى بدا شاردا. قلت: دعنا من حورية وجاسكو
اللتين لا أعرفهما وأكمل عن فعلهم بجدى وخالى. سمعت صوت الجوسقى
يطلق شجرة من عمق قرار منخاره وهو يضحك: أمر نابليون بإلقاء الجوسقى
في النهر، كما أمر الكينيتيت قتل حورية بماء النهر ووقع الوزير حورى أمر
القتل، لكن ليس على الأعمى حرج، فتحول أمر إغراق الجوسقى إلى الموت

منفردا بسجن القلعة. وحده قائد النور من حمل أوزار عميان الظلام، حمدا لله على سلامتك يا حسام، ثم هز رأسه يمينا وشمالا وصرخ "يا حي مالك زى" ثم تركاني فى صحبة حسام وانصرفا إلى مسجد السيدة.

كانت إيميلى قد غادرت مع عادل إلى الأقصر بعدما أتم جدارية الذئب ومازال الشعب يريد إسقاط النظام. حلقات مفرغة ما بين النوم فى الميدان وطرق باب شقة مونيكا دون رد أو خبر، حتى مل البواب حضورى وسبني اليوم أغادر الميدان والشعب وحسام ورحم مونيكا المحمل برائحة ضعفى وتعمية العجوزين إلى قريتي. سأقرأ ذا النون وجاسكو وحوارية وسليمان وابن وحشية وشامبليون على شاطئ النهر، سأقرأ قراءة كاملة غير منقوصة سأتوضأ تحت شجرة العجى وأكشف سر جنون الموت فيها. احتضنت حسام الذى بكى بعين واحدة، ثم ولى هاربا وسط الميدان دون أن يودعنى مررت بين الغاضبين واللاهثين عبثا نحو مداخل الطرقات. جموع وجاعات تعرفهم فور المرور بهم شعاراتهم. لافتاتهم. طريقة هتافهم. كل حركاتهم وسكناتهم تصف نوعيتهم، إخوان.. سلفيون.. علمانيون.. ليبراليون.. تذكرت تاجر كلاب قريتنا وهو يفرز ويصنف "بلاك جاك. دوبرمان. أرمنت. بلدى. وحدهم من لا صنف لهم ولا توصيف، تلك الوجوه الفقيرة التى تأتى وتذهب دون أن تغير مطالبها: وطن يحتوينا. وحدهم بلا هتاف ومشهاد وصحافة نائمون تحت أسقف شرفات العمائر فى انتظار فرج الله، الذى ولى بفعل تخوين فصيل لفصيل وجاعة لأخرى. بعضهم فقد نور عينيه

وبعضهم يحمل صورة أخ أو ابن شهيد في معركة لم نكن نعرف من ضد من خلالها عند ناصية محمود بسيوني استوقفني رجل ملتج. قال إن الشيخ حسونه يريد لقاءك هنا، وأشار إلى تلك العبارة اليونانية القديمة بمدخل الشارع. لم أكن أرغب إلا في السفر ولن أقابل عبدالرحمن الذي كان دائم التهرب من لقاءى أو الرد على هاتفى، بعدما أصبح نجم الفضائيات الدينية اللاهثة خلف الساسة وأخبارهم. بأدب اعتذرت إلى الرجل بدعوى إعياء أصابنى. بدهشة في عينيه واستنكار لرفضى، أمسك لحيته وعبث بها. تجهم وجهه حد النور ثم دفعنى فى صدرى بقوة ثور هائج، فسقطت أرضا. قال، وكأنتى قد آمنت باللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى بعد إيمان دام آلاف السنين: هذا شرف لك ولأهلك أن تلتقى مولانا حسونة المنيأوى يا حليق يا علمانى يا كافر. مد يده إلى مقدمة الجاكت فرفعنى عن الأرض ودفعنى إلى مدخل العمارة.

ما كان شيخك ليجرؤ على فعلها يا جاهل، بالطبع لم أجرؤ على قولها علنا بل فى ذاتى المتحولة ككل الأشياء من حولى. أستنشق هواء فبراير المزجج وأزفر به فى حدة، علل الشهيق والزفير يأخذا قسطا من توترى. حشرنى الرجل فى المصعد وحشر منخاره بالقرب من فى. رآحتته تذكرنى بخنزير تاجر النفايات. لا أعلم لماذا استدعيت حزب سيدى إبراهيم الدسوقى الذى هجرته منذ زمن؟ من أرادنا بسوء أهلكه الله. همسا همسا. لمسا لمسا لموسا لموسا مأمونا مأمونا. أنا الأسد سهى نفذ منه المدد على طول الأبد لا أبالى بأحد ولا يقدر على أحد. دفعت وصرفت وحجبت عنا شر كل صالح

وعارض في الطريق... لَمْقَنَّجَلٍ يا أرض خذهم. قل كونوا حجارة أو حديدا وقفوه إنهم مسؤولون كأنهم خشب مسندة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" تذكرت أمي وهي تعلمني: إن أذاك الغضب رهبة، فتلقيه بصدر الجميل أفضل.

دفعني الرجل من المصعد نحو باب الشقة المفتوح. أمرني بحدة صوته المفتعلة أن أنتظر في الصالة حتى يخبر مولانا بقدومي. التصوير التي تملأ الجدران تعيدني إلى رائعة عبد الحميد جودة السحار "فجر الإسلام". صور لكفار قريش معلقة على جدران الصالة. لُحي تهبط حتى الصدر. عمائم أفغانية وحجازية الصنع تلف رأس التصوير. عباءات وجلايب من زمن نوح وحتى ذو الخويصرة التميمي وابن الأزرق. الرهبة تدفعني إلى الانزواء في الصمت. هذه صور شيوخ قناتنا الجديدة. الصالحون في زمن الكفر والعلمنة واللبلة العفنة. تلقيت المعلومة من الرجل العائد لتوه من حجرة حسونة دون أن أنفي أو أثبت قوله. لن أدخل معه في نقاش على أية حال. لن أسأله عن سر تحول عبدالرحمن أو حسونه كما أسموه في موضوع التصوير، دوما كان يعنف عبر الشاشة من يضع صورة في بيته، مستعينا بحديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم "إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة". أمسكت رأسي في محاولة لتهدئتها وترتيب الأفكار المشتتة داخلها - هذا مكتب يا حيوان - وليس بيت. قلت لنفسي قبل الدخول برجلي اليمنى إلى مكتب الشيخ حسونة. شعور بالآيمان يحيط المكان. قدسية تأخذك إلى ليالي رمضان بمسجد مولانا الحسين. رائحة البخور الهندي والمسك

السعودى يزىكان بعطرها أنفك المحمل برائحة خنازيرك الكونية. الإضاءة خافتة ومخفية تحت غطاءات من جبس ملون. المكتب الذى يجلس خلفه مصمم بأسلوب أثاث قصر الحمراء. مشهد من قبة الصخرة خلف المكتب. جهاز "مونيتر" عن يمين حسونه، يستعرض لقطات للكعبة وأخرى للروضة الشريفة عن يساره مصحف كبير ومسبحة وسجادة صلاة تفتش صدر المكتب صوت نطقى أخنف يردد ما تسير من كرامة القرآن.

- كيف حالك يا سعد. تفضل بالجلوس.

غمرتني سعادة لا يمكن وصفها، حينما ردد اسمي الذى لم أسمعته منذ زمن أخذنى إلى شوارع قريننا، إلى أجران القمح وأودية يارو الذهبية.

- الحمد لله يا عبد الرحمن.

المسبحة يحركها بعناية محترف بين يديه. تغيرت نظراته المشردة إلى ثبوت واثق بذاته المتضخمة بالشهرة والقداسة. قال: استدعيتك إلى هنا طلبا في التدخل بينى وبين غادة. قلت: علمت ما كان منك في الهجوم عليها عبر الأثير. أعتب عليك اتهامها بالزنا والفجور و...

أسكتني خشوع صوته، وهو يقرأ "الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" يا سعد أخشى عليها نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ورغم ذلك رفعت ضدى قضية تهمنى فيها بالسب والقذف التمثيل أصلا حرام. بالطبع ستنتهى القضية لصالحى، لكن في الله

وبالله ثم للعشرة الطيبة بيننا، لا أرغب في إيذاءها، ربما يتهور أحد المؤمنين
بى ويقذفها بماء النار فى وجهها والله لا يحب الفساد.

صمت عبدالرحمن بعدما أرسل رسالة التهديد بالنص المقدس، فأخذتني نوبة
من القلق من سر هذا التحول المفاجئ فى شخصه المضطرب والذى بصرناه
عن قُبل وجنب ودبر. أخرجنى رنين هاتفه النقال من القلق إلى الدهشة
حينما أدار ظهره عنى بحركة من المقعد الدوار. راح يحدث شخصا أسماه
بفضيلتك. لم يخرج نص المكالمة عن: نعم فضيلتك. كلامك مضبوط
المتغيرات تدفعنا إلى تغيير كلامنا. الخروج على العسكر واجب كل مسلم
تأمرني فضيلتك، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. استدار بمقعده الدوار
وعلت وجهه إمارات بله متوغل فى ذاته. وضع الهاتف إلى جوار المصحف
وقال: هذا قدرنا أن نحمل هموم تلك الأمة ومآسيها. أشكرك يا سعد
وأنتظر منك مكالمة تنهى بها جنون عادة. نهض عن مقعده ومد يده
بالمصافحة أمسكت يده بقوة ونظرت فى عينيه وحالة من الغيظ تعتصرنى
من تلك القوة المزيقة وطريقة عاهرات خمارة يانكى فى معاملة المشتبهين.
سألته خلافا لما توقع ولا أنكر خوفى حينما طرحت عليه السؤال: كيف حال
جبالات أختك؟

نفض يده عن يدى بطريقة أعادته إلى شوارع القرية وهتاف أطفالها وهم
يجرون خلفه مذعورا، بعدما ضبطه عادل منحيا فى خرابة عامر على شكل
رقم اثنين، عاريا ملطخا بخزى السوالب. قال: الحمد لله، أكرمها الله بزواج
تقى ملتصق، وارتدت النقاب وصارت أمأ فاضلة بعدما حفظت القرآن الكريم

كاملا بالقرآن والتقوى والحيية ضبط انفعاله غير المتزن وخرج عن مكتبه واضعا يده على كفى وهو يودعنى. عند الباب صاحته ثانية ثم أخبرته كذبا بأن أشرف الهلالى سألنى عنه عدة مرات عبر الهاتف ويرغب فى زيارته. بالطبع كنت أكذب، لكنها رغبة التشفى باستعادة ذكريات ظن أنها ماتت مع الشهرة والمال والمريدين والمهوسين بفعل المشهد الهليودى، الذى نبهه جورج إلى فضله. لم يزد على قوله أستودعك الله يا سعد وأنتظر مكالمتك. نزلت إلى الشارع منتشيا بانتصار مريض على ميت. حتما سيلعننى فى نفسه، فذكرى أشرف الهلالى تعيده إلى خرابة عامر، وسيرة جملات تعيده إلى أسرة شباب القرية الذى اتخذ من جملات مفرغة لرغباتهم الآنية فى أى وقت وبلا تحديد موعد كانت مسرة اللائذين بجسدها من وجع الفقر واشتعال الغرائز. بالطبع سيتذكر مقولتها الشهيرة حينما ضربها فى سوق الأربعاء بعد فضيحة الشجار الذى حدث بسببها بين شابين أراد كل منهما أخذها معه إلى يارو، ذلك الاسم الذى أطلقه الأستاذ على حقل قحح الحكومة الآمن من المراقبة دوما، فالخبراء يشبتون حضورهم للحراسة، ثم يولون إلى أعمالهم كعمال للتراحيل. يوما وقفت جملات وسط السوق وبصقت فى وجهه وقالت: "لا تعارنى ولا أعارك دا الهم طايلى وطايلى".

"يارو" أتذكر أستاذ التاريخ وأنا فى طريقى من محمود بسيونى إلى ميدان عابدين. فالمTRO فى التحرير قد توقف عن العمل نتيجة الصراع بين هؤلاء وهؤلاء. محمد نجيب أقرب المحطات المفتوحة الآن. حقل يارو الذى أخبرنى به أستاذ التاريخ، وقال إنه حقل طعام فى السماء، لا يأكل منه سوى

الممجدين الداخلين لتوهم إلى الجنة بعد أن يتلقاهم الثعبان الحارث للسماء
بترحاب، ثم ترضعه الإلهة نوت من ثديها ويرضعه الثعبان الأمين، فيصبح
المجد العجوز شابا في الثلاثين، قد أصبح في قريتنا محلا للهارين
والمشتين جسد جمالات. تحولات حضارية يا أستاذ

- نعم. ماذا تريد؟ انتهت وسؤال عامل بيع تذاكر المترو.

- تذكرة من فضلك.

نزلت إلى محطة الحيزة، رغم أن وجهتي كانت شبرا. بيد أن تهديد عبد
الرحمن بتشويه وجه غادة هو الدافع لتغيير وجهتي. أرجأت العودة إلى القرية
لوقت غير معلوم. إن شاء الله سأعود. بإذن الله سألتقي أمي عما قريب.
ترى هل من المناسب أن أطرق باب شقة غادة دون موعد مسبق؟ ولم لا
فقد أدمنت إضاعة الوقت بتحميل الفراغ اسم الله بالمشيئة والإذن، ولو
أننى حددت وقتا معلوما لما أبحث عنه في شوارع القاهرة الحجرية، لما
ابتليت بالضياح بين المتسكعين دهرا. إن شاء الله سأصل باب شقتها بعد
ثلاث دقائق. بإذن الله سأدق الجرس خمس دقائق. إن لم تفتح بتساهيل
الله سأصرف بعد ثلاثين ثانية. لعبة جديدة لكنها تستحق الممارسة.
سأجلس عندها نصف ساعة.. هكذا بدأت أنظر إلى الوقت من خلال تلك
اللعبة التي أخفقت في أول ممارسة لها. وصلت الباب بعد دقيقتين زائدتين
عن المقرر فتحت غادة باب شقتها دون أن أقرب الجرس. كانت في طريقها

للمغادرة بابتسامة صديقة تشتاق ذكريات الطفولة والحياة استقبلتني فرحة:
تفضل يا سعد.

- معذرة أن جئت بلا موعد.

- البيت بيتك يا أخي. تفضل بالدخول.

في الصالة الفسيحة جلست بين تصاوير الجدران التي أعادتني إلى رواية فجر الإسلام. لم أكن بين كفار قريش في ساحة الكعبة. كنت بين أحضان صاحبات الرايات الحمرة: ممثلات وممثلين في عناق واشتياق. قبلات ساخنة. فتيات استندن إلى حائط حجري وأعطين مؤخراتهن إلى المنقالة مع التفاتة بسيطة من الرأس، تظهر جزءا من وجههن. بيد أننى أصبحت منغوليا كاملا، مالى وتصاوير عبد الرحمن وبرائز غادة. كنت فى أحضان مونيكا أكثر كفرا من أبى الجهل. بُرس العصافير الملونة والطاوس الكينى، يضعنى وصاحبات الرايات الحمرة فى فراش واحد. الكل يمارس عهر ذاته المشتتة بين السر والعلن. غادة أكثر شرفا منى ومن عبدالرحمن وجورج وعادل مارست عهرها دون تحميل اسم الله خطيئة الحمقى.

اشتقتك يا سعد. قالتها غاده بلهجة ريفية افتقدتها بين مخططات المحكاوات الساخنة و"سكرينيات" برامج النجوم. انحنت قليلا وهى تضع مَحْمَلِ الشاى أمامى، فبدا نهداها المتماسكان بلا حمالة للصدر. أسندت يدها اليسرى على صدرها وقد جلست فى مواجهتى. الوقت يداهنى ويبدو أننى سأخفق فى تجربة المشيئة والتحديد. لو أننى تعلمت قراءة الآخرين لانهيت

إلى نتائج ناجحة بلا ريب. اعقل وتوكل ولا تجزم، فالعقل أمر والتوكل فعل والجزم جنون وكل لله متروك. كان حري بي أن أتفهم نصيحة الشيخ البرهامي الذي كان شيخى يوما من الأيام قبل بدء اللعبة التي انشغلت بها عما جئت إلى غادة من أجله. الوقت تجاوز الثلاثين دقيقة ومازلنا في ذكريات طفولتنا وحكايات أستاذ التاريخ الذي كتب لافتة على وجه أرضه أسماها "حقل يارو" فكل حقول القمح عنده "يارو" سألتني غادة عما إذا كان الأستاذ لا يزرع أرضه إلا قمحا ويتركها بوارا حتى العام التالى أم غير من عاداته؟ رحنا بين القرية والمدينة وأخبار الأحبة والأصدقاء، حتى أخبرتها بما أتيت لأجله بالطبع كنت أعرف أنها تحتقر عبد الرحمن وترفض محاولاته الدائمة للتقرب منها منذ أيام الجامعة ولم تتخرج يوما من وصفه بالسالب، حتى بعدما اشتكى عبد الرحمن طريقتها وحديث الاقتراء عليه كما أبلغنى، لم تنته من نعتها له بالسالب. لم أتوقع موافقتها على طلب سحب الدعوة، لكنها اشترطت أن تلتقيه فى شقتها قبل التنازل عن القضية. قبل أن أغادر وبجميمة الأخوة والذكريات مدت يدها وصاغتني، ثم لفت يديها حول جسدى وطبعت قبلتين برييتين على خدى، بينما كنت أحنى خصرى إلى الخلف ابتغاء للأنفعالات اللاإرادية لتلك الدودة الخبيثة التي تحركت لتوها تحت بنطالى، فالتفت موليا لها ظهرى كى لا تفضحنى تلك المنتصبة لتوها. خرجت قبل أن تلحق بى غادة وتطلب مرافقتى بسيارتها حيث أريد. شكرتها دون أن أعتدل بجسد مراهق مبتل من فعل استراق السمع لعاشقين.

سألنى سائق السيارة الأجرة: إلى أى الجهات تريد أن تذهب يا أستاذ؟
سؤال آخرسنى وقذف غصة فى قلبى - إلى أى الجهات تريد أن تذهب يا
سعد؟!..

رحت أسأل نفسى والسائق متعلق فى وجهى بعينيه الدهشتين من شرودى
أجب عن سؤاله يا سعد. خذلت الله فى قلبك بعقل نصف مؤمن وقلب
نصف كافر. أنت نصف قارئ نصف واع هيات نفسك للاكتمال. أجب يا
سعد فعبدا الرحمن استغل اسم الله وأفلت من زمرة المتسكعين. عادة
قدست جسدها وأباحته للطارقين بابا للمجد. جورج كان مثقفا مكتملا
فعرف طريقه إلى التجارة بالرب. كلهم نجحوا، ومازالت نفحات أمك تدركك
من وجع التسول فى الطرقات. أجب يا سعد.

يعاود السائق سؤاله: إلى أى الجهات تريد أن تذهب يا أستاذ؟

بخلل من لا يحدد الرمز وفن التعمية قلت: إلى طريق الله. سمعت صراخ
صوت القرامل المفاجئ. ارتطم رأسى "بتابلوه" السيارة لحظة التوقف
الجنونى الذى أصاب السائق، وهو يصرخ فى وجهي: انزل هنا، فليس
للرب طريقا إلا هنا. أشار إلى قلبه وردد إلا هنا. صراخ سيارة جديدة
يخترق مسامعى قبل أن تصدمنى وأنا أعبر الشارع. نزل سائقها وبصق فى
وجهى وراح يسبىنى والمارة يحاولون منعه عنى. قلبى يؤلمنى وعقلى يحاول
تجاوز الوجع، أيهما يحمل الله بداخله يا جدى بركات، عقلى المتعب أم قلبى
المحزون؟ من منكم على صواب، سائق السيارة أم أنت يا جدى؟ بمشيئة

الله سَاعود إلى أُمى هذه الليلة كى تقرر عینہا. ساكون مع الأستاذ فى حقل
"يارو" كى يقرئنى الله من البدء إلى الختام.
"تاكسى".

- إلى أى الجهات تريد أن تذهب يا أستاذ؟

- إلى يارو.. إلى قريتى.

الكنيت

ما بين المطلقين الغيظ والعافيين عن الناس، أمر في طريقى إلى قريتى بسرايا النحاس باشا، التى تحولت إلى مجلس للمدينة الغربية للنهر. تجلس لوزة أمام فرن الغاز المشتعل على كيزان الذرة الهجين، تساعد مهيمة الجالسة أمام الفرن المواجه على الرصيف الآخر، فى سب المنادين بإسقاط العسكر والمشتبكين معهم لرفض إهانة النظام دون تفرقة بين الراض والمؤيد. حالة رفض من بائعى الذرة وعربجية الميدان والمارين بهموم لقمة العيش إلى أعمالهم التى سارت فى محب إعصار به نار فى يوم قائنظ. اقتربت من لوزة التى كنت أعشق دفء منتجها الطيب وألقيت إليها التحية. بيد أنها تجاهلتنى أو أن غضبها كان أكثر حضورا من الاهتمام بالرد. لم تتوقف عن السباب إلا عندما أطلق أولاد كارتيللا العربية حميرهم بين المشتبكين. فلحمير أسرة كارتيللا ميزات جعلتهم العربية الأكثر حضورا من غيرهم فى ميدان النحاس. حمير تفهم وتنفذ أوامر صاحبها على الفور، والمثير دهشة فى ذلك القطيع، أنها تنفذ أوامر إبراهيم كارتيللا أكثر من أى كارتيللا آخر، فهو كبير الأسرة التى تفتش رصيف مسجدى الخواص والشرابى بالميدان، به يتزوجون وفيه يتناسلون وعليه يملؤون الطرقات بقطع من الكارتيللا. مشهد الحمير الراكض وسط الجماهير، وهو يرفس بدقة وعبث فى آن واحد، دفع لوزة إلى خلع طرحتها وربطها حول خصرها وراحت تحرك مؤخرتها ميمنا ويسارا، وهى تغنى: الشعب يريد إسقاط النظام. بينما كانت مهيمة قد

أخرجت ثديها الأيمن من صدر جلبابها واستخدمته كطبل إيقاع، تضامنا مع رقصات لوزة التي انتهت لوجودى إلى جوارها، فدفعتنى بضربة يسارية من مؤخرتها وهى ترحب بى وكأنها أدركتنى فجأة: مرحبا يا أستاذ سعد، ثم نظرت إلى مهيرة وضحكت بغنج ورددت: "يسلم يمينك يابت يا مهيرة.

لوزة تحمل مؤخرة أجمل وأرق وأبدع من مؤخرة كيم كاردشيان التى حصلت ذلك العام على لقب أجمل مؤخرة فى العالم، لو أن لجنة التحكيم أدركت لوزة ولو أن إبراهيم كارتيللا استطاع التسجيل فى جينس!! لكن يبدو أننا لا نجيد الدعاية إلا للأدعياء. جذبتنى لوزة من مؤخرة "الجاكيت" فأفقدتنى من رفسة مميتة من حافر أماييت، ذلك الحمار الذى يعده إبراهيم وحشا لا مثيل له فى العالم، فيمنحه علفة زائدة عن باقى القطيع، ويميزه ببردة عن الآخرين.

شكرت لوزة بعدما أعطتنى كوزا ساخنا، وقد أقسمت بالطلاق على عدم قبول الثمن كتحية من صديقة لصديقها المختفى منذ أسبوع. لم تأخذنى الدهشة إلى عوالم فارق التقويم القبطى عن الجريجورى، فالفارق لا يتجاوز أياما. لكن يبدو أن حالات الشجن تفقد الإنسان حسابات الأيام. لا يعيننى كثيرا ما إذا كانت لوزة لم ترنى منذ أسبوع أو سنتين، فللزم حسابات أخرى فى أوطاننا.

مررت بعيدا عن الرفس والسجال، إلى الجسر الممتد عبر النهر. ملامح تغيرت على عجل. ازدحام وصخب وتشابك بين السيارات والتكاثك والبهايم

والبشر. الكل فى طريق واحد للمرور. مشاجرات بين الناس الذين فقدوا صبرهم أو عقولهم من أثر شىء لم أتبينه. الحال هنا أكثر حزنا من العاصمة. انفجار محتفٍ تحت أضواء أخبار القاهرة وحدها والتي تركها بلا نية للعودة. توقفت وسط الجسر عندما توقف "توك توك" إلى جوارى ونادانى صاحبه: اركب يا سعد. أملت رأسى وسط الزحام كى أتبينه.

مروان عبد القادر. رحت أحتضنه فلم يبادلنى العناق. باردا كان فى استقبال صديق عائد لتوه من غياب بعيد. لم أسأل زميلى خريج الهندسة النافع فى النانو تكنولوجيا عن تلك المقابلة الباردة، وأيضا لم أسأله عن سر عمله على هذا الكيان المسمى "بالتوك توك" وحتما لن أسأله، فقد قررت القراءة كاملة غير منقوصة. ما الذى رماك على المر إلا ما هو أمر منه. لن تخرج الإجابة بأى حال من الأحوال عن ذلك النص، وربما يخرج إليّ بنص نحفضه دون أصل نعرفه "ما أزفت من زفتى إلا ميت غمر". لم أنشغل كثيرا خلال الرحلة من جسر النهر إلى دارنا، بتلك العماير التى انتهكت بعد الخامس والعشرين من يناير، حرمة أودية يارو المقدسة. عبث من الأسمنت المسلح يأكل دلتا النهر بلا حياء. الشعب الذى يريد إسقاط النظام يدمر أكبر محطة نزلت بها أوزوريس ومريم المقدسة ورياحيين التاريخ بحثا عن الحياة. أى عبث هذا؟! بل أى عبث دفعنى إلى تجاهل صديقى مروان وشغلنى بالتوك توك وكارتيللا وأماييت الوحش وزفتى وميت غمر. حقا اللغة مفتاح المعرفة.

شكرا مروان. حتما سنلتقى قريبا. ودعته دون يقين باللقاء أو ممارسة لعبة المشيئة والزمن مرة أخرى، فالشمس تشرق مرتين. تغرب مرتين. لكنك الوحيد في هذا العالم ترحل للمغيب منذ البداية ياسعد. نفضت عن ذاكرتي غياب السنين وآلام الشوارع الحجرية قبل تجاوز عتبة الدار. وحده رحم مونيكا وطفلى الضائع قبل المجيء يزدهمان في ذاكرتي. لن أترك يا ولدى للاغتصاب في منزلة خنازير تاجر النفايات.

بيمينى تجاوزت عتبة الدار بعدما صعدت أربع درجات أسمنتية، وهبطت أربعة أخريات ورحت أردد دعاء دخول الدار " اللهم إني أسألك خير الموج وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى ربنا توكلنا " من ممر الضوء الممتد بعرض الدار نفذت إلى الصلاة. صوت المشهاد الآتى من حجرة أمى يمنعهما سماع صوتى وأنا أناديهما. دخلت حجرتها، فوجدتها تجلس على السرير، مستندة بظهرها على مخدتين من قطن المحالج القديم. على يسارها مخدة أخرى. مشدوهة إلى ذلك البرنامج الذى يحصى أموال الوطن المنهوب قبل الثورة. مئة مليار من النقد الأجنبى. بل تريليون. لا لا ترليون وبضع مليارات. مزاد مفتوح على الشاشة من ضيوف البرنامج وضيوف الرحمن. علمانيون ومؤمنون وعبدالرحمن المنيأوى الذى بدا كمالك سماوي كنت أدرك كنهه من نظرية دافنشى للتصوير وأعمال رامبرانت الكئيبة إضاءة مكثفة بزاوية مئة وثمانين درجة على يسار ويمين وجه حسونة وأخرى مواجهة وثالثة للحشو فى الخلفية، تجعل من المسخ ملاك هليودى مقدس فللضوء سحر فى صناعة الأولياء

أمى. كيف حالك يا حبيبتي؟ أشارت بيدها أن التزم الصمت حتى تنتهى من حساب ماسيؤول إلينا مستقبلا. لست أمام لوزة ولا فى "توك توك" مروان كى لا أغير عدم اهتمامها انتباها، فزعقت أمى: أنا رجعت. لم تلتفت ناحيتي فعدت لتوى إلى إهانة اللغة. أيها الأحمق لقد علمت بوجودك إلى جوارها أنك رجعت، فما الداعى للتنبيه سفاهة. مقدم البرنامج يعلن عن فاصل للإعلان يتبعه بعودة، فالتفتت ناحيتي فرحة مستبشرة ثم شدت على يدي وكأنها تعزيني على حال ولى مع الثورة والأموال الآتية عما قريب. بصوتها الشجى فى مسمعى قالت: فرج الله آت يا سعد، سيكون نصيبك ونصيبى ونصيب أخوك ملاين، ستتزوج وتنجب لنفسك مشروعا وسيعود أخوك من بلاد الناس سبحانه الله.

أمى!! رددت فى تعجب بإهمالها عودتى بعد الغياب. ردود أفعالها تشى بشئ من الغرابة المؤكدة. عليها خرفت فى تلك الفترة ما بين المغادرة والمجيئ. ألمح كيس الأدوية أسفل رف المشهاد وقد فاض بالمحتويات.

أمى!! هل أنت بخير؟ بتعجب سألتنى: مابك هذا اليوم يا سعد؟

أى يوم تقصد وأى تاريخ تعنى. غادرت إلى غرفتي بين حالتين من الدهشة والغرابة. الحجرة كما تركتها. شيئا لم يتغير فيها. السرير. المكتب. الحاسوب أشياء المبعثرة والمرتبطة. الشئ الوحيد الذى فاجأنى هو وجود رأس شخص غريب ظهرت بعد دخولى بدقيقة واحدة، من خلف جهاز الحاسب. كانت

محنة على لوحة المفاتيح، حتى انتهت من الكتابة فاعتدلت، ليس أمامي سوى ذلك التفسير.

من أنت؟! نهض عن المكتب وواجهني بغرابة رجل اقتحمت عليه حجرة نومه.

من أنت؟! أجنبي بنفس السؤال.

- أنا سعد صاحب هذه الدار، وهذه حجرتي، وذلك الجهاز الخاص بي وملابسك التي ترتدي ملابسى. أخبرنى من أنت ولما أنت هنا بدارى وحجرة نومي؟!!

أمى تنادى: يا سعد. مد الغريب يده إلى صدرى وأزاحنى، ثم خرج إلى حجرتها، فتبعته بصبر نفذ. وقف قبالة أمى وسألها كما كنت أقف وأسأل وبنفس الصيغة التي جعلتنى أشبه بمجنون فى نوبته العاتية: أوامرك يا "حجوج". ضحكت وألقته بمنديل ورقى فى وجهه كدعابة اعتادتها منذ زمن قالت: ناولنى كيس العلاج وكوب ماء، ثم نظرت إلى وأشارت بيدها إلى فراغ بالسرير جوارها وقالت: تعالى يا سعد، إجلس جوارى يا حبيبى. خرج الغريب إلى المطبخ بعدما ناولها كيس العلاج، وبذهول جلسْتُ إلى جوارها.

- ماذا يحدث يا أمى، ومن هذا الغريب؟!!

- مابك يا سعد وما تلك الأسئلة العجيبة التي تسألنى منذ دخلت؟!!

عاد الغريب وفي يده كوب الماء. ناولها إياه وهو يقبل يدها كما كنت أفعل معها، ثم خرج إلى حجرتي وهي تدعو له ذات الدعوة "ربنا يفرج عليك فرج بلا ضيق حتى تتعجب الأمة والمخاليق".

الاستمرار في هذا الحمق، حمق وعبث. وليت خلفه ثائرا. وجدته مدام على سريري شاخصا إلى السقف. مغمضا لعينه. واجدا بسورة غافر وصوت عبدالباسط. جنون ما يحدث!! ليس هو النائم، بل أنا من يعشق غافر لحظة الملل من الحياة. أنا من يمارس تلك الطقوس في تلك الغرفة على ذلك السرير وبنفس الفعل الحاضر. دفعتي الغضب إلى القبض على مقدمة جلبابي الأبيض، أو جلبابه الأبيض، فلم أعد أتبينني منه. جذبته إلي بعنف ففضض عن السرير ودموع غافر تملأ عينيه. فوليت مدبرا للخلف خطوات وأنا أصرخ: يا الله من أنت؟! تلك دموع رغبتي في الله وحمق خطيئتي والعبث من أنت؟ رحت أصرخ. جلس على حافة السرير مندهشا من أسئلتى. قال: أنا سعد. صاحب هذه الغرفة ومستأجرها من أمي الحاجة. إلى جواره جلست وأنا أحرك كف يدي الأيمن هبوطا وصعودا. أقلبه يمينا ويسارا. دهشا بما يحدث. أمي ليست في حاجة إلى تأجير غرفة نومى لغريب، فمعاش أبى رحمه الله يكفيننا ويسترنا العوز. أمي تنادى بصوت مرتفع: اجرى يا سعد تعال بسرعة "انفرج على التلفزيون"

في اتجاه الباب جرى الغريب وجريت، فهى تنادى سعد. عند فوهة الباب توازت أجسادنا، فتعثرنا لحظة العبور، فانكفأنا على وجهينا. أمي تعاود نداء السرعة، فنهضنا سويا ودخلنا سويا ووقفنا أمام الشاشة سويا.

تَعْرِضُ الفنانة عادة للاختطاف لكنها نجت من تلك المحاولة الفاشلة. الغريب مندهشاً وصارخاً راح يقسم بأن المحرض حسونة الميناوى، وأنه كان لقاء مقررّاً بينهما لتصفية المشاكل قد تأخر. أخذنى الغريب إلى الميدان وسهو الاتصال بعبداً الرحمن كى أخبره نتيجة الوساطة. شعرت بدوار فى رأسى وانعدام وضوح الرؤيا، كمنقالة فقدت تلقائياً ضبط مؤشر "الفوكس". من أخبر سعد بما دار سرا بين عادة وسعد. وليت وجهى خارجاً، وقت أن كانت أمى تنادينى: تعالى ياسعد كى تأكل مع سعد.

للشوارع لون الكآبة وعلى الناس الهموم. لا مسرة رأيت على أرضنا ولا سلام فى وجوه الناس والمجد غائب فى الأعين المرتقبة. حال من أدرك لتوه أزمة أطاحت بالبلاد والعباد والرب الذى لا يجب الفساد. رحت أمر من حارة إلى حارة ومن شارع يسلمنى إلى آخر. واجهات تغيرت وحب صار أشبه بالضباب. الملح لافتة مكتب الأستاذ بدر رحومة المحامى أعلى حائط داره وقد حملت عنواناً جديداً- الشيخ الأستاذ بدر رحومة المحامى بالنقض والعلاج بالرقية الشرعية - تجاوزت فى طريقى إلى جسر النهر أصدقاء على المقاهى ورجال بالطرقات ونسوة على عتبات الدار، ولا أحد يعيرنى اهتماماً بغائب للتو عاد. ربما تغير الناس بفعل الزمن أو أن الأعداء أصابوا قريبتى بسلاح كيميائى جديد، فجعل نفوس أهلها دكا. عند ناصية جسر النهر وقبل اتخاذ الطريق إلى الأستاذ يارو أخذتنى الرغبة فى زيارة كتاب القرآن الذى فيه تعلمت. كان المبنى قد تغير من الطينى الصغير إلى عمارة جديدة. الدور

الأرضى لتحفيظ القرآن الكريم، والثاني لعلاج مرض الكبد المنتشر كوباء بيننا باتخاذ بول الإبل دواء. الدور الثالث يحمل لافتة عليها رقم هاتف نقال أسفل العنوان "زواج منتقبات وملتزمات" توقفت أمام المبنى وأخرجت الهاتف النقال واتصلت بالمهندس عبدالرحمن حسونة الشيخ العالم الواعظ وأخبرته بالموعد المرتقب مع غادة، ثم أخذت طريقى إلى يارو.

القمح فى حقل يارو رع رع. أما الأستاذ يارو نفسه أدركته فى غرفته الطينية المنظمة الرائعة من فرط بساطتها، بين الكتب والأوراق كما تركته منذ الغياب، لكنه كح كح فجأة، فالزمن لا ينتظر الإذن منا كي يعمل فى أجسادنا دون سابق إنذار.

- السلام عليكم يا أستاذ يارو

- وعليك مثله يا سعد. تفضل

بدا الأستاذ مثل أمى ومروان وأهل قرىتى غير مبال بعودتى المفاجئة. بيد أنهم جميعا على حق مكتمل فى هذه التصرفات المناسبة لكىافى الساذج فلست مصطفى مشرفة، ولن أكون أحمد زويل، ولو أنتى محمد غنيم لاصطف الناس على جانبى الطريق لاستقبالى. من يعمل لأجل الناس يكون لأعينهم كحلا، ولقلوبهم غطاءً. وحدهم أهل العطاء من يدركهم الناس بالمجد. لكن حسونة عبدالرحمن أو عبدالرحمن حسونة ليس من أهل جد قرىتنا، كي يكون إلى جوار أهل الله فى ضئائنا.

التغيير يا سعد. قال الأستاذ يارو، وهو يرفع نظارته الطبية عن عينيه ثم التفت ناحيتي مبتسماً. قال: افتح الشباك للنور يا سعد، دعنا نرى ضياء النهار. نهضت ناحية الشباك المطل على النهر في تلك الغرفة التي بناها الأستاذ في نهاية يارو وقد رفعها على تبة من الطمي القديم، كي لا يأكلها ارتفاع النهر أو تأخذها "الفوارة" فالدوامات الشرسة للنهر، نسميها الفوارة، تأتي كمقاتل انتحاري لتأكل من حواف الأرض المطلة على النهر ما تيسر لها من القاريط أو مشارب الرى والمكينات.

النور شمل الغرفة، فبدا الأستاذ في وضاء الأولياء واستكانة شاعر الهند طاغور وحكمة نفروهو نبي الله عند الفراغة. ابتسمت وأنا أنظر إليه: لقد كحكحت يا أستاذ فجأة. فخرجت ضحكاته صافية كما النهر الذي لقناه قسوتنا ولم يمنحنا سوى الابتسام.

قال: مازلت تتكلم دون وعي يا سعد. تلقى بالكلمات، ولا تعرف لها معاني تدرك رعة الزرع، ولا تعرف أنها ابنة الإله رع، فتفرح وتسعد وتعبر: رع الزرع، ولا تعرف أنها تعني أن الإله رع قد طالت بركنه أرض يارو تنعني بالكحكة ولا تدرك أنها الرجل العجور عند أجدادك. قدس اللغة في قلبك يا ولدي كي تمر بالعاديات إلى النور. فالرب قال: اقرأ. قال: اعقل قال: تفكر، ومن اللغة تأتي الحكمة في قلب أفرغ الأغيار لاستيعاب كلام الله. فكلنا تحدث عن الله وكلنا كتب عن الله، لكن القليل منا من عاش مع الله. أعد القراءة يا سعد.

أصوات الصيادين تعبر شبك الغرفة المفتوح للنور، يخبر بعضهم بعضاً بأن هناك غريقاً أسفل شجرة العجمى، ولا يعرفون إن كانت الجثة لرجل أو امرأة لذا فهم ينتظرون الشيخ عبودة أبوزهر، كي يقر النزول لفريق الإنقاذ، بينما الحاجه شكرية حفيدة الحاجه فهمية، تصرخ فيهم: إن كانت امرأة فعليكم لبس القفازات، فحزمة الميت تقتضى سرعة الدفن.

هز الأستاذ رأسه وقد أحنأها إلى أسفل وبدأت أصابعه تنقر على واجهة منضدة شجر الكافور التى أمامه بقنوط، وراح يتم: عليها سهيلة أنس قد عادت من جديد أو ربما حورية بعدما هرب منها جاسكو واعتلاها رئيس الشرطة وقتلها أهل الكيمبيت. رفع الأستاذ رأسه ناحيتى، ثم قال بامتعاظ وأسى: لم يكن لحورية ما كان لجدك من حظ، جعله فى عداد الأحياء، ولو لم يدركه عجيزة لكان أسفل شجرة العجمى، والناس على الجسر ينتظرون قدوم الشيخ أبوزهر، الذى لن يأتى بحجة المرض أو السفر لقضاء شعائر العمرة أو الحج، كما اعتاد الغياب حال الأزمات ووجوب حضور الرجال كانت فهمية ستصرخ حتماً: إن كانت أنثى فعليكم بالقفازات. وابن النقاش سيطلق ضحكاته عالياً، وهو يسخر من انتظار شرع الله، بينما سيأتى لأكى وغراب لحمل الجثة إلى دار العمدة وسيقر الجميع أنها جثة بلاهوية يعرفونها، فالكيمبيت لا يعرف الأتقياء. لا شئ ينجيك من العمدة ورئيس الشرطة والوزير حورى سوى قوة حاضرة ناعمة كانت أو ساخنة. لم يستطيعوا الحكم على جدك بالإعدام كما حكموا على حورية غرقاً فى النهر. جميعهم أتوا من الغيط إلى الدوار بين هسهسات الناس وترقبهم للعقاب الذى سيقره

العمدة على عجيزة الذى وقف منتصبا بلا انحناءة خوفا أو توجسا، فقد أهانهم وانتهى الأمر. كان جدك بين الخوف والرجاء، فهو يعرف أهله جيدا ويدرك صلب أحكامهم المسبقة، ولا سيما بعدما توسط الشيخ أبوزهر المجلس وراح يقدم خطبته الشهيرة عن احترام الصغير للكبير دون أن يذكر مبادلة الكبير للصغير العطف والرحمة. ذكر سوء خلق عجيزة وتجروؤه على أهل الحكم بما يخالف شرع الله. وحده عجيزة بين الجالسين لم يكن محتما بما يحدث. غير عابئ بجدة العمدة وتجهم الهلايلة وتوعدهم وخطاب الطبل الأجوف للشيخ أبوزهر، كما أسماه عجيزة فيما بعد، ولا سيما بعدما دخل أخوه أحمد إلى القاعة بعد ضجيج وسباب مع الخفراء الذين حاولوا منعه من الدخول. لكن العمدة سمح له بحضور المحاكمة كي يأخذ عبرة من أخيه بعدما عقد العمدة الحكم فى ذاته قبل المداولة، فوقف إلى جوار عجيزة وهمس فى أذنه بأن الخواجه "لاكى" يطلب منك المراوغة فى اللغة والدقة فى انتزاع البراءة بالقوة فى الوقت المناسب، ثم أخبره بأن بعض الأصدقاء يحاصرون بيت العمدة فى انتظار إشارة لخلق فوضى مدروسة بعناية من مصباح الصديق الحميم لعجيزة وبترتيب من الخواجه "لاكى".

كاد أن يخرج منطوق حكم العمدة بربط عجيزة فى شجرة الكافور أمام الدوار وعمل السياط فى جسده بدأ بالرأس وانتهاء بالقدمين وتوسطا بالمؤخرة، لولا مفاجأة عجيزة للجميع بشخرة من عمق المنخار الذى اشم به رائحة الحكم وكانت بمثابة الإشارة إلى مصباح والأصدقاء الذين بدؤوا لتوهم الضجيج الصوتى والاضطراب الحركى حول الدوار. ظهر على أكتاف بعضهم بنادق

الخرطوش، وآخرون محملون بالسكاكين والشراشر. تدافع حدث لحظتها بين بعض الخفراء والمحتشدين بالسلاح. التوتر أخذ جدك جانبا أحاله إلى الصمت. العمدة بين حيرة سقوط السطوة وخوض معركة لا يعرف مصيرها مقدما، فالمقدمات الخطرة قد تحيلك إلى أبسط النتائج، وأحيانا تأخذك أبسط المقدمات إلى أخطر النتائج، فالبداية حرف والبدء فعل، لكن الخروج ربما يحتاج إلى قاموس كوفى. سهل اتخاذ القرار وصعب الخروج من الفعل والعمدة لم يكن ساذجا، فاكفى بطلب الاعتذار من عجيبة. كان جدك منزويا بين الدعاء والقنوط، ينتظر أمر الله. لكنه فجأة خرج عن صمته بإحساس قائد على مشارف النصر بعدما شعر بالقوتين الآتيتين من ولديه. إحساس دفعه لاطمئنان لا زهو فيه. بهدوء قال موجها كلماته إلى العمدة: أى اعتذار تطالب ولدى يا ابن العم؟ هذا بدلٌ من طلبك أن يعتذروا إليّ ويقبلوا وجهي الذى وضعوه فى الطين. تلك إذا قسمة ضيزى. حاول عبد المعبود إثارة الشيخ أبوزهر الذى لم يكن فى حاجة لدافع كى يؤيد كل ما قاله العمدة فعاتب شيخ الحضرة وحثه على اتقاء الله والحفاظ على صلة الأرحام. خطاب دفع جدك إلى توبيخه بوصفه أشبه بكلبة البرعى التى تلج مزابل القرية دون تحفظ. نهض جدك من مجلسه وأشار لولديه أن يتبعاه للخروج. الموقف جعل العمدة والحضور فى حالة اضطراب نتيجة رد فعل غير متوقع من جدك المتسامح حتى مع بهائم الطرقات. فالفعل غير المتوقع فى كتب الأعداء يفقدهم اتزان الفكرة والفعل. خرج شيخ الحضرة وتبعه أحمد بينما توقف عجيبة عند الباب وألقى فى وجه العمدة والهلايلة وبثقل من يحاول قهر

الفقر والعوز والإهانة كلمات كانت مفترق طريق جدك للأبد: من خاف الموت، فقد الحياة لا تركن لقوتك يا سيد الأرض. فلم نعد ضعفاء الأمس، ثم بلغ مأمنه بين الأصدقاء والمحبين الذين أدركوا من قبل علاقته الحميمة بالحاجة لاكي فكان لهم وسيطا في التشغيل ورفع الأجرة وإنهاء خلافات العمال مع الإدارة رغم صغر سنه، لكن الإحاطة بالناس فعلا وعملا كانت عوضا له عن اعتباره صغيرا، فلزموه وقت العوز. حملة أحمد النادى على كتفه وراح يمر به بين الناس الذين نهضوا عن المصاطب والمقاهى ورافقوا المسيرة، حتى توقفوا جميعا عند أرض البركة المواجهة لمحجج الأقطان. كان شيخ الحضرة قد أسر لعجيزة من قبل برغبته فى ترك الدار القديمة والخروج لصدر القرية الجديدة، لكن الحاجة إلى المال أوقفته وكذلك الخوف من رفض العمدة الذى يعده الناس مالكا لكل الأراضى الفضاء غير المسجلة فى سجلات الحكومة دون أن يعلن العمدة ذلك، بل كان تطوعا من الناس أكسب العمدة شرعية الامتلاك الأبدى. الجدية أتت ومؤشرات موافقة الحصول على مقالة المحجج والخروج من مجلس العمدة بلا إهانة كان يترقبها. فطلب عجيزة من الحاضرين مشاركته بإعداد المحير لجلب الطمى اللازم للردم والإصلاح وافق بعض الحضور وبعضهم حاول الهرب دون بادرة وآخرون اختلقوا الأعذار وأداروا ظهورهم مغادرين إلى أن أعلن عجيزة عن زيادة مقررة فى أجر عامل المحجج تبلغ قرشا كاملا مع بدء المقالة الجديدة يتمتع بها أولو العزم من العمال دون غيرهم، فولى المدبرون أعقابهم إلى خالك وبدؤوا الفعل لتوهم كى تشملهم سجلات تصنيف أولى العزم، التى حتما كانوا خارجها

إذا ما غادروا الموقع، فالجزرة أفعل من العصا. وحدهم ملاك الأراضي والموثرين من غادروا بعد تهينة جدك على الانتصار الذى لولاه لكان أسفل شجرة العجمى أوين حلفا النهر كما عاهرة خماره يانكى أو حورية ابنة ليل دير المدينة "بيت الحق". فحورية لم تكن مذنبه قبل أن يأتيها جاسكو ليلا كانت فتاة ليل محترفة، لا تتبعها أعين الشرطة، ولم يتقدم جيرانها ببلاغ ضدها، كانت فى ممكنها آمنة بين أحضان من يأتيها ليلا، حتى أتاها ذلك الفنان النحس المنكود، كان جاسكو كبيرا لفناني "بيت الحق" دير المدينة أعماله من الرسم والنحت والتصوير تملأ جدران طيبة، كان المهندسون هم أصحاب الأمر والنهى فى مواقع العمل، لهم النصيب المكتمل من الطعام والبيرة المعتقة، وما تبقى للفناني حسنه لا مكروه فيها، حتى منعوا البيرة عنهم ذات أزمة، فقادهم جاسكو إلى إضراب عام وتمرد كاد يصل إلى الثورة. راح الفنانون يهاجمون الفرعون على أسطح من قطع الفخار عرفناها فيما بعد باسم "إستراكا" عليها دونوا شكواهم وسخرتهم ورسومهم التى هتكت ستر قدسية الملك رمسيس الثالث. لم يعد الفرعون ذلك المقدس فى تصاويرهم التى قبضت الشرطة على بعض منها، وقادهم البحث إلى جاسكو ذلك السكير الذى كان يعتلى قمة الجبل ليلا، حيث مخازن البيرة المخصصة للمهندسين، ويعمل باحتراف فنان على خرق الأزيار الحافظة للبيرة بإزميل صغير، محدثا ثقباً غير ملحوظ فى جدار قاعدة الزير، وبعدما يأخذ نصيبه ونصيب زملائه الفناني، يعالج الثقب بمواد لونية لا تظهر عيباً ولا خلل تجاوز الفرعون الأزمة بعقاب جاسكو بإقصائه عن العمل، فراح يدور ليلا

بين طرقات المدينة متمسكاً كجعران فقد قدسيته، ينام خارج أسوار معبد
الرامسيوم أحياناً، وأحياناً يعطف عليه خفراء معبد تحتمس الثالث،
فيمنحونه ليلاً أغطية وفرش وبضع لقيات وكأس بيرة، لم يعرف للراحة طعماً،
حتى ذهبت إليه حورية ذات ليل بعدما سمعت مأساة كبير الفنانين التي
تمنت يوماً رؤيته. كان مستنداً إلى الحائط الشرقي للرامسيوم، ممسكاً بقطعة
فخارية وفرشاة يخط بها تحت ما تبقى من ضوء القمر، صورة لقط يقدم
قرباناً لإله من القنآن بالحناءة في جسد القط الذليل لحظة تقديم قربان
المجد. لمح جاسكو حمرة خدها ولمعان شعارها الفحوى المنحدر على كتفيها،
فنهض مذهولاً وكأنه رأى بنت جن انشقت الأرض عن مفاتها. بيد ترغب
في انتشاله مدت حورية يدها إلى اللوحة وراحت تتأملها والابتسامة
مرتسمة على شفثيها القرمزيتين. امتد بينهما الصمت حتى وضعت حورية
قبلة على خده، فكاد يقع على ظهره لولا أن أدركه حائط المعبد. قالت أنا
حورية من أهل المدينة أسكن ما بين معبد مرمبتاح والرامسيوم وأردت أن
أرى لوحاتك منذ أن سمعت عنك. حلت الابتسامة الحذرة محل هلع من
يسكن عراء الحيات والعقارب والذئاب، فسكن القلب في أحضان حورية
التي لم يدخل بيتها عبيراً أو مشتتياً لجسدها بعد نزول جاسكو عليها ضيفاً
محبباً إلى قلبها. كانت الحرب مشتعلة وثورة الفنانين قد امتدت إلى العمال
الذين تعاطف معهم رئيس الشرطة القائد منتومس، الذي لقي مصير
جاسكو وحل محله نب سمن كرئيس جديد للشرطة. كان نب سمن مكلفاً
بفض التظاهرات والاعتصامات التي أشعل فتيلها جاسكو الهارب بين

أحضان حورية من ألم العوز والقلق على أخيه الذى جنده الفرعون فى حربه ضد اللويين. لم يغادر جاسكو أحضان حورية ودارها حتى أتاه خبر موت أخيه دون حنوط أو جنازة تخلد ذكراه. فاشتعل الفنان غضبا وخط قصيدة من شعر الهجاء على "إستراكا" فخارية، حملت عنوانا دفع رمسيس الثالث إلى أمر نب سمن بمراقبة جاسكو منذ أن كتب قصيدته "أيها الفرعون لن يبقى لك ظلٌ" دامت المراقبة حتى إقتحم نب سمن دار حورية ليلا وقد تجمع السكان حول الدار لترقب حالة خروج الصيد عاريا. أمر نب سمن الجند بالانتظار خارج الدار حتى يقبض بنفسه على جاسكو بما يليق بأمر الفرعون. خرج جاسكو عاريا فزعا إلى صالة الدار فتلقاه نب سمن بسيف مسلط على عنقه. أدرك الفنان حتمية الموت غرقا فى النهر، ليس من جراء فعل الحرام وعقوبة الزانية والزانى بالموت نهرا لكنه الصدام الذى لن ينساه الفرعون حتى يجعل جاسكو عبرة للخالدين والعابرين بقديسية الإله. حاول جاسكو تعبئة خوفه برسم صورة لحورية العارية فى مخيلة القائد، فقال: على رسلك سيدى القائد، قبل أن تأخذنا إلى الكيميت وقبل أن تنفذ فينا حكما نعرفه، دعنى أقل لك عن جبال بطنها الفضى المستدير، عن عاتبا الناعمة كالشعبان الحارس لساوات الممجدين. لإبطيها رائحة عطر ملكة تعطرت من بلاد بونت البعيدة. لهيب أنوثتها يجعلك كحصان لاهث فى صحراء مجد الآلهة. لم ينته من الوصف حتى فار تنور نب سمن وتحركت مكانه ودخل إلى حجرة حورية التى طرحت ملابسها على جسدها لحظة الاقتحام. محاطا بالرغبة أمرها بخلع ملابسها. بين فخذيها راح نب سمن.

لحظة التشابك كان جاسكو قد غادر إلى الشارع صارخا: نب سمن في أحضان حورية. نب سمن يغدر بالفرعون المقدس اضطراب بين الناس والجند، ممتزج بالهمهمات والتعلق بأعين مرتقبة إلى باب الدار المحطم والذي كان الجند قد أحاطوه بأجسادهم، حتى خرج القائد بمهابة ملابسه العسكرية مصطحبا حورية كما ولدت. ممسكا بشعرها راح يجرها وهو يأمر بالقبض على جاسكو الذي رآه الناس هاربا أعلى الجبل في مغيب أبدى لا رجعة منه. نزلت حورية بعريها في دار العمدة "الكيمبيت" بين الوزير حورى وعمدة بيت الحق توسط نب سمن المسافة وأصدر الحكم على الزانية بالغرق نهرا وأقر العمدة وحورى الحكم بالإعدام، فللنهر نصيب من فقراء الزناة، وللكيمبيت نصيب من قادة الزنا، فالزنا ليس هنا. أشار الأستاذ يارو إلى موضعه، فعدت إلى رحم مونيكا وطفلى الغائب قبل المجيء ووعد قطعته على نفسى ألا أترك ولدى القادم للاغتصاب. سأتى به من رحم اليهود وسأقتل مونيكا وأطرحهما تحت شجرة العجى، تلك الزانية الوقة الهاربة. إلى الله سأتوب، فالله يقبل عن عباده التوب ويرحم.

أستودعك الله يا أستاذ. نهضت مستقبلا الباب، فنادانى أن أغلق الشباك فرما يأتى اللصوص ويسرقون الثور، ويصبح الغنى فقيرا والفقير غنيا ويصبح اللصوص ملوكا للطرقات المقطوعة. أغلقت الشباك واستدردت للخروج، لحظة أن كان الأستاذ الهرم يقرأ فى ثورة الفوضى قبل أن يأتى إمنحات الأول بقليل. بصوت مرتشع ضعيف بفعل الزمن فى جسد مريض كان

يسمعى فقرات عابرة عن الثورة والملك واللصوص والفوضى وانتظار الوطن
لزعيم من رحم الشوارع المعذبة فى الأسرة الثانية عشرة للأجداد الفراعين.

من جديد تستقبلنى الشوارع ببرودتها وقسوة المتاهة التى تأرجح الناس بين
دفتيها. المقاهى. دكاكين الحلاقة. محلات البقالة، تشتعل أمام الشاشات
الفضائيات الدينية تكفر التيارات العلمانية، والمحطات الليبرالية تجهل التيارات
الدينية. الناس فى انتظار الأموال المنهوبة. سعر الصرف ينبئ بتدهور حالة
الجنه الوطنى والمسلمون يرغبون فى عودة الأندلس قبل عودة قيمة الجنيه
وقد افتقدت رئيس ليبيا المقتول وحزنت على ارتفاع أسعار البيرة وإهالى
للصلاة وخير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود. قنوات تسلمك لقنوات
وبرامج تأخذك لأخرى. مازالت أمى أمام ذات المحطة ونفس البرنامج فى
انتظار عودة النقد. حسونة المنيأوى يخرج من حكايات الأموال إلى
المعارض "السينما" الإسلامية التى يمكن استثمارها للحفاظ على الأخلاق
أقسم بالله ثلاثا على أن محكمة عادة الأخير مطابقا للمواصفات الشرعية فيما
عدا مشهد القبلة الساخنة. وضعت أمى التى انتبهت لوجودى بحجرتها، يدها
على فمها وهى تضحك، ونظرت ناحيتى، ومازالت تضحك "يخبيك ربنا يا
حسونة". كلامك حلو يا منقوط" كانت توارى بيدها سوءة ما تساقط من
أسنانها، أو ربما تفعل ذلك كى لايول الشيطان فى فمها كما كانت تخبرنى إذا
ما تشاءت أمامها.

أمى تجيد الانتظار وتعشقه. لا تمل الحلم أبداً، بيد أن الحلم لا يملها أيضاً عاشقان لا يفترقان. تنتظر أموالاً مهربة بتفاؤل يشابه تفاؤل انتظار إرثها عن جدى رحمه الله والذى وعدّها أخوالى بالوفاء به منذ خمسين سنة، ومازالت فى تفاؤلها مستمرة رغم وفاتهم جميعاً دون الوفاء. أعلنت الشاشة عن إعادة حلقة الأمس من برنامج عبدالرحمن والذى تحدث فيه عن تحريم مشروب البيبسى كولا، وناشد الأمهات كما أخبرتنى أمى منذ بدء الحلقة، بأن الطبخ بنبات جوز الطيب حرام شرعاً، وأنها ستتابع لتستمع بحديث القردة الزانية التى رجمها القرود وساعدتهم فى الرجم التابعى الجليل ميمون.

ميمون فى الحكايات الشعبية عندنا اسم قرد فى كل الحكايات، فإذا ما سرد الرواى حكاية عن قرد طيب أو شرير أسماه ميمونا، بيد أن جوهر حكايات حسونة اقتضت وجود أى ميمون، ولو أطلق الاسم على بشر. المهم وجود ميمون. استأذنت أمى للراحة فى حجرى، فأشارت بيدها دون اهتمام. تعثرت فى شبشبها البلاستيكى، فانقلب على وجهه. خرجت إلى الممر الضيق فى اتجاه حجرى، فسمعت نداءها بعصية شديدة: تعال يا سعد. عدت حيث كانت ناظرة إلى الشبشب بتجهم. قالت دون أن أبادرها السؤال عن سبب نداءها: اقلب الشبشب يا معتوه. حرام عليك أن يكون النعل فى اتجاه السماء بالطبع يا أمى كلامك صحيح. قمت بتصحيح وضع الكبيرة التى ارتكبتها باستخفاف. وأشرت إليها بحركة من كفى الأيمن يمينا ويسارا، كما نودع أطفالنا وأحبتنا وأنا أردد نعم حرام حرام أن يكون الشبشب مقلوبا

فى وجه السماء وحلال حلال أن نسل عن إفساد دماء البراغيث للوضوء،
بينما كان رأس الحسين فى كربلاء مقطوعا. سأنام كثيرا يا أمى.

على سريرى يتمدد سعد الغريب، بجلبأى الأبيض. فتحت خزينة الملابس
وانتشلت جلبابا أبيض، فالجلايب البيضاء عندى سبعة، بعدد المثانى
وأيام الأسبوع والسماء والأراضين. دفعته ناحية الحائط كى يفسح لى
مساحة للنوم. تمددت إلى جواره ورحت فى فلك النوم ساجا. أشعر
بتقلباته المضطربة أحيانا. خيل لى أنه نهض لقضاء حاجة ثم عاد. ربما أراحنى
إلى جوار الحائط كى أفسح له مساحة لاستكمال النوم. عدت من عمق
النوم إلى سينة منه بعد وقت لم أتبينه. استيقظنا سويا، لم أكن متيقنا أيا منا
كان ناحية الحائط وأيا منا كان البعيد.

- صباح الخير يا سعد، قالها من كان بطرف السرير

- صباح النور يا سعد، قالها صاحب الحائط

نهض المجاور منا والمتطرف. فجلس الأول إلى جهاز الحاسب، والآخر على
حافة السرير. نظر سعد إلى سعد وسأله: من أنت؟ فأجابه سعد: من
أنت؟ رحنا كسعين فى تساؤلات وردود ما بين، من أنت؟ أنت من
كنت إلى جوار الحائط أم أنا؟ أينما كان بطرف السرير؟ أنت أم أنا؟ أينما
نهض قبل الآخر؟ من يجلس خلف المكتب الآن؟ من منا سعد صاحب
الدار، ومن منا سعد المستأجر؟

صوت التنبيه الآتى من الحاسوب يعلن عن قدوم رسالة واردة إلى البريد "الإليكتروني". نهض الجالس منا على حافة السرير وراح يتابع والجالس خلف الجهاز. رسالة شكر من غادة التى أعرفها جيدا، إذأ أنا سعد صاحب الدار بلا شك. سعد المستأجر هو من خلف الجهاز بالتأكد. لكنه يرد الآن على الرسالة بإحاطة كاملة للموضوع. يشكرها على حسن ضيافتها وقبولها الوساطة.

سعدان أحدهما يدرك والآخر يحيط علما بالواقعة. نهض من خلف الجهاز وقال: سأخرج لشراء بعض علب البيرة المثلجة، فأشرت برأسى موافقا. مده فى جيب سترقى وانتشل حافظة نقودى دون أن أبدى اعتراضا ودون أن يبدى هو تحفظا فرما هى سترته أيضا. خرج سعد وتبعته أيضا سعد، لكنه خرج إلى الشارع وخرجت إلى الحمام للوضوء. لا أجزم بأننى من دخل للوضوء ولم أقطع بكونه الخارج لشراء البيرة. لكن أحدنا فعل ذلك والآخر قام بتلك فلتكن مشيئة الله وأنسب الخير لنفسى، أنا بالقطع سعد الطيب الذى يستعد الآن للصلاة.

- الله أكبر... خشوع وسكينة وقلب ينتظر النور، شعور طيب، فأنا سعد الطيب. أستحق اللقب بجدارة
- سمع الله لمن حمده... أرى شياطين من نسوة عاريات يمررن أمامى أستغفر الله على عجل.

- الله أكبر.. الشياطين مازالت حاضرة. محاولات منهم لمنعى من الصلاة..
أدعو الله ألا أكون سعد الشرير. الشياطين يأمرون رأسى بمغادرة السجادة.
اللغة عليك يا سعد بيد أنك سعد الشرير. اثبت وانسب لذاتك شرف
الصلاح

خمس زجاجات بيرة ستيلا من فضلك. بالطبع أحبها باردة. ضعهم فى كيس
أسود كى لا يراهم أحد. تجهمت فى وجه البائع الذى رفع السعر عن المقرر
بقائمة الأسعار، لكننى اعتذرت إليه بعدما أتانى بفواتير شراء المصنع وتبينت
ارتفاع سعر الجملة. اصطدمت عجوز متعبة بالكيس، فأحدثت الزجاجات
صوتا تداخل وصوتها المستكين وهى تمد يد الحاجة: حاجة لله يا أستاذ
فتشت فى جيوب سترتى فلم أجد جنيهات معدنية. فقط خمسة جنيهات
ورقية أقل العملات التى أحملها. توقفت أمام عينيها المترقبين ليدى الباحثة
عن المال وذهبت فى تفكير انتقائى، أعطيتها خمسة جنيهات أم أفك الخمسة
آحادا وأنصافا؟ حاجة لله يا ولدى أكرمك الله، تردد بوهن، ومازلت فى
تفكيرى الانتقائى. حقا أنا سعد الطيب، أفكر بجدية منحها صدقة تطفئ
غضب الرب. لكن ما باليد حيلة، ليس لدى عملات معدنية. البسمة فى
وجه أخيك صدقة، هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم، فلتكن البسمة
فى وجهها وأنا أردد: الله يحن عليك يا ست.

شيطان أنت يا سعد. تشتري خمرًا بالعشرات وترفض أن تقرضها قرضا
حسنا بالأجزاء اللغة عليك يا سعد بيد أنك لست سعدا الطيب، أنت
شرير. اثبت وانسب لذاتك شرف الصلاح، فالابتسامه تكفيها.

- سمع الله لمن حمده.. خرجت الشياطين من رأسى وأتت الاستعاذة أكلها أشعر بسعادة كونية لا شرقية ولا غربية زيتونة مباركة.

أشعر بأن الليلة ستكون رائعة إذا ما جاور البيرة حجرين من حشيش، لكن لا لن أشتري فرما تشم أمى الرائحة.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرما يا سعد. قالها سعد، وهو يزيج الحاسوب كي يفسح مجالا للزجاجات المشتعلة بضباب البرودة. رحنا نشرب سويا. نغيب سويا. نحدد أولويات مرحلتنا القادمة، فقررنا لحظة الانتشاء أن يغادر سعد إلى العاصمة بحثا عن طفله المخطوف في رحم الهاربة، ويمكث سعد إلى جوار أمه والأستاذ يارو كي يتعلم القراءة كاملة غير منقوصة.

- شكرا يا سعد

- شكرا يا سعد.

- نتواصل عبر الهاتف والفيسبوك.

- نتواصل عبر الهاتف والفيسبوك.

سلام يا سعد.

أماييت

لم أعبر شجرة الجميز بعد، كى أصبح فى السماء ممجدا، ولم يأكل أحشائى أماييت كى أعيش فى الظلمات إلى الأبد. محض سعد هناك فى أحضانها تلك القرية البائسة، وسعد هنا فى تلك العاصمة اللاهثة. ولدى لا مزيد يا غادة.

فى الصالة الواسعة بشقتها راحت غادة تواسينى، بعدما أفضت من الهم إلى الحزن، ولما أطلت الحلم بعودة الغائب دون حراك وفعل، وجدها محض أمانٍ وتوسلات وحكايات لكسب عطف من يقدر على المساعدة. أخذتني غادة إلى ظلمات ظننتها نورا لكشف الغيم، ونهضت عن مقعدها، ثم إلى حجرة مكتبها، وقد عادت بجهاز الحاسب الشخصى. وضعت به إسطوانة مدمجة، وقالت: يا سعد، سأريك حسن كل فعل قبيح فى ورود ما ترغب أن يتحقق، فلا البكاء ولا الشقاء ولا الشكاية للناس ستعيد إليك طفلك. الحزن يأخذنى وغادة لا ترحم ضعفى. أطفأت المصباح وأدارت الجهاز فخرجت صورة عبدالرحمن خالية من محابة الوعاظ وثعابينهم القرعاء وعوار المرأة طل فى عيني عبر الشاشة بعينين شرهتين لجسد غادة التى أحسنت اختيار ملابسها الشهية وقت المقابلة مع الشيخ حسونة، فوضعت ساقا على أخرى فبان منها ما بان. غض حسونة بصره بنصف انحناءة فى الرأس ونصف عين مغمضمة. نهضت غادة وتحركت فى تلك الصالة التى أجلس فيها

الآن فكانت عيناه كمنقالة طائشة تتصيد من مؤخرتها الأكثر طيشا، نصيبا محمودا.

راح يتابعها، وهو يعاتبها على محكاواتها غير الشرعية، فعاتبته على قذفه غير الإنساني. إلى جواره جلست، ومازالا في عتابها. بدأ حسونة في الاعتذار. أحست عادة بتحركات كأمنة من خبث ثعبانه المتخفي تحت الجلباب. فمالت ناحيته وتمايلت حتى سقط حمال الفستان، فبدا النهذ المنير بدرا مكتملا في عينيه، فغرق وجهه وتغير. اقْتَرَبَتْ ثم اقْتَرَبَتْ فاقْتَرَبَتْ بارتعاشة في جسده نهض، فوقف، فانحنى على رأسها فقبلها، فتضاءلت فعاود الإنحناء، وعلى جبهتها طبع، فتضاءلت أكثر، فأكثر. انحنى وعلى خدها نالها، فتضاءلت وتضاءلت، فعلى ركبتيه ركع ومن شفثها نهل فتضاءلت تضاءلت، وعلى السجادة تفرشت، فدنا بركبتيه وسجد، وراح ككلب من مكمنها يلغ، والحسرة من قلبى تمتلك. قلت: يا عادة لم الفعل وأنت الكارهة؟ أطفأت الجهاز ونظرت إليّ بدهشة مولانا عبد الدايم، وهو يشرح ويعيد، والطلبة لاتفهم. هزت رأسها حسرة ونادت أن يا سعد الضائع هل تنتظر من يقدم لك يد العون، وأنت العاجز عن عون ذاتك. ارحل إن لم تستوعب الدرس. عد إلى حسونة وسله عنى. سيحكى لك عن طيبتى وشرفى وطهرى وخطيئة ارتكبتها فى سبى. سيسْتَغْفِر ويَتَمِّم ويَحْوَ قُل. انتظر قليلا سأعود بسرعة. تركننى عادة إلى حجرة نومها. صور صاحبات الرايات الحمر على جدران الحوائط تشبه مونيكا الكافرة والتى لا بد وأن أجدها قبل أن تلد وتسجل ابنى باسم بن يامين أو سام أو ما شابه من أسماء اليهود.

عادت عادة ولم تجلس، وكأنها تنهى اللقاء قطعياً. هو طرد مهذب، لكننى سأعده إنهاءً للقاء بيننا، ولا سيما أنها مدت يدها ببعض الورقات المالية من فئة مئتي الجنيه. نهضت مندهشاً وإحساس المهانة أخبرتها أنتى لم آت لطلب صدقة، فمعاش أبى يكفينى وأمى. انفجرت عادة فى الضحك الممزوج بالسخرية، ثم ضربتنى فى صدرى بقبضة يدها دعابة، وهى تردد: لعن الله أباك ومعاش أهلك. أى معاش هذا الذى تتشدد به دون حياء، يا سعد خذ المال فحماً سيساعدك فى الحصول على معلومات عن مونيكا، المال يا سعد حصن من الفجار. ستر من العرى. رحمة من الجوع، فلا تتركه للمفسدين فتشقى.

الأستاذ يارو الذى لا يمتلك من الأرض إلا قيراطين يجعلانه فى عداد المنكوبين ومعاش متهالك من فرط الحكمة، يوصينى دون نفسه بتقوى المال ليتة أوصى سعد قبل أن يغادر إلى العاصمة، فأنا لم أعد فى حاجة إلى المال كى أبحث عن رحم مونيكا التى قررت نسيانها مفوضاً أمرى إلى الله هو المصر على المسير خلف رحمةا النجس.

النور لم يعد يكفى فى حجرة الأستاذ، فترك الجورب الذى كان يرتقه، ودس الإبرة فى لفافة الخيط. رفع فرش السرير ووضعها بحرص فقير معدم ومازال يذكرنى بفضل المال الذى تيقن جدى فضله.

على غير المتوقع، وكنت أعلم مسبقا حرصه على توفير الكهرباء طلب أن أضيء المصباح. تحسس فرش السرير بعدما أزاحه قليلا ثم أخرج كراسيا قديما، راح ينفذ الغبار عن غلافها المتآكل. أصابعه المرتشعة من وهن العمر المتقدم تقلب أوراق الكراس الصفراء. أحنى رأسه حتى لامس منخاره الورقة. فالإضاءة الضعيفة والجسد الضعيف والبصر الضعيف يجبرونه على الانحناء. وحده الزمن قادر على إحناء البشر فلا السلطة ولا القهر ولا الجبروت يمتلكون قدرة الله على القهر. فعش غنيا كي لا تنحني. تلك هي المقدمة التي قرأها الأستاذ يارو وبها أعادني إلى المال، وكيف أن جدى تدارك سطوته. قال: شهدت البيت ولم أعاصر ردم البركة التي احتوت بيت شيخ الحضرة فيما بعد، لكنني أعرف جيدا ما حدث ولا سيما أن عجزه نصب نفسه قائدا مثل رجل يدرك جيدا قيمة المبادرة. لا أنكر أن الفضل يعود للخواجة "لاكي" أيضا، فهو من أجاد مران عجيذة الصبي، حتى جعله الناس للرجال نموذجا في القرية. كان يختلي به كل مساء. يقرأ له ما تيسر من كتاب الموتى وفلسفة اليونان وما أتى به محمد بن عبدالله. جعله وسيطا بينه وبين العمال. ربما تسألني عن سر هذا الاهتمام. جميعنا كان يعرف ومازال أهل القرية الحاضرون بيننا ولم يدركوا الحكاية يعرفونها شفاهة فنحن قوم للحكايات خلقنا والجرائم عندنا لا تموت إلى الأبد. على الرغم من حرص "لاكي" وإجادته الاحتفاظ بسره حد الإعجاب والتعجب، إلا أن أحمد النادى وحده لم يكن مستغربا تلك العلاقة منذ الخروج بجثة سهيلة من أسفل الجميزة وحتى التقاط عجيذة بالمنشفة وستعرف فيما بعد لماذا خان

"لاكى" الجيش الإسرائيلى، وهل كان حضور ذكر عجيذة هو الدافع للخيانة؟ ربما لن تصدقنى لكن أولاد أحمد النادى أحياء بيننا وهم من أشاعوا سر العلاقة بعد نجاة أيهم وخيانة "لاكى". سلمهم من أجل أى شئ عرض "لاكى" حياته للخطر والسجن والتعذيب؟ فالحكايات حية وإن لم تصدقها يا سعد، وتوت توت. سبحان الحى الذى لا يموت، جملة الحب لا الدهشة التى وقف غراب بها أمام بيت شيخ الحضرة وهو ينظر للبناء بابتسامة وقلب فرح. راح ينادى مبروك يا مصطفى. مبروك البيت والغيط والملج وحمرة المجاذيب.

الدار بعرض دوار العمدة وبيت عمر وهلال جماعة، وطول دار عبد المعبود ثلاثا. مساحة مدهشة للناظرين. مثيرة للعابرين. مفرحة للداخلين مبتدأها حوش كبير بعرض الدار. يتسع لمئة حمل من زكائب القطن. مفتوح إليها باب بصفتين يؤدى إلى حمرة فسيحة أسأها أهل الدار حمرة المجاذيب. منفصل بابها ونزلها عن كل الدار. بها ينام مجاذيب سيدى عز الدين، وفيها تقام لىالى الذكر وتلاوة القرآن، وعليها يمر العابرون للطعام والراحة والاستظلال من ماء المطر أو حر الظهيرة. الدور الأرضى لحزن الغلال إذا ما فاضت الحزائن. أما العلوى فللسكن والراحة. عن يمين باب الدخول حمرة اللبن وخلفها حظائر الجمال والجاموس والبقر. دار حكى عنها المندهبون بأنها تحمل ماكينات سحرية لضخ المياه اسمها "الحنفية" تلف مقبضها فينزل الماء لتوه. لا زير تحتاج ولا جرار من النهر على رؤس النسوة تمر بالأبواب. فالحمرة يكامغلو أتاها بالصناير من اليونان هدية، وسمح له بإدخال كهرباء

مولدات المحلج إلى الدار الجديدة. تتكشف نورانيتها في مساءات قرينتنا المظلمة، فتراها محلاة بالفوانيس على مداخلها والمصاييح على جانبيها وداخلها. فالأرض أثمرت والمقاولة نجحت واستطاع جدك استئجار أرض الساحل من الحكومة والتي نسميها ليومنا هذا بالجزائر، كل هذا جعله في عداد الألفيين. أصبح جدك ألفيا يملك من الجنيئات ألفا ويزيد.

يأتى الصباح ممحلاً بنسائم باردة قبل أن تندفع صافرة المحلج كي تعلن عن بدأ دوام العمل. يخرج شيخ الحضرة للصلاة في مسجد سيدي عزالدين ويعود برفقة الشيخ غراب وبعض مجاذيب المقام. ترى الناس أفراداً وجماعات يمرون عبر باب الحوش إلى حجرة المجاذيب، منهم العمال في المحلج وبينهم فقراء التراحيل، وبعضهم ممن ربط حماره والجاموسة في عامود تليفون المحلج الخشبي ودخل مع الداخلين. رائحة أفران تشتعل وخبز خارج لتوه من النار تمر مع النسبات الباردة، فتمنح المكان دفئاً وأماناً. كنا فقراء. جميعنا كنا فقراء إلا الهلايلة الذين حكموا الزرع والضرع ورقاب العباد. بالطبع شيخ الحضرة منهم، لكننا اعتبرناه منا نحن. هكذا قال أبي عنه، كان كبيراً بعطائه لا بعصاته. فتراه يحمل مشنات الخبز والفطير الطازج عن يد النسوة ويدخل بها حيث المنتظرين. يضع بنفسه طواجن العسل والمخلل وجبن المش بين الجالسين الذين اتخذت كل جماعة منهم هيئة دائرة، تتوسطها مشنة وثلاثة طواجن، بينما كان أحمد النادى والطنطاوى المهدي ينظران فعل النار في الراكية لإعداد الشاي. تنتهى الطقوس مع صافرة تنبيه بدأ العمل. فنهنض بشكل آلى اعتدناه منذ نشأة دار شيخ الحضرة.

”لاكى“ على مقعده الخشبى يراقب العمل، ناظرا ناحية حميزة العجمى وشيخ الحضرة وابنه أحمد بين العمال كناف ساقية دائرة، لاملل يصيها ولا كلل فالراحة بحساب والوقت بحساب والحساب بحساب. لا يثنيها عن العمل إلا الصافرة ولا يأخذ من تفكيرها سوى الحفاظ على الحلم. وحده عجيذة النائم فى الدار حتى الظهيرة منذ أن تركوا القرية القديمة إلى بيت الحضرة. لم يكن جدك غاضبا من فعله إلا بعدما زادت النعمة وتسلم أرض الجزائر من الحكومة، فكان عليه إيقاظ عجيذة وقت الدوام. دخل إلى غرفته مع صافرة المحلج محاولا إيقاظه لبدء العمل المتفق عليه فى أرض الجزائر. نهض عجيذة جالسا ومغاضبا راح يفرك عينيه ويصرخ فى وجه جدك: أنا لن أعمل أتم فى نعمة أنا السبب فيها ولولا إنقاذى لك لكنت فى عداد غرقى شجرة العجمى. لم يكن تغييرا مفاجئا فى أسلوب معاملة عجيذة لأبيه سبب دهشته بل ما وشى به من قبل أحمد النادى سرا فى أذن جدك، بأن عجيذة على علاقة بابنة عمه عبدالمعبود، فخرج الشيخ إلى الصلاة وخلع عنه شال عمامته وربطه حول خصره، ثم علق عصاته على كتفيه وأمسكها من الطرفين بكلتا يديه ومر بالصلاة ذهابا وإيابا، وهو يغنى ”أخضر يا عود اللينة يا ليلة بيضا عندنا، هاتوا العاذولة نخبسها لما نفرح إبننا“. النف أهل الطابق العلوى حول جدك ومازال فى مجيئه وذهابا وغنائه متواصلا، الكل خرج من حجرتة على عجل، فهم يعرفون أنه لا يجيد الرقص إلا حال المصائب سألتة جدتك عن الأمر، فقال: هو أقتضى من الموت وأنت بالحلق

والبطنطيف من الفقر وأحمد من أحكام العمدة والإهانة بالرجال، وأنا سيدة هذه الدار، وحدى من لم يقدم على شيء يُذكر.

بالطبع سيحدث صراع بين جدى وخالى الذى ليس بخالى يا أستاذ. لم يعجب الأستاذ يارو بمقاطعتى له، فلم يلتفت ناحيتى، وظل يقلب فى صفحات الكراس المتآكل الذى أغلقه بحرص، ثم نظر ناحيتى، وقال: كان عجيزة محقا فيما قال.

أخذتنى الدهشة والتعصب من هذا الرأى الغبى، فكيف لابن الحرام الذى احتواه جدى ورباه أن ينصره أستاذ التاريخ على أعظم إنسان فى القرية؟ أحس الأستاذ بغضبى فأشار أن إصنع كويين من الشاى. ثم قال: ليس لكونه جدك فهو العظيم، وليس لكون عجيزة ابن الشجرة فهو ابن الحرام، ثم أشار إلى رأسه مرددا: هنا مصنع الحلال والحرام إثر وهم آت من هنا، وأشار إلى قلبه. فنهضت لتفريغ الشاى فى الكويين فسقط على فخذى، فألقيت البراد فى الفراغ، فسقط على منضدة الكافور ثم استقر على السرير، تاركا فوزى ونفائيات. ضحك الأستاذ يارو: لو أن جدك ألقى البراد لقتله عجيزة للتو ولتسبب فى فوزى أشمل مما فعلت يا سعد. وربما انهارت الدار الجديدة على رؤوس الجميع، لكنه أيقن أن القائد لم يعد يصلح للبقاء ولا بد من تغيير النظام، وقد أقر أهل الدار ما أقره جدك سراً دون وجود عجيزة وراح يخطط للتغيير بخطوات سيقنع بها الجميع فيما بعد بأنه القائد، ولحظتها سيعلن تغيير النظام.

خلا الميدان من الهتاف، ولم تعد الجماهير غاضبة في ذلك المحور الذى كان محطى الأولى للبحث عن مونيكا. كنت قد أقسمت على عدم ولوجه ثانية لكننى مضطر، فالهدوء وتفرق الناس استعدادا للانتخابات الرئاسية والشعب الذى لم يعد يريد بعد، كل ذلك يمنحنى فرصة السعى غير المضطرب ولا سيما أنه لم يعد بالتحرير سوى بضع خيمات للشباب، وكثير من المقاهى والباعة الجائلين والمطاعم المتحركة على عربات خشبية قدرة حد الغثيان. لم تكن خيمة إخوتي بمستقرها ومستودعها. حل محلها الخيمة التى ضبطنا فيها آجنس عارية. مازال بعض الزملاء العلمانيين يذكروننى كضيف حللت عليهم فجأة وغادرت فجأة. لم تكن علاقتى بهم حد الثقة كى يسمحوا لى بالمبيت داخلها، رغم أننى تركت كل الجماعات وملت ناحيتهم. هم بالتأكد على حق، فالعضو العابر فى أى جماعة ليس كالمقيم وليس له نصيب إذا ما كانت هناك أنصبة للتوزيع، فقط النوم بالعراء وفى الجوار، لكن أموال عادة حاضرة معى، ولن أترك نفسى للشوارع. اتجهت إلى مقهى عم رؤوف الكائن بناصية محمد محمود. رجل فى الخمسين على ما يبدو. لحيته لا تتجاوز قبضة يده. جلاببه أبيض نصوع شمس الظهيرة. يلف رأسه بعمامة ليس لها ذات الهيئة الأفغانية الحجازية، تشبه عمامات أهل أسيوط. الجلابب ماين المنسدل والقصير. نور فى وجهه الهادئ تزينه سمة الصلاة المهدبة من أثر عدم الاحتكاك. كنت مدينا له بثمان كوين من الشاى وكوب من النعناع. صوت عبد الباسط ينطلق من مسجله القديم، الذى وضعه فى ركن آمن

من المقهى المتحرك. منشغلا كان مع الرواد. سحلب يا عم رؤوف حاضر...
شأى يا عم رؤوف. عيونى.

- مساء الخير يا عم رؤوف.

- مساء الخير يا بنى وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قالها دون أن يلتفت، ولم يأخذ موقفا عدائيا من تحية العلمانيين التى حلت
بالصباح والمساء محل تحية الإسلام، فكان يرد كما نلتقى بالصباح والمساء ثم
يتوجها بابتسامة فيتبعها بالسلام. حينما التفت ناحيتى رأيته بشوشا كعادته
سمحا فى مودته. فرد ذراعيه كى ألتقى بضلوعه ويديه. قبلنى كما أب ودعانى
للضيافة كما خال. جلست قريبا من منصة إعداد المشروبات ورحنا تبادل
أطراف الكلام. قال إنه توحشنى كثيرا، وكان يسأل عنى دوما ومنشغلا
بغياى المفاجئ. لم أرغب فى قص حكاية مونيكا عليه ولن أشغله على أية
حال. لكن سأسأله من بعيد فهو يعرفها ويعرفنى ويعرف العابرين والمقيمين
هنا. البار منهم والمتواطئ. المحب والكاره. المؤمن والكافر. عم رؤوف هو
الميدان بلا خطيئة. يحلل الخطابات كما هيكل ويحيد الحديث كما رفعت
السعيد ويتكلم عن الله كما الشعراوى. يعمل بهدوء عمال جمع النفايات
ويداعبنا بروح عادل إمام. لا يسب ولا يغضب. فقط عم رؤوف يحزن. رغم
أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. لكنها القراءة المكتملة والعجز المبين يعرف
ولا يعيره أحد اهتماما. ليس بالفضائيات نجما وليس للجاعات والأحزاب
قائدا. فقط هو عم رؤوف ونحن لا نجيد الاستماع إلا للنجوم.

ثوانى يا أستاذ سعد، سأنهى من تجميع المحتويات ونجلس سويا بعد الإغلاق. قلت: لا عليك يا عم رؤوف أنا منتظر. بالطبع لم أكن فى انتظاره ولا فى انتظار أحد، فقط أنتظر فكرة تأتيني كي أبدأ البحث عن مونيكا. أفكار تأتى وأخرى هاربة، ربما يساعدنى عادل بالضغط على إيميلى وهى زميلة مونيكا بالجامعة. لا أعتقد ذلك فإيميلى أنكرت مثل آجنس علاقتها بها. عبدالرحمن المياوى يمكنه المساعدة بما لديه من علاقات ونفوذ، لكنه سيتهمنى بالزنا.

ضبطنى عم رؤوف متلبسا بضحكات هيسيرية من فكرة اتهامى بالزنا من قبل حسونة ومن تشتت ذهنى بين ماض وحاضر ولا مستقبل ينتظرنى. قال: أضحكك الله يا سعد يابنى. شاركنا الضحك والبسمة فهما عملتان جيدتان فى زمن الفقر.

قلت: ما عقاب الزانى يا عم رؤوف؟

أجاب: دموع الندم، فهى أقسى من الجلد وأثقل من الرجم. الله لم يحدنا كي يفضحنا، التوبة يا ولى. كانت كلمات عم رؤوف آخر ما أذكر قبل أن أصرخ كما الجوسقى، صرخات جمعت الناس من حولى وأنا أقاوم مجيئى الغياب. ارتعاشة البدن. صراخ صراخ حتى المغيب.

المغيب وحضور الليل يدفعان عنى ملل الاستماع إلى الأستاذ يارو بعدما أخذه النوم تارة والحضور مرة أخرى، يغفو ويعود كما جدتى خالدة فى عمرها

الثانين. أشعر بأنتى غائب عن الوعى وذاكرتى محملة برحم مونيكا مثل سعد.
أريد طبيباً لتلك النفس التى ترفض ثم تقبل. تعى ثم تغيب. ألم تتفق على
القراءة المكتملة؟ فلما تراودنى مونيكا إذا؟!!

تركت الأستاذ بعدما أخذه النوم المصحوب بشخير متقطع. أحكمت إغلاق
النافذة المطلة على النهر وتأكدت من إحكام الباب خلفى. مررت على
الجسر الفاصل بين الماء وبين الأرض، ومنه إلى الممر الضيق الجانبى، الذى
يتخذهُ ملاك أراضى الطوامى البعيدة عن النهر منفذاً للماء. صعدت من أدنى
مهبط أم إبراهيم الرابط بين الجسر الكبير وأرض يارو. عند النقطة التى
يلتقى فيها المهبط بالجسر نخلات عوض الله الثلاث، والى توقفت أمامهم
مرتعباً من رؤيتى المفاجئة لحيات سوداء وزرقاء تتلوى أسفل النخلات التى
كنا نختصر جمعها ونسميها نخلة عوض الله. حتماً سيخرج الثعبان المؤلف
ويلتهمنى. أخذنى تفكير حذر بين العودة إلى الأستاذ يارو أو تحمل نتيجة
المرور بجوار الحيات. لم تعد نخلة عوض الله مرعبة كما كانت، فالعمار طالها
مقربة والأضواء المشتتة تتخللها وضوء القمر، لكنها مازالت خارج العمار على
أية حال. قررت المرور بحذر وخوف. سرت بعيداً عنها قدر ما استطعت،
ثم عاودت التوقف مع هواء أتى فجأة فزادت الحيات ارتعاشاً ربما تكون تلك
العاصفة من فحيح الثعبان المؤلف. ماذا أصابك يا سعد؟ لقد مات الثعبان
المؤلف منذ سبعين سنة. قتله جدك بحيلة الأولياء. أمى أخبرتنى بذلك، لكن
ما المانع أن تكون وليفته المؤلف أيضاً مازالت حية فالحكايات المتواترة عندنا
لا تنتهى إلا بالسعادة وانتصار الخير. تاركين فراغاً كى يكمله كل منا حسب

رغبته. قالوا: مات الثعبان المؤلف، لكننى لن أمر عدلت عن قرار المرور، حتى تتكشف الحيات وثعاين نخلة عوض الله مع فجر يوم جديد. أماكن وجود الحيات تتغير فى حركة دائمة مع اهتزاز جريد النخل. صرخة أطلقتها فجأة حينما اقتربت منى حيتان. إحداها اقتربت من رقبتى طائفة فى الهواء والأخرى تحت رجلى زاحفة على عجل. محاصر بالموت رحت أزعق: أقتذونى. لم أشعر بشئ بعدها إلا ويد زوجة خالى تناولنى عصير الليمون الساخن وقد ربطت عصاة على جبهتى. البخور المشتعل يركى الغرفة ويطمئننى. يدها الطيبة تمسح عنى عرق الخوف قلت: الثعبان المؤلف والحيات المتعطشة للموت كادوا يقتلونى. قطعت زوجة خالى من شر النفاثات فى العقد وصدقت كلام الله، ثم أحاطتنى بذراعها الأيمن: مات الثعبان المؤلف منذ زمن يا سعد. هى طرية أصابتك ليلا سيسيفيك الله بالقرآن وعطر البخور. قلت ومازلت فزعا، ربما وليفته المؤلفة هى الفاعلة. دخلت سلمى ابنة خالى وفى يدها أوراق الرسم وأقلام الباستيل وجلست إلى جوارى. راحت ترسم نخلات عوض الله ليلا. ضوء وظل تجيد خطهما. أسفل الجريد المتشابك ظلال مرتبكة تشبه حيات البارحة. بين الجريد المتباعد يمر الضوء، فيزيج الظلام بممر من نور. كنت قد قرأت دافنشى من قبل، لكن يبدو أننى أقرأ بلا فهم. قراءة منقوصة لهذا العالم الوهمى. الظل يصنع الحيات، والنور يبهج النفوس. أخذت نفسى بعيدا عن لعبة الزمن والمشينة، فشكرت سلمى وتمددت على السرير ممارسا للعبة طرأت فى ذهنى اللحظة "الضوء والظل" قلت اطفئى النور يا سلمى، ففعلت لتوها.

قلت هل تريننى الآن؟ أجابت: لا. إذًا فلنصمت قليلا. لدقيقة لم أشعر بوجودها على الإطلاق رغم حضورها الآنى والفعلى. أردد داخلى، إذًا ساد الظلام وفقد الهواء صفة إيصال الذبذبات الصوتية، صرنا عدما. طلبت من سلمى الاقتراب، فلامستنى بيدها. مازال هناك حاسة يمكننا التواصل من خلالها. أضاءت سلمى المصباح، فعدنا إلى الوجود. ضحككت سلمى، وهى تغادر الحجرة وتردد إذا فقدنا النور، فقدنا نصف وجودنا ونظل فى فراغ الصوت نتلمس طريق الذات. لمس وشم وضوء وهواء، مفردات لا نملكها وبها نشعر بوجودنا، يا لبؤس الإنسان! خرجت سلمى وأنا أحكى عن وجودى المضطرب: من أنت يا سعد؟

أنا متعب من أثر الغياب. بصيص من نور يتجاوز فتحة ضيقة بالنافذة. تقع عيناي على أرفف من الكتب المتراسة من الأرض إلى السقف. الجهات الأربع للحجرة الضيقة لها نفس الصفة. بالكاد تحملك الحجرة للنوم. بابها المفتوح عن آخره مثبت بأكوام من الكتب، تمنعه الانغلاق. لا أعرف أين أنا أصوات عمال ومارة وأطفال تلعب بالشارع. "إصباح الخير يا ست أم أحمد إصباح النور يا ست أم مايكل". أصوات نساء تبييتها وأنا أفتح النافذة المطلة على جزء من مبنى وزارة الخارجية. أنا فى بولاق أبوالعلا حتما. من أتى بى إلى هنا. عند من أنا؟ أسئلة ظلت تراودنى حتى أتانى صوت حسام وهو ينادى: افتح يا عم رؤوف. صوته مضطرب وعجول. يردد بلا توقف افتح يا عم رؤوف. زامن النداء طرقات طفولية عنيفة على الباب الخارجى. ملت بجانبى كى أمر بين زحام الكتب حتى خرجت إلى الصالة ويد

عم رؤوف الهادئة تفتح الباب بلا اضطراب. اندفع حسام فرعا بعينه المتبقية، فيما كانت عين حورس قد تهتك خطها السفلى بفعل البكاء.

- حرحش الصايغ، ألقى بمحتويات مقهانا وسط الميدان، واقترش مكاننا بمقهاه.

ابتسم عم رؤوف بلا توتر وجذب حسام من يده، فأجلسه على كنية زمنية، ثم قال له: ألا تسلم على صديقك العائد. بعينه الفرحة ونصف عينه الحورسية نهض حسام والتقى بذراعي المفتوحين اشتياقا لرؤيته. تعانقنا وتصالحننا وربطنا على أكتافنا، بينما كان عم رؤوف قد غادر إلى المطبخ لإعداد الإفطار. بيد أن حسام لم يبادلني الحديث لأنه آت لهدف محدد: المقهى ضاع يا عم رؤوف.

- تحب البيض مقليا أو مسلوقا يا سعد، وأنت يا حسام؟

نظرني حسام بدهشة لعدم مبالاة من خسر مصدر رزقه. فهزرت كنفى تعجبا، ثم طلبت البيض مسلوقا. عاود حسام التنبيه، فطرح سؤالا جديدا عن تفضيلنا للبول بالدقة أم بغيرها. حسام يعاود التنبيه: المقهى ضاع.

جلسنا سويا في تلك المساحة الضيقة بفعل ازدحام الكتب المتراسة والمهملة وعم رؤوف يحاول تهدئة حسام بأحاديث أخرى بعيدا عن الميدان، حتى انتهينا من الإفطار. فتح عم رؤوف النافذة ونادى: يا عمرو. يا شوقي. يا أم خليل. يا جرجس. النوافذ تفتح عقب النداء ويردد صاحبها: صباح الخير يا

عم رؤوف أوامرك. حشد تجمع أسفل النافذة من الشباب والرجال والعجائز الكل يسأل: خير يا عمنا

صباح الخير وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته عليكم جميعا. قالها وما زال بالنافذة، ثم طلب منهم الانتظار لحظة كي ينزل إليهم. أشار إلي وحسام ألا نرافقه. رحنا نرقبه عبر النافذة، وهو يحدث أهله وعشيرته، بحديث لم نتبينه من فرط رصانته والهدوء. بدأ المحتشدون في المغادرة ناحية الكورنيش بعضهم دخل إلى داره ثانية، ثم خرج على عجل، وهو يعدل من وضع ملابسه، وفي اتجاه الكورنيش سار للحاق بالمغادرين. عاد عم رؤوف، وقد طلب من حسام أن يصاحبني إلى حديقة منتصف الميدان، دون تجاوزها حتى لو رأيناه مقتولا. تيقنت من طلبه أن مصيبة رتب لها الرجل المتزن فقلت: لا يصح أن نترك ولو متنا إلى جوارك. ابتسم عم رؤوف وكأنه رغم تأدبه كان يسخر مني هو الآخر. قال: يا سعد للعلم رجال وللطب رجال وللدن رجال وللمعارك رجال، وأنت لست بهذا ولست بذاك. فإذا ما حل ذاك محل تلك فأبشر يا ولدى بالخراب.

عند حديقة المنتصف رحنا نرقب بخوف ما يحدث. عم رؤوف وحده يتحدث إلى حرحش الذي جاوره ثلاثة آخرون. حركات يد حرحش ومرافقيه تشبه في توترها بلطجية المعارض الحديثة. مازال التوتر والغضب قائما وعم رؤوف لم يعدل عن هدوئه. راح يعدل عمامته الصعيدية وكأنها إشارة بدء معركة دموية فرأينا أم جرجس آتية من ناحية المتحف المصري برفقة كتيبة نسائية، رافعين الأحذية والشباشب عن بعد، أما عمرو

وزملاؤه الشباب البادى عليهم أنهم لا يصلحون لتربية دجاجات مستوردة
جراء ارتداء ملابس كنا نسخر ممن يلبسها ونسميهم الفئران، فقد أتوا من
ناحية القصر العيني، وغيرهم من رجال الحى والعجائز من ناحية عمر مكرم.
حصار أحكم عم رؤوف تنفيذه بلا ضوضاء أو صراخ. تحركات أيادى
حrchش وأصحابه، تحولت إلى إشارات قديسين لحظة تجلى الروح القدس.
سكينة حلت لتوها. عدل عم رؤوف من وضع عمامته فتوقف الآتون من
بولاق فى انتظار إشارة أخرى. بدا الرجل قائدا له من الحب والتقدير فى
نفوس أهله ما يجعل فى صمته قيمة، وفى إشاراته دلائل. لا أعرف كيف تحول
حrchش الوحش إلى أنثى هادئة بين أحضان عاشقها، وبدأ ينفذ طقوس
العشق بلا طلب ولا أمر. بسكينة تقى وحنان أنثى وورع زاهد راح يجمع
أشياء مقهاه وبالجمال يشد وثاقها وكأنه يغادر الميدان إلى الأبد. فيما كان عم
رؤوف قد أحاطه أهل بولاق كجنود عاشقة ومريدين ولهة. عند مغادرة
المغربين للميدان أشار القائد إلى مريديه، فأوقفوا حrchش الذى أتاه فزعا.
أمره عم رؤوف أن يكنس المكان ويعيد ترتيب أشيائه المبعثرة وترك مسجله
الخاص بديلا عما أفسده نتيجة التعدى. المشهد لا يحتمل غير ذلك التفسير،
فحrchش ينفذ بخضوع الهزيمة. كان لابد لى من المشاركة فى المعركة حتى ولو
انتهى القتال منذ زمن، علي أن أثبت وجودى وحضورى وإيهام المشاركين
بفعايلتى منذ بداية المعركة حتى بدأ الاحتفال، كنت قد تعلمت تلك
المناورة من إخوانى مع بدء الثورة الأولى. كنا نراقب عن بعد تلك الوجوه
والأجساد المتعبة وهى تقاتل من أجل الحياة. الآتون من قرى البؤس وأحياء

الشقاء محملين بحلم الوطن لحظة الانتصار. كان ضحيجنا يملأ الشاشات وصفحات الجرائد. نبكى الموتى ونساعد الجرحى ونقدم للمساكين خبز المسيح وزيت محمد وحبات السكر لتحلية المزار.

نزلت عن حديقة المنتصف في اتجاه المقهى وحسام يمد الخطى للحاق بى والسعادة لانتصار صديقه تدفعه للقفز عن الأرض بفرح الطفولة وجمالها فجأة أمسكى من يدي وهو يقفز ويطير في الهواء. توقفت فيما كان قد اعتدل ووقف أمامي، ثم ضرب جبهته بيده الرائعة حقاً، وقال: سامحني يا أستاذ "مونيكاً قالبة عليك الدنيا" كل يوم تسألني عنك.

لن أعبّر عن حالتي بالدهشة أو بالصدمة ولا بالخيبة الكاملة. حالتي في حاجة إلى ابن منظور كي يصنع لها توصيفاً جديداً في لسان العرب. أكانت تحمل طفلاً؟ أكانت بطنها منتفخة؟ أسئلة رحت أطرحها على حسام الذي لم يكن مهتماً إلا بانتصار عم رؤوف. أجاب مرة بالنفي وأخرى بالنفي أيضاً عندما حرك رأسه المهترئة عن اليمين وعن الشمال حتى توقفت رأسه في الوسط وسرنا إلى المقهى. بين شرودي وفرحة حسام، جلست قريباً من منصة إعداد المشروبات، دون أن أحيي أو أهني عم رؤوف الذي نظر إلى بقرف وطالبني بالانتقال إلى الركن القصي بمقهاه. شاب وفتاة أتيا إلى ذلك الركن وقدا التحية إليه بابتسامة ودودة، ثم جلسا على مقربة مني. فنادهما صاحب المقهى ورحب بهما في المستقر إلى جواره. غادرا الركن البعيد وجلسا على مقربة من منصة المشروبات وطلبا كوين من الشاي المعبأ في أكياس ورقية. أخذني حضور مونيكاً المفاجئ إلى وجه جدي بركات وعصاة

الجوسقى. كانا على حق فى كل ذلك الاستخفاف الملحق قسرا بذاتى. من يقودك إلى أين يا سعد؟ وهل حقا ستنجح بلا قائد لذاتك المضطربة؟ أخرجنى من تلك الأسئلة التافهة والمعادة والرتيبة صوت عم رؤوف الأمر لفتاتين أتيتا إلى مقاعد منصة المشروبات وجلسا دون تحية أو ابتسامة، مشيرا إليهما بالمغادرة والجلوس حيث أجلس. غريب أمر هذا الرجل الذى ينتقى من يجلس إلى جواره ومن يغادر للركن القصى، لكننى لست معنيا بذلك، سأسدد دينى القديم وأدفع ثمن الشاى الحاضر وأغادر مقهاه بلا عودة، فليس هناك مبرر لإقصائى المفاجئ والعبث فى وجهى ووجه رواد المقهى بهذه الوقاحة. ترى هل يتغير الناس إذا ما شعروا بالتفرد والامتلاك؟ مازلت فى وهم فلسفتى المنقوصة أضع الناس فى جداول للكفر وأخرى للإيمان وثالثة للوطنية ورابعة للخيانة. جداول فى مخيلتى المنقوصة بقرائى المنقوصة بوعى المنقوص استبقتنى الفتاتان وهما يناديان حسام: الحساب يا ريس.

جاء صوت رؤوف قويا خاليا من سكينته والهدوء: خذ منها ستة جنيهات يا حسام. بالطبع هو استغلال مصاحب للنصر الذى حققه للتو. تغير بمجرد الإحساس بالسيطرة. ظهر الجشع المتخفى فى كل المتأسلمين. تركت فكرة المغادرة كى أعود بحسام إلى مونيكا وكيف ظهرت فجأة، وأين أجد تلك اليهودية الماكرة؟ أمازالت فى شقتها أم...؟ قررت الانتظار على أية حال فلن أستطيع مصاحبة حسام، ولن يسمح لى رؤوف بذلك إلا بانهاء دوام العمل. الشاب الذى فى صحبة الفتاة يطلب دفع الحساب. تغير صوت

رؤوف وعاد لسكنته وكأنتى لقاء شخصين مختلفين فى ذات واحدة. قال: جنيهان. فارق لحظى بين ثمن كوبين من الشاى قدره أربعة جنيهاً. تناول الحساب وودعها بود ممزوج بابتسامة طيبة. ملل أصابى من تلك المشاهدات والانتظار، فناديت حساما متجاهلا وجود رؤوف: أين أجد مونيكا يا حسام؟ لم يلتفت ناحيتى وهو يقدم المشروبات للزبائن ويجيب فى الوقت ذاته: قالت هى من ستأتى إليك وإن تأخرت قليلا فلا تقلق. كان لا بد من المغادرة إلى الزمالك. حتما سأجدها هناك. لا بد وأن أقلق طالما قالت لا تقلق. اليهود أنجاس والمتأسلمون أنجاس. والعلمانيون أنجاس. وحدهم المسيحيون من يحملون رائحة "زنخة" نهضت حيث يقف رؤوف وطلبت دفع الحساب القديم والجديد. قال: كوبان شاى وكوب نعناع من قبل، حسابهم ثلاثة جنيهاً. وكوب شاى الآن ثمنه ثلاثة جنيهاً. نفحة عادة مازالت فى جيبي ولن أطلبه بتخفيض السعر، لكننى سأطلبه بتفسير عن سر تلك المفاضلة بين الزبائن حال الدفع وأيضاً أريد تفسيراً لثمن الكوب الذى يساوى مقدار ثلاثة أكواب. عاد رؤوف بهدوء وورصاته إلى عم رؤوف، حينما قال: البسمة ثمنها جنيه والتحية جنيه، فالكوب من دونها يساوى ثلاثة جنيهاً وبها يساوى جنيهاً واحداً، للبسمة والتحية والسلام حسابات أجيد تسجيلها فى كراسى هذا، ثم أشار إلى قلبه ككراس ومستودع للخصم والإضافة. عن يد صاغرة وبخزى المتحذلقين الراسبين فى اختبار شفاهى عن الحب دفعت الحساب ونهضت على أطراف أصابعى محاولاً الارتفاع إلى رأسه العالية مقارنة بطولى المتواضع، فأرخى يده اليمنى

على كنفى وراح يحركها على ظهرى أعلى وأسفل، كأنه يبعث الخدر فى جسد طفل يعده للنوم. ابتسامته كانت هادئة وعيناه صافيتان مثل النهر لحظة الغروب. غادرت إلى شقة مونيكا، فأدركنى البواب الذى غير حدثه تجاهى. قال: الست سافرت وتركت لك المفتاح معى. مد يده بالمفتاح فترددت للحظات وتذكرت النسخة التى ألقيتها فى النيل. من جديد تعاودنى الأسئلة التافهة. هل آخذ المفتاح وأكون من المبادرين، ولو انتهت حياتى بمأساة؟

المفتاح يا أستاذ. ينبهنى البواب بأن الأمر لا يحتاج إلى مساحة زمنية واسعة كي أقرر. يوما أخذت المفتاح ويوما فقدته بإرادتى، ثم نمت على عتبات شقتها فى الانتظار والآن فرصتك للوجود فى عقر دارها، تلك اليهودية القذرة شكرا يا عم. قلتها للبواب وأنا أغادر إلى مقهى الندوة. سأحجز غرفة فى الفندق المواجه للمقهى وأنتظر مجيئها. أتانى عاشور النادل "بالفنجان" السادة الذى اعتاد عادل دفع ثمنه. الشيء الوحيد الذى كنت أتحمّل تكلفته هو ثمن تلميع الحذاء عند عم عليان الذى أتانى فور الجلوس بمقهى الندوة. لم يكن حذاءى وحده المستحق للتنظيف، بل حياتى بأكملها فى حاجة إلى عم عليان النوم فى الشوارع واحتضان الأرضة لا يرحمان تقيا أو فاجرا. لم أرتض العمل بهزال الراتب والتسخير، فعلت ما فعله عبدالرحمن وغادة وجميعهم لكنهم أحلوا شهاداتهم دار البوار، وغادروا حيث المجد والمال إلا عادلا فما زال يشبهنى. انحنى عم عليان بوهنه وضعف يديه الهرميتين محاولا التقاط الحذاء، فجنبتة الفعل وانحنيت شفقة على الرجل المسن وناولته الحذاء كعاقى. راح

عم عليان يتسند إلى الحوائط حتى حل مقام صندوقه الخشبي وجلس مستندا بظهره إلى إحدى السيارات المجاورة للرصيف. أخذت رشفة من القهوة، ثم قذفتها في الهواء إثر ضحكة خرجت من تلقائها عندما نظرت إلى الحذاء المتآكل في يد العجوز. مريض يشفق على ميت، فلا المريض يفعل ولا الميت يشعر، رحت أشكو إلى عاشور الذي أتى لحظة تطاير القهوة من فمى فطالت من هم إلى جوارى، فأحدثوا ضجيجا، أسكنه ذلك الضجيج الآتى من ناحية ميدان عابدين. نهضنا جميعا عن المقاعد في انتظار رؤية المسيرة القادمة والتي وضحت شعاراتها مع الاقتراب من شارع الفلكى - الشعب يريد تطبيق شرع الله - هتاف لم يتغير منذ اقتراب المسيرة من المقهى. آلاف من الشباب يرتدون جلابيب بيضاء وعمائم أفغانية وحجازية ولحى منسدلة على الصدر، وكأنهم جميعا خرجوا للتو من شركة ميكروسوفت. لمحت عبدالرحمن المنياوى مرفوعا على أعناقهم. محاطا بالعناية من كيد الحاسدين. يتقدمهم حاملو الرايات الخضراء المكتوب عليها بخط الثلث "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ليس بينهم لافتة واحدة تحمل طائر العقاب. بيد أنهم أتوا من بلدان بعيدة وزمن بعيد برايات بعيدة عن راية الوطن.

الشعب يريد تطبيق شرع الله. بوهن كان عم عليان يردد باستنكار: وهل من مات قبل ذلك لم يكن بالشرع عاملا؟!!!

سمعه أحد الثائرين الشرعيين الذين تسربوا من المسيرة لشرب الماء فى المقهى، فقال يا شيخ: نريد تطبيق حدود الله. نرجم الزانى. تقطع يد

السارق نجلد السكير. الشعب يريد تطبيق شرع الله. انكفأ عم عليان على
حذائي ولم ينظر الثائر المتوجه، وقال بحسرة: شرع الله أن يسكن هذا
العجوز سرير الراحة في انتظار الموت مكرمة. لعن الله شرعا لا يرحم ضعف
المساكين نزلت دموع عم عليان فأبكى وأبكى المحيطين، فيما كان الثائر المتوجه
يغادر دون مبالاة وهو يرفع يده ويطوحها في الهواء ويصرخ: الشعب يريد..
كان يمد في خطاه كي يلحق بالركب والمسير، فتهتز مؤخرته المنبجعة كأثني
فقدت الأمل في النكاح. التقطت حذائي من يد عم عليان دون أن يكمله
وتبعت الثائر المؤمن المبادئ في مشيه بين ساقيه كطفل خرج لتوه من عملية
طهارة. رغم تلك المشهدية الموحية بالحياة والحياة، إلا أن خطواته كانت
حبوا من فرط السمينة المزمنة. بضع خطوات أخرى كي أسبقه، كنت خلفه
مباشرة، وهو يصرخ بلهات مريض: شرع الله. شرع الله. فجأة توقفت عن
المتابعة واتخذت طريقا آخر، حينما اختلط هتافه بصوت مندفع من مؤخرته
المرتعشه تبعه انبعاث كريحه ملاء الميدان.

- الشعب يريد تطبيق شرع الله. بدأ حسونه عمله على منصة تم إنشاؤها
بعناية ودقة وسرعة حاضرة. والمحشدون يرددون، الله أكبر. الله أكبر
صمويل بيكت في ميدان التحرير.. ياالله. المشهد أكثر عبثية من بيكت
وكافكا والراجلين والأتين من رحم الأقلام. عاود حسونة المشهد مع تغير
متقن للهتاف "الإسلام قادم يارجال. العلمانيون والليبراليون الأنجاس يريدون
هدم الإسلام. تعلقو تكبيرات الجماهير المتقدمة غلا ضد الراضين للحيء الله
المح عم رؤوف إلى جوار برميل ماء إعداد المشروبات يقلب كفيه دهشة أو

ربما حسرة، فيما كان ماء الوضوء يتساقط من مرفقية لحظة استعداده لصلاة العشاء التي أوشك أذانها على الارتفاع. اقتربت حتى جاورته، وما زال عبد الرحمن يهتف: نريد رئيسا مسلما يا رجال. صوت عم رؤوف يضيع وسط الهتافات والتكبيرات، وهو يهز رأسه المبتل ندما على شيء في نفسه فنال وجهي بعضا من ماء وضوئه المتطاير من فعل الاهتزاز، فتلقيته بردا وسلاما على روعي المثقلة بالأضداد. لم أدرك من كلماته سوى "الدين المهدد بالانقراض من قبل شخص أو أشخاص أو جماعات غير جدير بالاتباع فאלله غنى عن "الأنطاع" ثم ولى ناحية منصة المشروبات وبدأ فى تجميع المقاعد استعدادا للإغلاق. أتاه الشاب المتوهج العطش يطلب كوبا من الماء. فسأله بسخرية: هل أتى الإسلام أم مازال هاربا؟ بعته وتلقائية أيضا أجابه الشاب: لا يا شيخنا لم يأت بعد لكن الله سمين علينا برئيس مسلم وبعدها سيأتى الإسلام. أمسك عم رؤوف برميل الماء بكلتا يديه ودفعه بعنف حتى سال على الأرض، ثم قال للمتوهج بالشعارات: لا يصح أن تشرب من ماء الكفرة. انتظر حتى يأتى الإسلام. بدا الحزن على حسام الذى ارتضى عين حورس بديلا عن عينه المقتنصة. بخبرة وجوده فى الميدان خاف أن يحدث صداما لا ضرورة له. بهزال جسده المتهالك من أرصفة الشوارع توسط المسافة بين عم رؤوف والشاب الثائر الذى أدار جسده وراح يردد مع ارتعاشة مؤخرته: الشعب يريد تطبيق شرع الله، فيما كان حسام قد خلع حذائه وراح يمسح عنه الماء المتسرب من ثقب بنعليه والمآذن ترفع أذان العشاء وعم رؤوف يردد الله أعظم والعزة والدوام لك يا الله.

الزحام يعوق حركتنا في المرور والتدافع المصاحب للتكبيرات كاد يسقط حسام تحت النعال الغاضبة، فالتقطه عم رؤوف وحمله بين يديه، وهو يردد بفرح طفولي: الشعب يريد تطبيق شرع الله.

عند مدخل باب اللوق تركتهما مغادرا إلى الفندق. خلفي مباشرة أسمع صوتهما الساخر، وهما يرددان: الشعب يريد تطبيق شرع الله. ولأنهما لا يظهران إلا كطيف ويختفيان مثل جن لم أعر حضورهما اهتماما. الصوت يبدو واضحاً تلك المرة وعصاة الجوسقى تعبت في ظهري: ألم أقل لك أن دولة العيمان في حاجة إلى قائد من نور. التفت إليهما فإذا بجدي بركات يستند على ذراع الجوسقى. فاندفعت دون شعور مرتعيا في حضنها وقد دفنت رأسي في صدر جدي بركات الذي لامسها كما عجوز يرقى ملتبساً بالشياطين. أمسك ذقني بحضور دافء ورفع رأسي المنكس. لمحت ابتسامة شفقة في وجه العجوز الجوسقى لحظة ما كان يجذبني من مقدمة قميصي مباعدا بيني وبين دراجة بخارية مسعورة كادت تصدمني، ثم قال بجدية لا سخرية فيها، إما أن تمر إلى جوار تلك الحوائط وأشار بعصاته ناحية الرصيف، أو أن تمر في منتصف الطريق ولكل طريق مأمنه وخطره، فعليك الاختيار يا سعد. سعيدا كنت بلقائهما فقد افترقت حضورهما رغم أنني لم أجن من ورائهما خيرا. بالحاح طلبت أن يرافقاني إلى مقهى الندوة متشوقا إلى جميل مصاحبتها التي أشعر بها اللحظة. مد جدي بركات يده فتلقيتها مصافحا. قال: إذا أردت لقاءنا فنحن في الميدان ننتظر إرادة للشعب جديدة فالشعب يريد. الجملة أطلقها بركات والجوسقى في لحظة واحدة وكأنهما تدربا عليها بعناية، ثم التفتا معا

وتحركا معا ورددا معا: الشعب يريد. لكنهما لم يكملأ كعادتهما - إسقاط النظام - بيد أنهما محقان، فالشعار الآتى من الميدان - شرع الله - وكأنا شعبان يارادتين بمطبلين بجلمين، سار العجوزان فى محاذاة "مول البستان" حتى توقف جدى بركات والتفت، ثم نادانى ففرحت بذلك النداء، فرما غيرا رأيهما وقبلا دعوتى إلى المقهى. مسرعا كنت أمامه فيما كنت أشاهد الجوسقى وقد سبق خطوات، ثم سار فى منتصف الطريق، وهو يشد ويدب بعصاته على الأرض: ليس على الأعمى حرج توقفت السيارات المتعثرة بعوارض الطريق وأعلنت غضبها بصافرات تنبيه لاهثة فلم يعرها الأعمى اهتماما وظل بالمنتصف دون أن يتزحزح عن وجهته، فوليت عنه وجهى، وقلت: أمرك يا جدى. قال: مونىكا ليست آجنس فلا تلمها وأعد القراءة، فلها قلب كما لأكى وضمير كما لشيخ الحضرة ولم تخن إسرائيل، وإن قالوا خائنة، مثلها مثل: الخوافة لم يخن اليهود بل وفا مثقال ما فى القلب من حب. مونىكا تحبك يا سعد، فالحب لا يعرف جوزيف أو إيهود ولا يؤمن بدين حسونة. الحب هو الله فلا تنتظره فى طرق العوارض ومنصات الأغيار. مونىكا ستخونك إن خنت نفسك. من جديد يأخذنى جدى بركات إلى برابى أخميم. أستحضر ذا النون بين الخرائب يفك طلاسم الراحلين، فهززت رأسى موافقا لكلامه الذى لم أفهم ووليت وجهى إلى الفندق واستقبلا العجوزان طريقتهما إلى الميدان.

لا فيها سرر مرفوعة، ولا أكواب موضوعة، ولا تكييف للهواء، ولا مروحة فى السقف تحد من لهيب يوليو القائظ. محض سرير منفرد وحمام متهاك

وصراصير تداعب بلاطا قديما، وجسدا حل لتوه على السرير منهكا في غرفة بفندق للقطاع. أرخيت جسدى بعرض السرير الذى استقبل نصفى الأعلى واستقبل الفراغ فحذيت والأرض قديمي. لا نائم ولا مستيقظ. لا غائبا كنت ولا حاضرا. فقط متعب من فرط المشاهدة السفلية. أتذكر وصية جدى بركات باحتواء مونيكا التى هربت وعادت وسألت وللمفتاح أعطت وغابت وكرهت وأحبت وتجسست وتروحت. تعمية جديدة أدعو الله أن يرفع عنى إثم العماء نهضت إلى الحمام بعدما خلعت ملابسى. المرأة المشوشة استقبلتنى بالتهكم كنت أكره لحية حسونة الهاجئة، فرأيتنى أحمل واحدة أكثر هياجا وتشتتا دون أن أدرى. كنت أتطلع إلى لحية عم رؤوف المهذبة بإعجاب، فلم أكن مثله فى لحظة المرآتية. نصف لحيتى حسونة ونصفها جورج. فى المرة الأخيرة التى رافقتنى مونيكا حدثتنى عن لحية أيها الحاخام المخلوع والتى تشبه لحية جوزيف القذر. فتحت الدش واستقبلت المياه الباردة فى محاولة لدفع أحاديث اللحي عن رأسى المثقلة المشوشة. حاولت دفع الأفكار بالتفكير فى مونيكا التى لم تهرب بطفلى كما ظننت، لكن حسونه وجورج وجوزيف ووالد مونيكا يحاصروننى، فأطردهم للتو باستعادة محكمة عادة وحسونة. عانة عادة المشذبة والتى يعلوها وشم لفراشة زرقاء تثير رغبة آنية فى التقاء مونيكا كى أعاود شم جسدها الذى لم يكن له رائحة خناير تاجر النفايات. لن أسألها عما حدث. سأبدأ معها من جديد. سأكون أكثر فحولة من حسونة بين فراشات عادة.

صوت طرق متواصل على باب الغرفة وعاملة النظافة تنهني بعدم الإسراف في الماء. خرجت مبتلا فتركت قدمي آثارا على الأرض، كشفت عن تراب مزمّن في أرض الغرفة التي لم تقل اتساخا عن ملابس المنبعث منها روائح كريهة، ولم تعد تصلح للارتداء. لابد من غسلها وكما كي أستطيع...

ضحكات متواصلة أريكت جسد العاري، فاهتز الثعبان الذي تناولته مونيكا من قبل بحب ونهم، ولا أرى فيه إلا مرحاضا يثير الشفقة والغثيان. رحت أدور في الغرفة بذات الضحكات وأردد: لابد من غسلها وكما كي أستطيع كي أستطيع. أستطيع ماذا بالضبط؟! جلست على السرير وجذبت مخدة وبها وارىت سوء ذلك المسكين المتدلى كحبل غسيل في بيت مهجور، وانقلبت الضحكات التي حسبتها مزاحا منفردا مع ذاتي إلى سؤال وجودي، نعم "وجودي" هم يقولون ذلك في الكتب، وعلى واجهات مواقع التواصل الإلكتروني. ليس ممّا الآن الخوض في فلسفات ونظريات عقيمة. المهم غسل الملابس وكما ولأقول مثلا كي أستقبل مونيكا بمظهر يليق. ارتديتهم بما عليهم من عفونة خنازير تاجر النفايات، وما لهم من مكرمة ستر الجسد عن أعين الناس، ثم أخرجت حافظتي وعددت ما تبقى من نفحة غادة أو صدقتها. من جديد يعاودني التفكير النظري. صدقة تلك الأموال أم نفحة؟ قلت بصوت يشابه صوت جدى بركات: لعنك الله يا سعد. المهم أن المال بين يديك. خرجت لتوى إلى أرصفة شارع طلعت حرب واشترت جلبابا أبيض وشالا وصندلا يصلح لقيادة سيارة فاخرة وبعض من الملابس القطنية الداخلية وعدت بهم إلى الفندق. قبل دخولي

إلى الباب الرئيس سمعت شخيرا منتظما لجسد مغطى فى هذا الجو الحار
ببطانية شتوية مترهلة. يعتمد الرصيف سريرا وصندوق تلميع الأحذية للرأس
مسندا. عمى عليان، رحت أحسده على هذا البراح الذى يتجدد فيه وتلك
الشخرات التى توحى بعمق النوم، لكننى لست متيقنا بما يأتيه من كوايبس
عدمية أو أحلام سعيده كى أطيل عليه الحسد، فتركته إلى أحلامه
وكوايبسه، وذهبت إلى الفندق بأحلامى وكوايبسى. أدت المفتاح فى الباب
فلم يفتح، فكررت المحاولة فلم يفتح. حاولت دفعه بعنف زامنه صوت آت
من الداخل: من بالباب؟ ظننته صوتى، وأنى أتوهم وجودى داخل الحجرة
فأصطنع حوارا فعاودت المحاولة فعاودنى الصوت الذى ظننته ثانية صوتى
فتعمدت الانتباه والتركيز فأعدت المحاولة منتبها إلى الصوت الذى أعاد
السؤال وقد تيقنت تماما أنه صوت يأتى من الداخل وتيقنت بلا شك أنه
صوتى أيضا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. رحت أقرأ الفاتحة والزلزلة والكرسى،
وقشعريرة تملكت جسدى حتى كدت أغيب عن الوعي، فتماسكت قليلا
ونظرت إلى رقم الغرفة كى أتأكد من صحتها. الغرفة صحيحة لا لبس فيها ولا
تشبيه. لم يكن أمامى سوى الهروب إلى عامل الاستقبال، فوليت مسرعا
ناحية المصعد لحظة ما كان يأتى مسمعى صوت أنين الباب وصوتى ينادينى:
تعالى يا أستاذ سعد. سقطت من فزع المفاجأة أمام المصعد جالسا على
مقعدي مستندا بظهري إلى الحائط المواجه لباب المصعد. شعرت بسخونة
من تحتى ومن أمامى مما تفلت من خراء وبول. أمسكنى صوتى بيديه غير

متقزز من تلك الرائحة التي جاوزت الانبعاث الكريه من ذلك الشاب العطش المتوهج وحيدا أشعر بالخوف والغثيان. انقطاع التيار الكهربائي غير المعتاد في وسط البلد ألهب خوفي فأحاله فزعا مكتملا. العتمة والفرع والرائحة الكريهة ويدين باردتين وصوتي يأخذونني إلى ثعابين حسونة القرعاء. صرخت للصوت المتجسد في يدين ممسكتين بيدي وشبح واقف كالجان: أنا ابن النقاش فلا تعذبني. أنا حسونة فلا تفضحنى. أنا جورج وجوزيف وغادة فلا إلى النار تأخذنى. القبر مظلم وأنا مجرم وهم مجرمون. كلنا مجرمون يا ملاك الله أسألك الرحمة.

الهلاك لك يا سعد. أى ملاك أيها المعتوه!! اليوم جئتكم كي أهنئكم بأكتمال القراءة. كان سعد الذى تركته هناك هو المائل أمامى، الممسك بيدي لحظة عودة التيار بجلباب أبيض وعمامة من شال أبيض، ينتعل صندلا يصلح لقيادة سيارة فاخرة ويحمل لحية أجاد إكرامها تمشيطة. لقد علمت اليوم من سعد صاحب الدار ومن سعد المستأجر. مستسلما رافقته إلى الغرفة ومنها إلى الحمام. نفضت عنى آثار البول والخراء وعدت إليه سعد بجلباب وعمامة ولحية وصندل السيارة الفاخرة. كان جالسا على السرير، إلى جواره حقيبة أوراق صغيرة. سألته عن أمى والأستاذ يارو والقرية وأهلها. فلم أتلّق جوابا سوى البسمة. قال: جمع ملابسك المتسخة وأشعلها في أول مستودع للنفايات، ثم فتح الحقيبة وأخرج منها للسفر جوازا وشهادة جامعية بتقدير مقبول وناولني الأوراق ثم نهض واقفا. مد يده، فمددت يدي وتصافنا بلا

مودة ولا حميمة. ناولنى الأوراق، ثم قال وهو يشير ناحية الباب كى أغادر:
إلى اللقاء يا سعد المستأجر.

أنا المالك الميت ولا مالك غير الله حى. فكن بالله ولله وفى الله. الإسلام
قادم يا كفار العلمنة واللبلة العفنة. سأحكى لهم عن القردة الزانية ونكاح
الكافولة أستغفر الله العظيم. لقد أكملت قراءتك يا سعد فلا تخطئ بعد
اليوم. أحكى لهم عن جواز نكاح الأطفال. استشهد بزواج النبی من عائشة،
لكن إذا ما اعترضنى أحد الباحثين فى هذا الشأن وقال إن النبی صلى الله
عليه وسلم تزوج عائشة فى سن الثامنة عشرة من عمرها وأتى بأدلة وقرائن
مستندا إلى عمرها مقارنة بأختها أسماء. سأصمت لحظة على الشاشة وسأخذ
نفسا عميقا وأردد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. العلمانيون الكفرة
ينكرون صحيح البخارى. رحت أعد نفسى للخطابات التى تنتظرنى بعدما
تخلصت من سعد المستأجر وأجدت قراءة المشهد كما عادة وحسونة
وجورج. غادرت إلى ميدان التحرير مع اقتراب صلاة الظهر. لابد من
التحدث إلى حسام بعيدا عن عم رؤوف وأعين الجوسقى الأعمى وجدى
بركات. أحكمت الخطة تدبيرا ولو تمكن حسام من التنفيذ ستتغير ملامح
خارطتى. جلست بالقرب من حديقة المنتصف، مبتعدا عن جدى بركات
والجوسقى ومراقبا لمغادرة عم رؤوف إلى المسجد. منى اقتربت شابة باكية
يصاحبها شاب محزون توقفا أمامى. حاولت الفتاة جمع شتات كلماتها المترجعة
بنحيب أصيل وألقت على السلام، وقالت: يا عم الشيخ، طلقنى زوجى
هذا ثلاث طلاقات بائنة، ولديّ منه طفلة فى شهرها السادس. ما العمل؟

تنحيت جانباً وقد أفسحت لهما مساحة للجلوس، ورحت أنفحصهما جيداً حتى تبين لى حب مازال يجمعهما فسألتهما عن حالة كل طليقة كما كنت أشاهد مولانا عطية صقر فى حل القضايا الآتية عبر الشاشة. لكننى بكل تأكيد فى زمن حسونة بعد رحيل مولانا عطية بسنوات. فسميت وعلى النبى صليت ووجدت لهما مخرجا مناسباً وحجم الحب بينهما. غير مهمم بأنها طلقت ثلاث بائة. لن تتوقف الدنيا على فتوى بكل تأكيد، كما لم تتوقف من قبل على فتوى حسونة بكفر من يقول لا للإعلان الدستورى الذى أصدره العسكر. حسونة وضع الله فى صندوق بلاستيكي شفاف، وأنا أضع فتوى تافهة فى قلب رجل وامرأة. لا عليكما عودا إلى سرير حبكما، ولا إثم عليكما، ثم وجهت أمرى إلى الزوج قائلاً: لا تتعجل بعد الآن وأمسك لسانك عن الطلاق. نهض الرجل واقفا ثم انحنى على عمامتى وقبلها فيما كانت الزوجة التى تبدل حال مزاجها إلى سعادة، تدعو لى بالبركة والعمر المديد ثم رحلا فى طريقهما ويد الزوج الطائشة تحتك بمؤخرتها وهى تضحك. آذان الظهر يعلن مغادرة عم رؤوف إلى المسجد، وانشغال جدى بركات والجوسقى بالتيمن من تراب حديقة المنتصف استعدادا للصلاة. سرت فى طريقى إلى حسام منتهرا فرصة غياب أعين أحبته وانشغالهم الذى لن يدوم. مددت الخطى مسرعا إلى المقهى فاستوقفتنى عدد من الشباب الصغير، وطلبوا منى إمامتهم للصلاة. سبحان من يغير ولا يتغير. أموال عادة وجلباب قصير وعمامة أفغانية حجازية جعلت منى فتاة وإماما للجماعة. فليكن يا شباب، هذا ما أجبت به. كنت غير متوضى لكن لا يجوز أن

يخرج الإمام بلا وضوء ويكتشف الصغار تلك الصغائر، فاستقبلت القبلية وأعلنت مساواة الصفوف وعدم استباق الإمام أو موازته في القراءة والحركات. الله أكبر.

هى الفرصة من خلق الناس. لم أكن دبرت لها مسبقا. فقط ما دبرت هو خطى التي أرجو من حسام أن يحسن تنفيذها. لا أعرف من أحاطونى بدقة كم سلفى منهم وكم علمانى، حينما سألتى أحدهم من ترشح فى الانتخابات الرئاسية يا شيخنا؟ أدركت خطر الإجابة فاستدعيت لتوى أمير ميكافيللى ومطارحاته، وقلت: ربنا يولى من يصلح شأن الإسلام والمسلمين. وجود بعض الشباب المحيط بموضع الصلاة نهى على الفور بإمكان وجود مسيحيين بيننا، فقد اعتادوا منذ بدأ الثورة على إحاطة المسلمين تأمينا فى أثناء الصلاة، فاداركت: ويرعى مصالح إخواننا الأقباط فى مصر العزيزة فقد أوصانا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا. على الفور علا صوت المحيطين بترديد الصلاة على النبى. نهضت واقفا ورفعت يد التحية والسلام فسألنى بعضهم عن اسمى فقلت بتلقائية وبلا تفكير "أبو مالك الفقير" بالطبع لم أكن أعرف من مالك ولما الفقير فرما لأن الأول يحيلنا إلى الإمام مالك والأخير يجعلنا فى زمرة الفقراء والمساكين الذين يدخلون اللجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام واليوم عند ربك بخمسين ألف سنة مما نعد. رد الشباب التحية وصاحبنى بعضهم إلى حديقة المنتصف، فقد عاد عم رؤوف وانشغل حسام بتقديم المشروبات وانشغلت بإجابات مقتضبة عن أسئلة المرافقين دون بسمة أو ود أو حميمية كى لا أفسد هيبتي التى أعطونها عن

طيب خاطرهم. قبل اعتلاء رصيف الحديقة. رفعت يدي إلى المرفقين كي أتخلص من رفقتهم، ثم قلت: جزاكم الله خيرا يا شباب. هروب شرعى وطرده على كتاب الله وسنة نبيه خلاصانى بلا تخرج من ذلك التجمهر المباغت. قالوا: فى أمان الله يا شيخنا، نلقاك وصلاة العصر.

"شا الله ياست يا غادة. بركاتك يا عم يا تحرير". رحت أردد لحظة جلوسى إلى جوار جدى بركات الذى انتهى من صلاة الظهر، فيما كان الجوسقى يصلى السنة بحضور ناسك وتوحد عاشق ومتاهة واجد. لا أعرف سببا لتغير نظرات بركات الساخرة المشفقة على ذاتى وتحولها إلى مايشبه القرف والتقزز. أنهى الجوسقى صلاته بتسليم عن يساره، وقال مخاطبا جدى بركات: أشم رائحة خنازير تاجر النفايات محملة بخراء آدمى وبوله. هل حضر أبومالك الفقير يا بركات؟ صدمتى جاوزت حدود المعقول من ترديد إسم أبومالك الفقير. لكننى أجدت القراءة، ولن أذهب إلى غيبوبى المستدامة فقلت: نعم حضر أبومالك يا أعمى. لم أعد مهتما بتعميتكما ولن أسير فى طريق المهملين مثلكما. تغيرت نظرة بركات وعادت لنشأتها الساخرة المشفقة ثم دفع وجهه عنى وراح يحدث الجوسقى عن قول عجيذة لأبيه: لن أسير فى طريق الضعف مثلكم أنا من وهبكم الثروة والقوة فلن أعمل معكم ولن أترك ابنة عمى عبد المعبود. فقط آخذ نصيبا من ثروتي معلوما مع بدر كل شهر جديد. لم يكن شيخ الحضرة بالمضطرب وبه خلل لم يكن، فظل محتكما إلى عصاته وشال عمامته حول خصره يمارس رقصات أجادها، بلا خوف ولا حزن، فمثله لاخوف عليه ولا حزن. وحده وقف بثبات ذلك اليوم. لم يبد

خوفا ولا حزنا من ذلك الاحتراق الذى كاد أن يلتهم ثروته بأكملها. صراخ النساء وزعيق الرجال ينبئان بكارثة لتوها حلت. فتح النافذة الخلفية فرأى النيران تأكل زرائب الجمال والبقر. الشرر المتطاير بأزيز احتراق الدريس اليباس ينبئ بكارثة إذا ما طالت النار شونة المحلج. جمال محترقة مزقت باب الحظيرة وخرجت هائجة فى اتجاه المحلج، فترك شيخ الحضرة النار واستقبل الجمال المحترقة بطلقات من بندقيته ذات الروحين. نزلت مسرعا من سرايا المحلج فى اتجاه الشارع، فرأيت سبيرو يساعد العمال فى توصيل خراطيم الإطفاء إلى بيت جدك. أعاد بركات نظره ناحيتي، وقال: نعم نزلت من سرايا المحلج التى كنت أسكنها، وحملت مع من حمل الخراطيم حبا وكرامة للشيخ الذى أحب عجيزة فأحبته. كاد أماييت الوحش الأكل للأحشاء أن يلتهم جدك وعجيزة والقرية بأكملها لولا الحب لانتبهنا إلى سدوم ولظللنا فى ظلمات الأرض كالفراعين الملعونين نصرخ خوفا من أماييت. الحب دفع النسوة إلى حمل ماء الإطفاء من مراحيض الخراء على رؤوسهن، ودفعنى وسبيرو إلى بذل الروح مكرمة للشيخ الطيب. لعن الله إيهود وحسونة وجورج وغادة وأماييت الوحش والمجد كل المجد للآكلين من شجرة الجميز.

سِفْرُ الْخَوَاجَةِ

قَالَ يَا "لَاكِي" لَا تَتَسَّ دِفءَ الْفَطِيرِ وَمَذَاقِ الْجُبْنِ الْحَصِيرِ وَشُرْبَةَ مَنْ بَرِدَ
مَاءِ النِّيلِ. تَذَكَّرْ عَشْرَتَكَ وَمَحْفُوظَ بِذَرَّتِكَ. لَا تُبَدِّلْ عَقِيدَتَكَ مِنْ أَجْلِ رَبِّ
الشَّيَاطِينِ.

ضحكت لوز بصوت مسموع ضحكة واحدة، بعدما سمعتني أردد في خفوت
مقاطع من سفري الخاص والذي أسميته سفر الخواجة لأكى، بعدها وضعت
يدها على فمها محاولة كتم ضحكاتها وإرضاءً للقائد إيهود الذي نظرنا بغيظ من
أعلى تلك المنصة التي يجلس عليها في مدرج محاضرات القيادة. إلى جواره عم
يساكر حاخام محطة المشهَاد الوحيدة حين ذاك. لم تغفل لوز من استنكار
القادة الجالسين في الصفوف الأمامية التي كنا نجلس فيها، وأيضا لم تغفل
من محاولة شباب المجندين الجالسين في الصفوف الخلفية من محاولة
استطلاع صاحبة الضحكة الرقيقة، فأوقفهم إيهود بنظرة حادة من عينيه.
وحده عم يساكر لم يلتفت ولم يهتم. كانت رأسه مستندة على صدره الذي
استقبل فرش لحيته المشابهة للحية الشيخ أبوزهر تماما. عيناه مغمضتان
عن آخرهما مستسلما للنعاس. بينما كان إيهود القائد بنياشينه ورتبه العسكرية
قد أحاط وجهه بعبوس القديسين وحل في الوعظ والإرشاد محل يساكر
النائم. من سفر الخروج تلا علينا ما تيسر من عطش الرب للدماء ومن

التثنية راح يتلو: فإذا استَسَلَمْتَ وفتَحْتَ لَكُمْ أبوابها، فجميع سُكَّانِها يكونونَ لَكُمْ تَحْتَ الجزية ويخِدُمونَكُم.

من جديد رحت أتلو من سفر الخواجة ما تيسر لعقلي من إنتاج. فأمسكت لوزير الجالسة إلى جوارى فمها من جديد ويدها الأخرى راحت تقرصنى من فخذى كى أصمت ولا أعرضها لتوبيخ القائد، لكننى لم أستطع توقيف تلاوتى كلما نظرت إلى وجه إيهود الذى يمتعض من فرط التقوى، وهو يقرأ: وإن لم تُسألِكُم، بل حارَيتَكُم فحاصرَئُموها فأسَلَمَها الرَّبُّ إِلَهُكُم إلى أيديكم، فأضربوا كُلَّ ذَكَرٍ فيها بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ والأَطْفَالُ والبَهَائِمُ وجميع ما فى المدينة مِنْ غَنِيمةٍ، فأَعْتَمَوها لأنفُسِكُم وَتَمَتَّعُوا بِغَنِيمةِ أَعْدَائِكُم التى أعطاكمُ الرَّبُّ إِلَهُكُم.

عاودت التلاوة، لكننى لم أقرأ من سفر الخواجة. تذكرت خالتى حبيبة مقيمة أفراح القرية التى غادرتها إلى تل أبيب. فقرأت من فرحة عينيها وهى تدق الطبل بيدين أتقتنا منح السعادة للعروسين والأهلين "يا مقطع يا قيص النوم يا مهندس يا كومبليزون"، فأمسكتنى لوزير لتوها من مستور ذكورى وأطلقت ضحكها الرقيقة، التى أنهى خلالها القائد محاضرة الوعظ، فنهض الحاضرون وصفقوا لإيهود الذى لكز عمى يساكر فى جنبه، فانتفض واقفا وراح يصفق مع المصفقين. فى الطريق إلى غرفة القائد الذى منعنا من الانصراف، كانت لوزير تدفعنى كى أسبقها إلى الدخول فأتأخر وأمسكها من ذراعها وأدفعها إلى الأمام فى استخفاف منا وسخرية، فتعاود دفعى من جديد حتى توقفنا أمام الباب الذى فتحه مجند حارس، فتقدَّمْتُ وخلفى لوزير. كان إيهود خلف مكتبه وعلى عينيهِ نظارة القراءة يتابع من خلالها

بعض الأوراق مدعيا عدم الانتباه لمحيئنا. ظللنا واقفين حتى شاء أن يجلسنا، بعدما ترك الأوراق وأظهر برودا طبيعيا كنا نعرفه في شخصه. لم يبدئنا الحديث. فقط راح ينظر إلينا بنصف عين مغمضة وأخرى مفتوحة، ثم ضرب بعنف على المكتب وانتفض واقفا وهو ينهرني وحدي دون لويز التي كان يشتاقيها وهي تؤكد المحاولات: يمكنني قبول أى فعل مضطرب وسافل وقذر، إلا إهانة النص المقدس. هذا ليس تنبيها يا لايكى. هذا أمر يلزمك التنفيذ. حاولت تسويق موقفى، ولو بكلمات إرضاء فارغة، لكنه أشار إلينا أن ننصرف. موقف وضعتنى فيه لويز لم أشهد مثله منذ غادرت مصر إلى الوطن لثلاث عشرة سنة خلت. تدرجت خلاهم في الرتب حتى صرت "تات آوف" عميدا له سمعته الطيبة.

"إنشكيتى فى سوتك يا لويز" قلتها مقلدا طريقة خالتي خالدة إذا ما أرادت سباب إحدى خادמות بيت شيخ الحضرة بلا عنف أو إهانة. فمالت إلى أذنى ونحن بالممر المؤدى لباب الخروج وهمست بلهجتها المغربية القديمة: لا تأخذ فى بالك "راه غير راجل والمعيور ما غاديش يلصق به راه ماشى مرا ولد المزريا". توقفت لويز وأدارت وجهها ناحية مكتب إيهود وأنزلت ذراعها الأيمن وحازته بجانب جسدها وراحت تحرك إصبعها الأوسط فى اتجاه المكتب وتهمس وتلفتت كى لا يراها أو يسمعها أحد "دين موك" إيهود سكايرى، حشاش، خلواض". كنت أحب روح الدعابة فى شخص لويز كما أحببت روح الكآبة من قبل فى شخص سهيلة، لكننى لا أحب سب الدين أطلقت لويز العنان لرقاعة ضحكاتها بعدما تجاوزنا دار القيادة إلى شارع

الفيلات. وقالت: لا تحب سب الدين!! وماذا كنت تفعل بسفرك وقيص النوم و"مدندش يا كومبليزون" منذ دقائق. كنا قد وصلنا أمام فيلا القبلة كما يسميها الناس هنا أو كما يطلقون عليها مجنونة تل أبيب. فتوقفنا لحظة نداء القبلة علينا ودعوتنا للدخول إلى الحديقة. حاولت على عجل تصحيح فهمها بأن السخرية ليست من النصوص بل ممن يستخدم تلك النصوص بقدرة مثل محترف، فأدركني نداء القبلة فقلت ونحن نتجاوز باب الحديقة: النص مصون في الكتاب كما الجسد في الثياب، فعلى ألسن العهر يصبح دنسا كما طهر الجسد على سرير الرغبة يصير نجسا.

- مساء الخير سيدة ناتالى.

- مساء الخير لآكى. مساء الخير آنسة، تفضلا بالجلوس.

جلسنا على مقعدين منفصلين حول منضدة زجاجية منحت منتصف الحديقة الصغيرة منظرا جماليا، ربما لا تدركه العين إذا ما وقعت على سرير القبلة المتحرك على عجلات من الصلب، يستطيع بصعوبة حمل جسد ناتالى الذى جاوز ربع طن من اللحم المترهل. مفصل التقاء القدم مع الساق به سرداب غائر على هيئة دائرة عميقة فى لحم مريض. ذلك اللحم الذى كان يوما اشتاء القادة والمحظوظين. لم تكن ناتالى امرأة غنية كى تحصل على سكن فى حى الفيلات، لكن تعاطف القادة معها بعد المرض وتقديرا لجهودها فى خدمة الوطن منحوها تلك الفيلا الرائعة. كانت تسكن حيا فقيرا فى صحبة الشرفيين والمهمشين. بيد أن الرب يقطع من رزق العباد

مالا ويعوضهم عنه صحة وجالا. أدركت ناتالى الروسية الأصل والمنشأ قيمة جسدها فى مواجهة تلك العنصرية الغربية التى رأت دماء شعبنا المختار يتم تقسيمه إلى شرق وغرب، شمال وجنوب، وكأنا فى الجمعية الجغرافية للوطن، فأطلقت لجسدها العنان يوم أن التقت القائد عوفا فى حفل للأيتام. فى الثامنة عشرة كانت كذبنة شرسة وكأهولة شبة، فوافقت لتوها على دعوة الجنرال الذى يكبرها بثلاثين سنة ورافقته إلى ذلك الشاليه المنعزل على شاطئ البحر والذى أصبح مقر لقاءها أوقات راحة الجنرال. تغيرت ملامح حياة ناتالى بتلك العلاقة التى فتحت لها أبواب الصداقات مع القادة والصفوة. لم يكن عوفا يسمح لجسدها التقاء غيره ولأنها كانت تهابه حد الموت التزمت رغبته ولم تسلم جسدها الشهى مائدة الغرباء، لكنها أدركت بحس الأنثى أنها ستصبح يوم اكتفاء الجنرال من شهد رضاب جسدها كنفاية يجب التخلص منها. فراحت تبحث فى الأحياء الفقيرة على مثيلات يشبهنها فى الجمال وروعة مفاتن الأنوثة حتى استقرت فى وسط البلد وأنشأت مكتبها المتخصص فى ترفيه الجنود تحت مسمى شركة لارا للحفلات والمناسبات السعيدة. كانت لارا هى ستار حجب ناتالى عن غضب عوفا الذى لم يسمح لها بعمل خلاف راحته. حققت ناتالى من عملها ما يجعلها فى مأمن عن الفقر. وقد تأكدت من صدق غريزتها الأنثوية، حينما كانت فى أحضان الجنرال، وقد افترشا وسائد الراحة وسط الصلاة وفتح الباب كى يدخل إليهما هواء البحر فيبرد من سخونة اللقاء. من فمه راح عوفا يبلغ جسدها حتى توقف بلسانه عند مكمنها وخاض. لم تدرك لماذا رفع رأسه

فجأة وصرخ وبصق على جسدها الذى يشبه جسد أهولة الزانية. ومن أين أتاه هذا الماء الذى راح يمسحه عن وجهه بفزع مجنون وهو يصرخ ويبصق فى أثناء جريه ناحية المرحاض ويسب يا...

أكمل يا لأكى. فجأة استيقظت ناتالى من نومها التى ذهبت فيه منذ جلسنا وأمدت يديها كى نعدل من وضع جلستها، فساعدتها ولويز قدر استطاعتنا قالت: معذرة يا بنتى... فقلت: لويز اسمها لويز يا جميلة تل أيب. ابتسمت بسخرية ملأت وجهها فاهتز صدرها بأكملها. فاللهدان لا فاصل بينها وبين الكتفين والبطن. كتلة من لحم تنام معظم أوقاتها فى الحديقة. تنادى المارة من القادة وتسب الجنود. بعضهم تسميه الإسخريوطى وبعضهم سالومي وحدهم القادة لا تجرؤ على سبهم، فهم سر ثروتها التى أشاع القادة أنفسهم فيما بعد أنها ثروة أتت بمكرمة من الدولة، حتى يسترخوا فضائحهم عن آذان زوجاتهم وقياداتهم التى عاينت عن قرب أو بعد نساء ناتالى التى مالت على جانبها الأيسر قليلا، ثم أطلقت للرياح ريحا مسموعا، وقالت بسخرية: فيلة تل أيب اسمى فيلة تل أيب. رائع كما عهدتك يا لأكى ودود ومجامل. أعتذر منك يا لويز الجميلة، فالنوم يأخذنى رغما عنى ولا أستطيع النوم إلا جالسة عرفت من زيارتى المتكررة لها أنها تقوم بمقدمة لشرح حالتها المرضية كى تبرر خجل تفلتها الدائم. فقلت: لا عليك ناتالى فلويز ليست غريبة. تحول مرح لويز إلى كآبة من رؤيتها خائنة الجسد وما يخفى لنا الزمن. لاحظت ناتالى تغير مزاج لويز، فضحكت حتى اهتز السرير مع ارتعاشة جسدها كطبق من جيلى خرج لتوه من المبرد، وقالت: كان يتقيأ فى المرحاض

ويسبني "يا بنت الخنازير" ثم أثنى وفي يده سياط سوداني من ذيل خريت ونزل به على جسدی، وهو يسب ويصرخ: يا بنت الكلاب. كنت أصرخ ولا شفاعة لجسدي الذي افترشه عامين. أصرخ فيزيدي في تعذيبی. جرفني من شعری وألقى بي إلى الشاطئ عارية. تكورت في الظلمة حتى رأيته يغلق الباب ويغادر بسيارته المتوحشة. جريت خلفه حتى أمسكت بمؤخرتها فسقطت على وجهي في الرمال لحظة اندفاعه الجنوبي. غبار عاصفة الرمال التي خلفتها عجلات السيارة الخلفية ملأت جفوني وفي. لم يكن لديّ بديل غير الاحتماء بأقرب شاليه على الشاطئ. سرت بمحاذاة الماء أدعو الرب أن تتخطفني جنيات الإلياذة. لكن الرب كعاداته لا ينقذ إلا القادة والجنرالات وحدهم.

أردت مقاطعة ناتالي، بأن الرب ليس له علاقة بمآسينا التي نُحْمِلُها آهية مرة والشیطان مرات ومرات، فالرب برئ من شطننا هذا، لكنني أشفقت عليها تلك المرة، ففي كل لقاء يجمعنا كانت تقص جزءا من حكاياتها دون بادرة حزن لكنها اللحظة شقية بذكرياتها المحزنة، فتركها حتى اقتربت من أول شاليه في طريقها وعادت النوم فأكملُ للوزير، وطَرَقْتُ بابه نجلا وذلا حتى فتح لها عجوز في السبعين من عمره، ففزع من هيئتها حينما اقتربت أكثر، فحاول دفع الباب بما لديه من بقايا قوة، فأسندت يدها على الباب، فكان ذلك الاستناد كفيلا بدخولها لعدم قدرة العجوز على الدفع. استند الرجل على ذراع مقعد بالصالة وعليه اتكأ قبل أن تدركه ناتالي لحظة خيانة ساقيه المرتعشتين، وأجلسه على المقعد ذاته وهي تردد، لا تخف يا جدي

تعرضت لحادث اغتصاب. صوتها المحزون وذكر الحادث أدركا العجوز من الخوف فأشار ناحية الحمام وقال: ادخلى يا ابنتى البيت بيتك.

عادت ناتالى من نومها مرة أخرى، وهى تعدل ما تيسر لها من جنبها الأيسر وأطلقت ربحها المسموع من جديد. كانت لويز تمسح بعضا من دموعها خشية أن تزيد من ألم ناتالى التى لن ترى دموعها بأى حال من الأحوال إلا إذا ما تناولت نظارتها التى سقطت على لحمها. قالت بسخرية: نادانى ذلك المتهالك بابنتى، لكن بعدما خرجت من الحمام ورأيت أنه قد استبدل ملابسه بروب حريرى أحمر ووضع كأسين وزجاجة ويسكى فاخرة أنه سيغير صيغة البنوة للتو واللحظة. من جديد صدق حدس الأنتى بداخلى حينما طلب منى الجلوس ونادانى بصغيرتى. فالأنتى يا ابنتى تخطئ أى شىء إلا تقدير شهوة رجل. فللعينان بريق الذئب لحظة الاشتاء، وإن أقسم بالتوراة فى قدس الأقداس على طهره، فهو كاذب. لم يكن قائدا كى أمنحه جسدى، لكنه سترنى من خزى العرى، وليس معى مقابل ذلك المعروف إلا ذلك الجسد المتعب من أثر السياط. إلى جواره جلست وقد مد يده إلى بكأس غير ممتلئ، فطلبت منه المزيد. أريد سكرًا يفقدنى ذلك الغشيان المفاجئ من انبعاث فمه الكريه، ضحك مباعدة بين فكيه وكأنه يبذل مجهود عَدَاءٍ كى يفتح فمه، فبانت بقايا الأسنان المتآكلة السوداء بلون قار الأسفلت الجديد شربت كأسًا فكأسًا حتى شعرت برغبة فى خوض تجربة لم أعشها مع العجائز فاقتربت منه بصدري، ففتح عنق "البرنس" وراح يمرر يده على نهدي الأيسر. نزلت عن المقعد وتمددت على الأرض، فبدأ فى طقوس النزول التى

يفعلها العجائز في كل الأمكنة والأزمنة. مد ساقيه إلى آخرهما وراح يحرك مقعده يميناً ويساراً حتى صار على حافته، ثم هز مؤخرته فسقطت عن المقعد وظل ظهره مستنداً على الحافة. مددت يدي تحته وأسندته، فتمدد إلى جوارى. فتحت "البرنس" عن آخره وطلبت منه اللطف في حركاته كي لا تؤلمني جروح السياط. سألتني أي جروح أقصد. لم يكن يراها من فرط فعل الأيام بعينه. فقلت وأنا أضحك خيبة وسخرية من ذلك التحول المفاجئ في حياتي: أقصد جرح قلبي إن لم تضاجعني الآن. ضحكاته بدت كطفل الخراء لكنه لم يكن له ذلك الجمال، بل عته المنتكسين عمراً وتوحداً. بيده راح يداعبني حتى طال الوقت ولم يفعل. مددت يدي كي أتبينه وأتنبه، فأمسكت جلداً ميتاً لاروح فيه ولا حياة، فأعندلتُ جالساً وقلت: لننتهي الآن. أعطني أي ملابس كي أرحل. سمعته يبكي وقد دفن وجهه في وسادة إلى جواره قال: لا تتركيني يا صغيرتي وسأعطيك ما تريدين. رجل وحيد على مشارف الموت، لا ولد لي ولا وريث، كوني إلى جانبي ولك عني هذا البيت. تناولت كأساً ممتلئاً جديداً واستحسننت عرضه السخي، فتمددت من جديد وراح يداعبني بيدين لا أشعر بثقلها. اقترب من فمي وتناولته بلشته العارية إلا من بقايا أسنان محطمة. راحته كقبر مفتوح على جثة تحللت منذ أيام، فقبلته ثم أدت وجهي وبصقت إلى جانبي. عاد وتناولها وعدت فبصقت. أمسكت رأسه وأزحتها بعيداً عن فمي. وضعت شفتيه على حلمتي فراح يرضع فيها حتى سمعت شخير نومه. بهدوء وحذر كي لا أوقظه، سحبت

المخدة من خلفه ووضعتها إلى جوارى ورفعت رأسه عن صدرى فى محاولة لم تكتمل لوضعها على المخدة، فاستيقظ وبكى. حملته إلى صدرى ثانية وألقمته ثدى فهدأ. بدأ الشخير يعاوده فحاولت وضع الرأس عنى فعاود البكاء. صبت كأسا جديدا وأسندت ظهرى إلى مقعد جذبته ناحيتى. رحت فى سكرى حتى الصباح. أيقظنى ألم فى منتصف الظهر وحرقة فى حلمة صدرى الملتهم والتي لم يكن متعلقا بها لحظة يقطتى، كان مدا على الأرض نائما على بطنه. بينى وبينه آثار ماء مسكوب، أيقنت أنه بال فى ليلته دون أن يشعر اعتصرنى إحساس بالشفقة فشعرت برغبتي فى ملازمته حتى الوفاة القريبة مررت بيدي على مؤخرته العارية ورحت أحسسها بلطف كى يستيقظ. فتح عينيه بتثاقل وتثاءب. مد يده فأمسكنى من كتفى وهو ينهض. لم أشعر بألم جروح الباردة. بيد أن الخمر يسكن جراحنا ويسكننا فى عفن القبور يارادتنا رافقته حتى الحمام وأزلت عنه آثار البول والنعاس، وعدنا عاريين إلى لعبة الأمس. أضع يده حيث شئت ويضحك هو حيث شاء. أجلسته على المقعد وذهبت إلى طولة الطعام وأخذت من حولها مقعدا مرتفعا عما يجلس عليه وضعته فى المواجهة بيننا، ثم اعتليته وباعدت بين فخذى ودسست رأسه فيه مكث هادئا لا أشعر بفعله إلا كما نملة مرت على رقبتى وغادرت دون إيذاء فجأة وبقوة غير متوقعة سحب رأسه بعنف وهو يصرخ يابنت الكلاب. مال بجسده إلى الأمام وتقيأ، ثم عاد إلى الخلف وسبنى، لا أعرف من أين أتى كل ذلك الماء على وجهه؟! عاود القيء والصراخ، ثم أشار ناحية الباب وسبنى: اخرجى فورا يا ابنة الكلاب. مال مرة أخرى إلى

الأمام وقاء، ثم اعتدل بعنف وألم، فارتطم رأسه بالمقعد فهذا تماماً. دخلت إلى غرفة نومه كي أتصيد من ملابسه ما يؤمن خروجي إلى سكني القديم أو أن أتصل بلارا كي تساعدني. مفاجأة أدهشتني. لا لا مفاجأتان يا لوزير الجميلة، الثانية أن العجوز كان ساكناً على مقعده في خضوع ظننته فعل الزمن في الأجساد مررت إلى جواره فلم يشعر بمروري. عيناه مغمضتان وعلى جسده السلام زالت الرائحة الكريهة عن فمه حينما اقتربت منه كي أستشعر أنفاسه. هززه فلم يتحرك. أمسكت يده فلم يأتني نبض الحياة. رحل العجوز إلى يهوة نتيجة اصطدام رأسه بالمسند. لم أكن فزعة ولست خائفة، فالمفاجأة الأولى كانت تخصني أكثر من موته، فحتماً كلنا إلى زوال. الحمقى من يحزنون لموت الآخرين.

مثل دورة منتظمة طرحت ناتالي رأسها على لحمها ونامت قبل أن تفاجئنا بمفاجئتها الأولى والتي كنت أعرفها جملة وتفصيلاً. من باب الحديقة دخل شاب وفتاة يختصنان بعضهما. بهما فوار الاشتياق لسرير يضمهما. توقفا أمام سرير ناتالي دون أن يلقياً إلينا تحية أو ابتسامة ود. نادى الشاب ناتالي ففتحت عينيها بثقل المرض وأشارت لهما ناحية باب الدخول، ثم غطت في نومها. نهضت ولوزير التي ناشدتنى الجلوس فلم أفعّل. لا يصح أن يجلس قائدان في أثناء إيجار الفيلا للدعارة، فقد اعتادت ناتالي بعض تصفية شركتها وضمور مالها المستودع في البنك على تأجير غرف الفيلا للمشتاقين بلا مأوى. لازمتني لوزير إلى شقتي. طرحت عنها ملابس العسكر وثقل الرتب المعدنية ودخلت إلى المطبخ ودخلت أنا إلى غرفتي كي أستبدل

ملا بسى أيضا. كان صوتها الندى يأخذنى إلى حلقة أذكار شيخ الحضرة وهو ينادى ومن معه: يا الله يا الله. تسألنى عما أريد تناوله على الغداء. فقلت كما خالتى خالدة: رجلة بالضانى. أطلقت ضحكاتها المرحية، وهى تسبى دعاة: ضربك العدو فى رجلك يا لأكى. خرجت من الحجرة إلى الصلاة ثم جلسْتُ خلف طاولة الطعام. أسندتُ رأسى بكتلى يدي. عجيزة أصبح فى سن التجنيد ومقدمات وعظ عوفا يبنى بحرب قريبة. خرجت لوزير من المطبخ تحمل أطباق الطعام التى وضعتها أمامى وسألتنى عما أصابنى وما دفعنى لتغير حالتى المزاجية. رفعتُ إليها عيني دون أن أرفع رأسى المستندة بين يدي وقلت: من هم الأعداء يا لوزير؟ إلى جوارى جلست وذهبنا فى صمت طويل. لوزير مغربية وأنا بولندى مصرى وناأتلى روسية وعوفا لم نعرف له وطننا والجنرال كوبرك اختفى إلى الأبد بعد مذبة شارك فيها بحرم الأقصى وبعدها صرح باعتزاله الحياة العسكرية، وذهب فى هجوم مبرر وغير مبرر على قيادات ورجال دين بعينهم، فاختنى فجأة وإلى الأبد. لم يعرف أحد مذهبة إلا أنا وناأتلى وحدنا من عرف سجنه الإرادى وربما سجنه الجبرى الذى فرضته عليه القيادة، وقالت مكreme. ترى هل نصنع الأعداء من أجل عوفا ويساكر النائم الحقير؟ نهضت لوزير وقبلتنى من رأسى وقالت فى محاولة لإقصائى عن الحزن: مابك يا لأكى؟ قلت ولدى يا لوزير حتما سألتقيه على خط نار مصطنع بفعل خنازير تاجر نفايات السياسة والمعابد الحربة أفنقد عجيزة يا صديقتى.

مدينة.. مدينة.. الشيخ بالمصحف والقس بالصليب، خلفها يترنخ الشعب بين مدينة وعسكرية وإسلامية، وأنا دهش من الصدمة. جدى بركات يهودى وخالى عجيزة كافر ابن كافر، والجوسقى ييكى لبكاء بركات ومازلت أنتظر حسام كى يأتينى بخبر نجاح المهمة وعادل يسب الدين لايملى ويطلب مساعدتى بعدما عاد بها من الأقصر حاملا منتفخة والربيع العربى فى طريقه للضياع، ومازلت أشتاق مضاجعة مونيكا.

هنا الميدان. قالها القس المرابط فوق المنصة المستديرة فى الوسط، رافعا صليبه لأعلى والشيخ إلى جواره بالمصحف فى يده. بالضبط لم أكن أعرف وظيفة المصحف والصليب وعلاقتها بالمدينة والميدان، فترك الحديقة التى كنت أنتظر فيها عودة حسام، واقتربت من المنصة. للتو تبينت سر الصليب المرفوع حينما رأيت أبونا جورج هو القائد لمسيرة المؤمنين. كنت قد أتممت بالشباب صلاتي العصر والمغرب وتفرغت لإتمام ما رتبت له بمجرد عودة حسام. كان جورج يخاطبنا بهدوء من حلت به الروح القدس لتوها، التقت عيناه بعينى، فأشار بصليبه محميا، فانتبه بعض الشباب لوجودى فحملونى توا على أعناقهم، وهم يرددون أبومالك الفقير. أبو مالك الفقير، كتنبيه لمنظم الحفل على ضرورة وجودى على المنصة. التقانى جورج بمجرد استقامتى عليها، وعانقنى بحبة صديقين قديمين ومهارة عادة فى مشاهدتها الساخنة ثم همس فى أذنى: منذ متى وأنت أبومالك يا ابن اللعيب؟ رددت: بعدما أصبحت أبانا وعبدالرحمن أصبح حسونة يا ابن الكلب. ابتسم جورج وهو ينفذ عنا الاحتضان، ثم عاود ثباته الانفعالى باحتراف، وقال

موجهها كلامه للجمهور: الكلمة الآن لمولانا أبومالك الفقير ونعرفه جميعا بعلمه وورعه وتقواه. بالتأكيد أراد ابن الملاعين توريطي بذكر العلم والمعرفة. أعرف أنه لا يعرفني سوى بعض الشباب الصغير. أعداد تكاد لا تذكر موازنة بهذا الحشد الكبير. فتناولت الميكروفون وبالله سميت. فوجئت بتكبيرات ملأت الميدان قبل أن أتكلم. الدهشة دفعتني إلى محاولة تصنيف الحاضرين، هل هم من دعاة الدولة المدنية حقاً؟! وإن كانوا كذلك، فلما استبقوا التكبير والهتاف قبل أن أتحدث أليسوا دعاة إعمال العقل؟! ربما التبس الأمر عليّ وسمعت شعار دينية دينية وفسرته خطأ. مدينة مدينة، وإن كان كذلك، وهم دعاة إعمال النقل، فلم رحبوا بجورج كل هذا الترحيب؟! أرى سلمى ابنة خالي حاضرة أمامي تلاعبني بالضوء والظل وخداع الحواس. لكنني جورج في جنبي منها بضرورة البدء في الكلمة. فوضعت كلمة من القرآن على ثانية من البخاري واثنان من نيتشه وثلاثا من متي وأرضيت جميع الأدواق ونزلت محمولا على الأعناق. بدأنا مسيرة طافت قلب الميدان، فرأيت حسام يشير إلى وسط الزحام وفي يده إسطوانة مدمجة رفعها إلى أعلى وراح يقفز معها فرحا كي يخبرني بنجاح المهمة. سعادتي بإنجاز نصف المهمة ليس لها وصف دقيق، لكن يبدو أنها ليلة سعدى الحقيقي لحظة أن رأيت مونيكا بين الشوار. كدت أسقط من أعلى الأكتاف المتناحرة على حملي، فأعدت توازني بسرعة. رحت أشير إلى حسام وأحرك سبابتي ناحية مونيكا كي يدركها فرأيتهم جميعا يحركون أصابعهم في ذات الاتجاه وبنفس الطريقة ومازالوا يرددون مدينة. فهزرت رأسي إليه، أن أدركها قبل الضياع وسط الزحام

فأنزلوا أيديهم وحركوا رؤوسهم في ذات الناحية. ألمح مسيرة قادمة من بعيد خرجت من مبتدى باب اللوق، يتقدما الشاب المهتر العطش، في أيديهم عصي وسكاكين وهم يرددون: إسلامية. إسلامية.

التقت المسيرتان، فسقطت عن الأعناق، فالتفتني المهتر بين يديه بعافية ثور في ساقية صدئة. تنحى بى بعيدا عن الصدام، واستقر بجسدى عند مقهى عم رؤوف، ثم طلب منه بعضا من الماء كي يضعه على وجهى بهدوء أمسك عم رؤوف بالبرميل بكتنا يديه ودفعه أرضا، فسال الماء، بينما كان حسام يقفز في الهواء بعيدا كي لا ينفذ الماء من نعليه المتهتكين تجاوزنا عم رؤوف إلى منصة عمل المشروبات وراح يجمع المقاعد استعدادا للإغلاق. رأيته على غير عادته غاضبا وهو يمسك حسام من أذنه معنفا له على الغياب. التراشق بين المسيرتين علا ودنا حتى سمعت صوت صافرات الإسعاف تنبئ عن قتلى وجرحى، بينما كانت أذنى الأخرى وعيناي تتابعان حسام خوفا من ضبط عم رؤوف للإسطوانة، لكنه طمأننى حينما نظر خلصة إلى ثيابه في إشارة مأكرة إلى الاحتفاظ بها تحت طيات الملابس، فهذأت نفسى. مازال الشاب إلى جوارى لا يرغب فى المغادرة حتى يطمئن عليّ فمر بنا عم رؤوف وقد حمل حسام فوق كتفيه كي يتجاوز به الصراع والخطر، ثم توقف أمامنا وقال وهو يشير ناحية برميل الماء: لا متعلمين ولا متأسلمين ولا متمسحين ولا أنت، فى إشارة إليّ وكأنتى فصيل مستقل، يشرب من مائى هذا، وحدهم المصريون من لهم الحق، ثم فى طريقه ذهب، وذهبت برفقة الشاب إلى شارع محمد محمود، فقد أصر على مرافقتى حتى

غرفة النوم. تعارفنا خلال الرحلة من الشارع إلى الفندق. هو حاصل على شهادة إتمام الدراسات الصناعية منذ أربع سنوات. التحق بالجامعة منذ التخرج. يريد تطبيق شرع الله. هذا كل ما حصلت عليه قبل أن يتوقف أمام جرافتي الذئب الذى رسمه عادل قبل نجاح جدارية راموزا وضياع عين حسام. ذئبان شرسان على جدار مكتبة الجامعة الأمريكية القديمة، كل واحد منها يفتح فمه عن آخره وكأنه يرغب فى التهام العالم وخلف كل ذئب منها ذئاب. ضحك باستخفاف من مشاهد الذئاب، ثم قال: العلمانيون يريدونها دعارة ياعم الشيخ، فهزرت رأسى بالإيجاب وأكملنا المسير. بدا هادئا. مخجولا طيبا. به مس من شهامة مخبأ تحت الانفعال المتغير السريع، ظننته وهو متقدم المسيرة ويده تلك العصا المرعبة وحشا، وبملازمته دقائق تبينت أنه فقط غبى طيب شهيم. عن الإسلام والإيمان والرحمة راح يسألنى وأنا أجيب بما تيسر من ماركس، فدمعت عيناه. حينما اقتربنا من باب الفندق اعترضنا شاب عقد شعره من الخلف على هيئة ذيل حصان، وقال: خربتكم مصر خرب الله قلوبكم. تحول المهتز فى لحظة إلى ذئاب عادل مجمعة وكشر عن أنيابه، ثم أطاح بمنتصف رأس الشاب بعصاته وولى هاربا. تركنى وأخذ مس شهامته، فوقفت حائرا بين إدراك الإسعاف واتهامى بضربه إن كان حيا أو قتله إن كان قد فارق. دخلت من باب الفندق متوازنا بلا ضجيج فى محاولة لإبداء الأمر طبيعيا حتى لا يشعر عامل الاستقبال النائم دوما فى ذلك التوقيت. حاولت قدر المستطاع تكيم وقع خطواتى المنتظمة ومررت دون النظر ناحية مكتب الاستقبال. تجاوزت خطوة واحدة قبل

أن ينهض العامل اليقظ وكأنه تعمد انتظار عودتي وناداني باحترام شديد: مولانا أبوالمالك. حتى العامل الذى دون بيانات بطاقة الهوية بسجلات الفندق وباسم سعد ينادينى بأبى مالك. التفت ناحيته وقد خرج عن مكتبه ووقف أمامى بأدب شديد، مثل لص محتجز بغرفة رئيس مباحث الشعبة ورجانى أن أتناول معه مشروباً من اللبن الدافئ. فاستجبت لتوى رغم أننى لا أحب اللبن، لكنه سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وإن رفضت المشروب أكون قد خالفت، وربما يسجل الأعداء المنتظرون مثل تلك الوقائع لاستغلالها ضدى مستقبلاً. جلسنا فى صالة الاستقبال والعامل لا يصدق أن نجم الليلة عبر عدد من الفضائيات التى نقلت فعاليات التظاهر يجالسه دون حاجز من أثير. عن بعد بدأ يسألنى كما كنت أسأل عم رؤوف عن مونيكا بلا مباشرة أو وضوح، عن القدر المسموح به للزوج كي يلج فيه دبر زوجته وعن المعاشرة فى أثناء الحيض بالعزل أو من دونه. وأنا أجب بتجهم يعشقه الجمهور فى حالتنا القدسية أخرجنا من الحديث الزيارة المفاجئة لصاحب الفندق الذى سلم على بحميمة وجلس بيننا. نهض العامل تأدباً مع صاحب العمل، واتجه ناحية المكتب فطلب منه المالك مشاركته، ثم أطلق سؤاله الحاضر ناحيتى: أفتنا يا شيخ ماذا لو فسدت السياحة فى بلادنا وحل الخراب على المؤسسات مثل فندقى هذا، أيجوز الاستغناء عن بعض العمالة؟ تحرك العامل مسرعاً خطوتين حتى أصبح خلف المالك ونظرنى ببؤس فهمت منه أن يريد إجابة بالنفي فسقطت لتوى بين إرضاء هذا وإيجاب ذاك. فأجبت بالقطع يجوز ولا إثم عليك، لكن إن لم تفعل

فسيبدلك الله خيرا من خسائك. لم أعرف بالتحديد أى إجراء اتخذه المالك بعد ذلك، فقد انشغلنا جميعا بتلك الجثة التى التف حولها الناس بضجيج يناسب حجم مصيبة القتل غيلة. فخرجنا من الاستقبال إلى الشارع، والتفتنا حول الشاب ذي ذيل الحصان وقد تبرع بعض الواقفين بخلع ملابسه لتغطية الجسد المسجى على الرصيف. أحسست بيد فوق كتفي فأحلت إليها رأسى فإذا بعادل يسحبني بعيدا عن الزحام. وقفنا أمام باب الندوة المغلق وأمامنا عم عليان يغط في نومه على الرصيف المواجه دون شعور بالضجيج أو النعال المتحركة إلى جواره. مازال عادل متوترا كما كان فى المكلمة الأخيرة بيننا والتى أخبرنى خلالها بحمل إيملى وإصرارها على عدم إجهاض الجنين. طالبنى بمغادرة الفندق والتوجه معه إلى السكن لإقناعها بالإجهاض وإلا قتلها فورا، أعرف بتأكيد لا شك فيه أن عادل لا يقتل. عادل فقط يرسم. فرشاته لا تحمل للموت طعما، بل الحياة اشتياقا لكننى مضطر للذهاب معه، هو من تبقى من مجموعة الشوارع الحجرية صافيا كالنبع محبا مثل إيزيس. يحمل فى ريشته وجع الفقراء وحلم الموحوعين. كنت وهو، فصرت أبومالك الفقير ولم يتبق سواه فى جماعتنا الحجرية. يحمل فرشاته وصندوق الألوان تصاحبه إيملى أينما حل بالجدران فى شوارع الميدان الخلفية وحوائط القرى والمدائن التى ارتحل إليها بحلم اللون فى رسم وطن للجميع. لست بحاجة للعودة إلى الفندق كى أغادر فى صحبة عادل، فالحساب مدفوع مقدما وليس لى متعلقات بالغرفة. فقط مازال المفتاح فى جيبى، فتطوع عادل بإعادته إلى عامل الاستقبال الواقف بين حشود مراقبة القتل. مررنا

من شارع هدى شعراوى إلى طلعت حرب. عند الناصية توقف عادل واستدار ناحية مشرب ستيللا. فتجاوزت الشارع إلى الرصيف الآخر فى انتظار عودته. بدا الميدان من بعيد هادئاً والشوارع كثيفة حد الموت. من ناحية تقاطع طلعت حرب مع قصر النيل، خرجت دراجة بخارية لاهثة رغم التحذيرات الحمراء لإشارة المرور. عليها ثلاثة ملثمين. يحمل اثنان منها بنادق آلية، والسائق يميل بها يميناً ويساراً فى استعراض جنونى للتحكم. كان عادل قد خرج من المشرب وفى يده كيس أسود يجذب زجاجات البيرة عن الأعين النائمة. اقتربت الدراجة منه فى أثناء تجاوز الشارع، فدفعه أحد الملثمين بعنف، فسقط أرضاً وتناثرت الزجاجات بين سليمة ومطملة جريت ناحيته بلهفة وخوف، فيما كانت الدراجة تجرى فى اتجاه الإشارة ظننتهم يغادرون من فرط السرعة المذهلة، لكن السائق أمسك الفرامل الصارخة واستدار بالماكينة بحركة دائرية كاملة، أعادته ناحية الإشارة فتبعها بحركة نصف دائرية وأشعل الوقود فيها حتى توقف إلى جوارنا فى سرعة خاطفة. نزل الشابان وراحا يضربان عادل بموخرة البنادق، حتى تفجر الدم من رأسه. تركبها وابتعدت حتى ينتهيا من فعلها غير المفسر إلا بالسرقة مد أحدهما يده إلى جيوب عادل وأخرج ما فيهم. بدأت أتحرك ناحيتهما فور انتهاءهما من السرقة، لكنهما لم ينتهيا بعد. راحا يركلانه بعنف وعادل لا يحرك ساكناً، فابتعدت ثانية ومازال قائد الدراجة فى جنون استعراضه يجرى فى مسار مستقيم يتبعه بحركات دائرية. خرج بعض السكارى من ستيللا

وتوقفوا أمام الباب للمشاهدة دون بادرة على الوجوه العدمية بالتحرك
لإنقاذه صرخت فيهم: أدركونا.

بيد أن قليلا من الخمر يضيف علينا بعض البلادة. وليذهب الإنسان إلى
الجحيم. هذه إرادتهم لا إرادة ابن الإنسان. قالت الممرضة البدينة التي
استقبلتني من قبل في مشفى القصر العيني، وهي ترمم جروح عادل. لم
تكتف بسب القديسين ونصوصهم رغم أنها تلبس صليبا في عنقها بحجم
طلقات الخرطوش التي ملأت الميدان منذ الاشتعال. سببت الثورة
والعسكر والجماعات والثوار والنظام المخلوع. سببتني وعادل الساكن في فراش
الجرح وسببت نفسها وهي تضرب على صدرها كلطم مفجوع على الحدود
الحزينة خرجت وهي تسب وعادت وهي تسب وفي يدها كيس من عصير
التفاح اشتترته بمالها. رفعت رأس عادل وأسندتها على صدرها. راحت تسقيه
التفاح وفي عينيها أثر من دموع. ليتني ما قصصت عليها الحكاية. وما أتيت
بعادل إلى هنا. بيد أنها من طينة هؤلاء الآتون من قرى الوجد إلى حلم
الوطن وربطوا في الميدان بلا ضجيج أو نفاق. طلبت منها المغادرة بعد
اطمئنانى على عادل. نظرت في وجهي ومكثت غير بعيد، ثم قالت: بيد أنى
أعرفك.

قلت: نعم. التقينا منذ شهور.

هزت رأسها وكأنها تردد، ومن فعل بك هذا؟! في إشارة إلى تغير هيئتي
أسندت عادل وسرنا للمغادرة، فطلبت منى الانتظار قليلا. اختفت

لدقائق معدودات، ثم أتت وفي يدها حافظة أوراق بلاستيكية، ناولتني إياها. سألتها دهشا عما أعطتني، فأجابت التقرير الذى وقعته أيام الثورة. كنت قد نسيتته فى الشوارع الحجرية وتلقيت ألف إصابة فى الروح منذ المغادرة، لكننى مضطر إلى قبوله طالما يخصنى وحدى. شكرتها وغادرنا. كانت إيملى فى الصلاة المعتمة إلا من شموع بيضاء تبعث فى المكان بصيصا من نور تجلس على بلاط متآكل وأمامها أحجار سود وحرر متشابهات ومشعل من النار يفوح ببخور كريم. لا يظهر من جسدها سوى ظهرها المعتم من جلوسها خلف الشموع. لم تشعر بدخولنا وهى تمارس طقوس عبادتها. أرحت عادل على كنبه وحيدة وسط الظلام الآتى نتيجة حجب الجسم للضوء، فتذكرت لعبة سلمى. بحثت عن موضع الكهرباء، حتى إذ أتيتته وأترت المصباح وجدتها تنتفض واقفة وهى تصرخ وتضع يديها على أذنيها وتحنى رأسها بألم وكأن صاعقة من السماء اشتعلت فى جسدها العارى تماما. فى الظلمة لم أتبين عريها وما تبينته أيضا من أثر الذعر الذى شملنى من فرط صراخها وحركاتها الجنونية. أمسكتها من كنفها وعنفتها على ذلك الفرع غير المبرر التفتت ناحيتى ورفعت يديها عن أذنيها ورأسها عن الانحناء، فأصابها وابل من جزع لرؤية ضادات جسد عادل. انحنى عليه ثم نظرت ناحيتى وذهبت إلى أسئلة اعتيادية، وإجابات مبتورة حتى انتهت بأن الأطباء سمحوا لنا بالمغادرة. هدأت إيملى قليلا وعليه مالت وقبلته من جبينه. بدت مؤخرتها وهى مائلة مثل برتقالة شهية تزينها سلسلة ذهبية حول منتصفها. فقرات ظهرها مثل بلورات ثلج على فراء دب قطبي. ساقان متزانان. عنق

كريم. شعر معقوص ومرفوع بمشبك إلى مؤخرة الرأس. رفعت قبلتها عن جبين عادل فالتقت عيناها بشديين عاريين، فأراحت البصر إلى أسفل فتأكدت من عريها استدارت بنجل وهي تضع يديها على موضعها فاخرقت السلسلة الذهبية المتدلية على عاتها عيني اللتين أرخيت رموشها دون إغلاق. استدارة بطنها المرتفعة قليلا تشى بصدق عادل. ملمت كتفها وضمتها قدر المستطاع في محاولة بائسة للتستر وهي تغادر إلى غرفة النوم. جلست إلى جوار شموعها المشتعلة وموقد نار البخور والأحجار الملونة، وفتحت ملف الأوراق ورحت أتصفحه.

مصাব ثورة. تقرير عن حالتى وإثبات حكومى بمشاركتى حلم النائمين تحت شرفات الانتظار. أغلقت الملف مع خروج إيملى وقد سترت جسدها الذى رسمته بالطبشور على جدار مخيلتى رغم دناءة فعل الصديق مع صديقه لكننى كنت أكثر شرفا من قاييل ولم أقتله. فالأنثى محراك شر ذواتنا الهرمة جلست إيملى على حافة الكنبة وراحت تمرر أصابعها بهدوء على وجهه. فى عيناها صدق العاشقين، وفى وجهها قلق الصادقين. ليس هناك ما ينفى إيمانها بقلب يحمل ريشة ماعت ويدور به الشوارع والأزقة والميادين. خطيئتى أنت يا إيملى، قالها عادل وهو يتسم فى وجهها. دمعت إيملى وأجهشت فرغ يمينه بألم وراح يمسح عنها الوجد. منذ ساعات كان يهدد بقتلها وفى اللحظة يقتله الحنين. صدق من قال وفى أنفسكم!! ياالله توحشتك كثيرا. هل كنت مخطئا يوم أن سعيت إلى سعد فى الفندق وطلبت منه المغادرة لكونه المزيف؟ بيد أن العالم محمول على الزيف. أستأذنكم للانصراف. ابتسم

عادل بسخرية تحمل من الدعابة ما لا تحمله من الاستهزاء، ثم قال ولما جئت إذا؟ تذكرت أنتى ما جئت لمرافقة مصاب، بل أتيت لإنقاذ فرشاته التى خطت طفلا فى رحم إيمىلى ثم هربت من خطيئتها إلى الكآبة والهوس فجلستُ بجوار الشموع، وتحدثت إليها بطريقتى إلى عم رؤوف، وبأسلوب عامل الاستقبال إلى فَادْرَكْتُ بغريزة الأمومة المنتظرة وقبل أن يصل الكلام لمخطته الأخيرة وقالت: يمكننى أن أجهض نفسى الآن ويمكننى أن أحمل بطفل بعد أيام ممن أريد، لكننى أريد هذا من هذا. أشارت إلى بطنها ثم إلى عادل الذى حاول الانتفاض غضبا فادركه الألم فعاود الاستجداء: إيمىلى أنت بوذية وأنا مسلم. لا يجوز أن يكون لى طفل منك. بيد أن جدى بركات والجوسقى وذا النون وابن وحشية وحدهم من يعرف الحقيقة بالعلماء. أطفأت الشموع لتوى ووضعت غطاء الموقد ونهضت واقفا. لم أستأذنها للخروج. فقط نظرت إليه بتعجب وقلت: ألم تكن خطيئة وأنت تضاجعها فى الحرام؟! ألم تكن تعرف وهو يلجها أن هذا ذنبا؟! أم أنك تركت شوارعك الحجرية وصرت كأبى مالك الفقير وأبينا جورج ومولانا حسونة؟! حملنا النص عهر آثامنا فى العهر لا يستويان عاهرة بجسدها وعاهر بدينه. وحدها غادة المتبقية من جماعة شوارعنا الحجرية على مايدو. أجهضى نفسك يا إيمىلى بيد أن الريشة صدأت.

خرجت مغاضبا ليس من عهر إقام الله فى شذوذ نفوسنا، بل لسقوط آخر عضو فى جماعتنا التى حلمت بالبراءة فادركت الخيانة قبل محطة الوصول كلنا ابن النقاش وعبدالمعبود وأبوزهر ويساكر وإيهود. قرآن الفجر

يجعلنى مثل إيميلى لحظة النور. أصم أذنى عن السماع وأهرب بين الشوارع
بلا هدى أوسبيل. أردد فى يؤسى: كلنا كلنا. ديب من صوت عبدالباسط
يتجاوز حدود آذانى المصمتة. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى
الطول لا إله إلا هو إليه المصير. مازال بالميدان عم رؤوف وعلى الرصيف
عمى عليان وفى المشفى الممرضة البدينة وتحت الشرفات مذبذبين بحب
الوطن.. كلهم عم رؤوف

إلى جوارى توقف "تاكسى" ومال السائق من المقود إلى الشباك الأيمن
وقال: تفضل. ركبت مسرعا وأغلقت النافذة على عجل كى لا تدركنى غافر
بشجنها.

سألنى: إلى أين شيخ؟

أجبت: إلى مونيكا بإذن الله.

على مقربة من سكنها، كانت الدراجة البخارية بملثمتها تستعرض قدرات
التحكم. خرج بعض السكان إلى الشرفات يشاهدون العرض باستفاقة لم
تكن لسكان ستيللا. لكن واحدا لم يوجه لوما للملثمين. بضع تساؤلات
بالإشارة عبر النوافذ المضاءة والمتخذة كقواعد للمشاهدة. ينزل المسلحان
برفقة بنادقهما الآلية ويتوقفان أمام إحدى السيارات الفاخرة. توقفت بعدما
رفض السائق استكمال الرحلة واستدار هاربا. بين سيارتين وشجرة وارفة
إلى جوار الرصيف اختبأت. كان أحدهما يحطم زجاج السيارة والآخر ينظر
ناحية الشارع والبندقة مرفوعة لأعلى والسكان يرفعون أصواتهم عبر هواتفهم

المحمولة. الحقنا يا سيد بك. يا باشا الوضع خطير. لا والله سرقة علنية كانت هذه بعض نصوص المكالمات الهزيلة. أدار المثلث السيارة وتحرك بهدوء، فيما كان الآخر قد استوى خلف قائد الدراجة واستبقا السيارة التي أعطت إشارات الانتظار. الدراجة والسيارة تخرجان بتزامن دقيق شارات التنبيه الصوتي وكأنهما في حفل زفاف. غاب المثلثون وسط ضباب بدأ يحل رحلوا دون انزعاج حتى غابوا تماما عن أعين الشرفات. من مدخل إحدى العمار ظهر رجل من السكان بملابس نومه وجسده مخنى إلى الأمام نتيجة الاندفاع في الجرى. حافيا كان غير منتعل سوى الشراب. ملابسه تتطاير إلى الخلف عكس تيارات هواء الفجر الصيفية. راح يطلق النار من طبنجة آلية ويصرخ: سيارتي يا ولاد الكلب، لن تمر بسلام وسأتي بكم ولو كنتم فى بطون أمهاتكم. من خلفه ظهر أمين شرطة بملابس عمل الدوام وانطلقت النيران فى اتجاهين مختلفين صوب الهواء. دفعات جديدة من النار ألهمت رواد النوافذ فغادر بعضهم إلى الشارع. النيران خرجت متدفقة من أسلحة حلت مع بعضهم. صوت الدراجة البخارية يأق كهييس وسط طلقات النار. ثلاثة أضواء تخرق على استحياء الضباب. آلات التنبيه تعمل فى آن واحد. ظهر الموكب من جديد. المثلثون والسيارة بشارات تنبيهها الضوئى خلف الدراجة الهادئة. دفعة طلقات جديدة من بندقية أحد المثلثين خرجت. فبدأ الجمهور فى الجرى المرتبك. كل فى اتجاه سكنه. التصق صاحب السيارة بفرد الأمن وهما يتجاوزان ممرا ضيقا بين سيارتين فى اتجاه إحدى العمار. سقط صاحب السيارة فمر الأمين على جسده مرتبكا، فسقط هو الآخر على

ركبته متعثرا. نهضا سويا واشتبكت يدهما سويا وجريا سويا، ثم احتما باب أول عبارة أدركاها. انتهى الحفل مع وصولي إلى باب شقة مونيكا. ضغطت مفتاح الجرس وانتظرت طويلا حتى تيقنت أنها غادرت كهادتها أو هربت من جديد. ربما تكون بالداخل ومشغولة بإرضاع أحمد. نعم سأسميه أحمد وأكتب عليها عقدا شرعيا في الأزهر وآخر مدنيا في المحكمة. لن أترك طفلي كي يصفوه مثل عجيزة. طال الانتظار فأدركت الجرس مرة أخرى ولم تفتح احتمال خائفة من صوت الطلقات. استقمت على السلم للمغادرة ونزلت درجتين، ثم سمعت صوت الباب وصوت مونيكا تسأل: ماذا تريد؟ توقفت قليلا قبل أن أعتدل ناحيتها. بالتأكد ستطلب مني مرهما يلطف من حرقه حلماتها من فرط الرضاعة. ستكون خجلة من تغير لون بشرتها إلى الصفرة بعد الولادة.

من أنت وماذا تريد؟ رددت بحدة بعدما أطلت التفكير دون المواجهة. استدرت وعلى شفتي ابتسامة التلميذ الخائب، وفي مشهد لا يقل ضراوة عما شاهدته في كل المحكاوات العربية لحظة استدارة رئيس العصابة المجهول بمقعده الدوار، كي يكشف المقربون منه أنه الجنائني أو سائس الجراح، وقلت وأنا أفصح ذراعي: حبيبك سعد.

باستغراب لا بدهشة، مدت يدها اليمنى فأوقفت اندفاع أحضاني وعلى وجهها أثر من سخرية. قالت: سعد من؟! أمسكت يديها بقوة مشتاق وقلت: سعد يا مونيكا. سعد حبيبك. أبوأحمد طفلنا يا غاليتي. نَقَصْتُ عن يديها بعنف وتراجعت إلى البابا حتى حل جسدها بين الداخل والخارج

ورددت في استياء: أى سعد وأى طفل. مجنون أنت ثم دخلت الشقة
بظهرها مسرعة، دَفَعَتِ الباب بعنف، فتسلمت ضفته برجلى اليمنى فارتد
إليها بمقدار دفعها، فتنحت جانبا عن الاصطدام. دَخَلْتُ إلى الصلاة،
فَهَدَدْتُ بالصراخ إن لم أغادر. بيد أنها مازالت تجهلنى حقا، فقلت: سعد.
سعد يا مونيكا وخلعت عمامتى الأفغانية، فلم تعرفنى. وضعت يدى على
الحيتى مواريا لها، فلم تعرفنى. ولت إلى باب الخروج وتوقفت مابين السلم
والصعد وصرخت: أدركونى. كنت كهارب من جبل المشنقة مترنحا بين
الصالتين وحجرتى النوم والعمل وما بين المطبخ والحمام باحثا عن أحمد
ومازالت هى تصرخ. الكافرة تتجاهلنى وولدى غير موجود. اليهود يجيدون
التلاعب والحديعة. خرجت إليها وأمسكتها من كتفها وبغف هزرتها. بالقتل
هددتها إن لم تقل أين خبأت الطفل. لم تجب إلا بصراخ نحو الذين فتحوا
أبوابهم نصف زاوية ومرروا جزءاً من رؤسهم عبر الفتحة الضيقة.

يكفى هذا يا شيخ. قالتها امرأة فى الخمسين من عمرها، بعدما دفعت زوجها
جانبا وفتحت الباب عن آخره وحلت فأحالت بيننا، ثم عاودت: يكفى يا
شيخ.

أدركت أننى لست سعد بتلك الهيئة الجديدة والاسم الجديد، حينما فتحت
الأبواب جميعها وخرجوا إلينا تباعا وكلهم يردد: حرام يا شيخ. شعرت بأن
السكان المذعورين بفعل طلقات الرصاص فى آذانهم، سيفرغون خوف
قلوبهم على جسدى اعتداءً فأدركتني أبومالك الفقير وهو يصرخ بهياج:
كفــــــــــــــــــــــــــــــــار. لم أكن أعرف قدر فزع الكلمة من قبل. كنت أتلقاها بشئ من

السخرية والعبث وأردد مع الساخرين نحن الكفار جزاك الله خيرا. بيد أن الكلمة كبيرة وقاسية مرعبة وقاتله، تبيتها لحظة هروب السكان واندفاع الأبواب محدثة أصوات ارتطام جنونى. خلا المكان إلا منى، حتى مونىكا حببتي أم ولدى هربت معهم. نزلت إلى الشارع أدوس بصندل السيارة الفاخرة فارغ طلقات الرصاص. توقفت عند الشجرة الوارفة والسيارتين. مس من دماء على زجاج إحداها. رحت أتبينه مع تكشف ضوء النهار. خط رفيع وقصير إلى جواره نقاط مبعثرة من الأحمر القانى. حيرة أخذتني من امتداد الخط المتهالك وسمكه الطفولى، ترى مَنْ جُرِحَ أو قُتِلَ في معركة الآلات؟ كان لابد من المغادرة مع حركة الصباح الدووبة الكسلى. رأيته قتيلا على مقدمة السيارة مطروحا مفككا من أجنحته ورقبته. بقايا عصفور مشئت. ريشات هنا وجناح هناك، خسائر لاتذكر إثر معركة حامية أسفل شجرة مستكينة. لست معنوها بقدر جنون درويش، ولن أشد: بين ريتنا وعيونى بندقية، ولن أسمح لذائق أن تكون بين فراشتين كأحمد الزعتر، ولن أتوقف عند عصفور ممزق، فكم من العصافير سقطت سهوا في بحور من جليد.

لا دينية ولا مدنية. الميدان هادئ وتباشير الصباح. بين الخيام انتظرت فرما يأتي عم رؤوف أولا فأدرك حسام فى الطريق، وربما يسبقه حسام فأستلم الاسطوانة دون إزعاج. بعد دقائق من الانتظار والمراقبة، وجدتنى من جديد نصف قارئ لا يجيد الاكتمال. احتمالان وضعتها للقاء حسام، حتى

الاحتمالات لم تسلم من عبثنا فوقعنا عليها بما يناسب رغباتنا. ربما يأتيان سويا ولا أستطيع الحصول على الإسطونة المنتظرة.

بس بس. الصوت يأتي من خلفي بسكون، ثم بس بس ثانية. التفت باحثا عن المصدر فلم أجده. أعدت نظري لمراقبة المقهى، فعاود الصوت البسبسة تبعه نداء: سعد سعد. نهضت باحثا عن مصدر صوت الأنثى الذى لا يخطئه الذكور ولو حال بينهم جدار من فولاذ. مررت بين الخيمات فلم أر سوى المعتصمين بين نائم ويقظ كعادة الميدان فى تلك الأوقات. عدت ناحية المراقبة، فأمسكت يدً بينطالى من أسفل. قفزت فزعا من المفاجأة، فتجاوزت اليد ثم التفت ناحيتها. كانت إيميلى تظهر برأسها وكنتفها من فراغ فى باب خيمة مغلق برباط. تعجبت من مغادرتها وعادل مصاب. سألتنى بصوت خفيض، هل عادل هنا؟ فتحت رباط الباب ومددت يدي وساعدتها على الخروج حتى استوينا على طريق مراقبة المقهى، وقلت بتعجب من سذاجة سؤالها: كيف يخرج وهو فى حاجة لأسبوعين من عدم الحراك والراحة؟ كنت أقرب عم رؤوف وحسام وهما يعدان المكان لاستقبال الصباح، وإيميلى تراقب بتوتر قدوم عادل من ناحية عبدالمنعم رياض وحراس مداخل الشوارع يراقبون الأطراف الثلاثة المحتمل قدومها للهجوم بعدما عاد التوتر للميدان، وكل فى فلكه يسبح. أخبرتنى إيميلى بما كان من عادل وتوتره واصراره على الإجماع أو القتل، وهروبها خوفا من جنون الغضب سألتنى مكانا آمنا حتى تستقر بطفلها ولادة ومن عيني عادل اختبأ. تركت نوبة حراستى للمقهى الذى امتلأ مع بدأ العمل، وجلسنا على

حافة رصيف الحديقة. يمكنك الاختباء فى أى فندق أو شقة مفروشة، قلت بانتشاء من يجيد حل المضلات، فرأيتها تولى عينها عن طريق المراقبة وتنظرنى بسخرية: لو كان هذا واردا فى الحسبان ما كنت إليك آتية. يمكنه معرفة مكانى بسهولة ويسر. لم يعد هناك شارع أو حارة إلا وشكل جدرانها ثورة، والكل يعرفه ويملك عنى صوراً كثيرة يمكنه الاستعانة بها!! أريد سكنا خارج القاهرة.

السيدة زينب، قلب القاهرة وجمع الأحبة وملتقى المجاذيب. وطن فى وطن هى الداخل والخارج والجمع والمفرد. أمسكت يدها رغم الاعتراض ومررنا إلى باب اللوق ومنه إلى شارع منصور، وفى السيدة زينب توقفنا عند نداء مجذوبة بدينة تجلس على فرش من بقايا أقمشة ممزقة يسار ضريح العتريس وتردد: "يا أم العواجز لكل عاجز حاجه فى ضميره. يا أم العواجز الى يجيلىك مستحيل ربك يضره" حاولت جذب إيميلى كى تتحرك بعيدا عن المجذوبة التى تعلق نظر إيميلى بها وتعلقت هى بعيني إيميلى. كنت قلقا من اقتراب المجاذيب، هكذا علمنى شيخ جماعتى الأولى - لا تعطى المجذوب ولا تأخذ منه. لعطيته ارفض ولحاجته استجب. فنحن لا نعرف من أين يأتينا البلاء - سحبت إيميلى يدها عن يدى برقة حالم وتوجهت ناحيتها، دنت حتى ركزت على ركبتيها فى مواجهة المجذوبة التى فتحت حضنها، فنامت على صدرها. إيميلى تؤمن بالطاقة وبالأرواح، الطيب منها والشرير، هذا هو تخصصها فى الجامعة. رأيتها يوم أن كنا بمعبد الرامسيوم تغيب مع التصاوير حد التوحد. تحدثنا عن امتلائها مع الغروب. نظرنى عادل وفى عينيه رغبة

أن أتابع لعبة يحب لعبها مع إيميلي كدعابة. وقف إلى جوارها وراح يتلو آية الكرسي. رأيتهما تجلس على صخرة من بقايا جدارية لمسييس الثاني وراحت تدلك ساقها وكأنها أصيبت بخدر فيها، ثم صرخت بدعابة أيضا: ملعون أنت يا حبيبي، أفقدتني الامتلاء بتعاويذك السحرية. ضحك عادل وانصف المسافة بين وجهينا، وقال وهو يحرك رأسه من ناحيتي إلى ناحيتها: قل لها يا سعد أننا هو الساحر؟ حدثني عادل عن بخورها وشموعها الذين أدركتهما بنفسى، وعن قدرتها على منح الحياة للتصوير النائمة برسمه في غرب طيبة. كان يخشاها حد الرعب ويعشقها حد الجنون، يدفن وجهه في حضنها حينما تطفئ الأنوار وتشعل الشمع والبخور إلى جوار أحجارها الملونة وتمثال صغير لبوذا المستكين وينامان على كنبه الصلاة أقسم عادل أنه رأى لوحة الحصان الأسود المرسوم على الحائط، يركض بسرعة مذهلة ولا يتحرك عن مكانه قيد خطوة. قال إنها تسيطر عليه بالسحر الأسود، وقالت: هو يفقدني الطاقة بتعاويذه الشيطانية. يوم أن غادرت إلى أمريكا في زيارة صيفية، طلبني عادل بما لديه من معلومات قديمة عن علاقتي بأهل الأرواح أو بالتحديد شيوخ جماعتي الأولى، كي أخلصه من عذابات سحرها. لم يكن جيدا منى أن أرسم علامات الاستفهام التكررى على وجهى وأحاول إقناعه بوهم ما يسمى بالسحر. ليس هناك سحر يا صديقى قلت له وهو يعتبر عليّ ويظن أنى أتهرب من المساعدة، لأن فك السحر يتحول إلى آلام فى جسد المعالج. كلنا يؤمن بذلك، ويخاف السحر رغم الإنكار. أمهاتنا. جداتنا. مشايخنا. جميعنا أدرك عنهم شر الشياطين. لم يكن هناك بد إلا الاستجابة

طلبه طالما يؤمن بلا شك في هذا الوجود. كدت أخطئ في محاولة إقصاء مؤمن عما يؤمن به ويعتقد بإنكار وجود مادة الإيمان، فأحلت الفعل إلى وجود السحر ببطن الحصان الأسود، فأمرت بإزالته وتخلصت من طاقة الشموع والموقد ببعض تراتيل من حزب سيدى إبراهيم الدسوقي "لمقنجل يا أرض خذهم. قل كونوا حجارة أو حديدا وقفوهم إنهم مسؤولون كأنهم خشب مسندة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" سمعت شخير عادل هادئا في نوم عميق يشبه نوم إيميلى في أحضان المجذوبة البدينة التى أشارت ناحية باب المسجد، وقالت: هناك يجلس أصحابك.

كما تركتها منذ زمن، الجوستقى فى حضرة بركات عند الدرجات الرخامية مجاذيب وزوار يمرون بهما، يحدثونها أو يلقون التحية ويمرون. من باب المسجد خرج رجل يرتدى بزة فاخرة. ينتعل حذاء من جلد الباندا القطبى خلفه شابان قويان كأبطال كمال الأجسام، بيد أنهما حراسة لهذا الشخص الذى بدا مهما فى عيني. أخرج فئات متعددة من النقد الخمسينى ووضعهم فى حجر بركات، ثم مر فى طريقه خطوات، وهو يعدل ربطة العنق، فيما كان جدى بركات يلتقى بالأوراق بين أرجل المجاذيب، فلم ينحن واحد لالتقاط ورقة عابرة مرت برجليه الحافيتين. كان الرجل البزة يمر إلى جوار المجذوبة البدينة التى أشارت إليه أن يتوقف، ثم أشارت ناحية النقد، وهى تسخر: "خذ فلوسك يا "موكوس" التفت البزة ناحية الباب، فرأى النقد يتطاير فى الشارع منتقلا من رصيف إلى رصيف والمارة يتقاتلون رغبة فى الاستحواز على بعض منه. أسرع البزة خطاه مغادرا، فتقدمت إليه السيارة الهمر

المظلمة بفعل زجاجها البنى وغادر. الشمس تلعب برأسي الساهرة، ولم أعد أحتمل اليقظة. جلست إلى جوارها واليها قدمت التحية، فلم يبادراني. أسندت ظهري إلى الحائط وأغمضت عيني في استعداد قسري للنوم. شعرت بيد تمسكني من مقدمة الجلباب وترفعني لأعلى حتى شعرت بالاختناق. مجذوب في هيئة تمثال تحتس الثالث. عني صلب، ينهرني: لم تفتحها لوكاندا للنوم يا معدم. دفعني بعنف، فترنح جسدي حتى سقطت أمام العتريس والعيدروس إيميلي تغط في نومها على فرش الأقمشة الممزق. تسترها البدينة ببقايا شال أخضر أكثر تمزقا. مجانين يا أولاد الحرام، تُؤمُّون الكافر وتعبثون بقلب المؤمن أليست الشهادة كافية كي أنام إلى جوار البوذية الزانية؟! أدركت ما بين الضريحين وحائط المسجد، هنا نام حسام في معزل عن العالم الاسطوانة هي آخر ما تذكرته عند نومي الهادئ بين العتريس والعيدروس والسيدة.

كم من الوقت مر حينما استيقظت على معتاد المشاهد بحى السيدة؟ البدينة بلا إيميلي على فرشها. بركات والجوسقى على درجات السلم. هل نمت ساعة أو ساعتين أم أنتى تجاوزت إلى يوم جديد؟! الشمس ذاتها. الضوء لم يتغير والظل ساكن خلف الحوائط. تمنيت لو سلمى إلى جوارى كي تلعب معى لعبة الضوء والظل وألاعب ذاتى المشيئة والزمن. رأيت إيميلي وعلى رأسها محمل طعام تجر بطنها بتثاقل، آتية من ناحية الرصيف الآخر. توزع من الحمل أرغفة من الخبز وحبات من الفلافل. البدينة تضحك وتناديها وهى تشير ناحيتي: أعطى المعدم رغيفا يا أم الحسن. اقتربت إيميلي فرأيت فى

وجهمها نور العالم قد تجمع بلا شموع أو ضوء وظل. هادئة بلا مراقبة أو ترقب. فزعت من هيئتها النورانية فوليت هاربا تجاه عابدين.

احتفالات وكهرباء تنتظر المساء ويبارق من أعلام تحمل اسم الله. جماهير من لحي وإخوة في النضال يملؤون الشوارع. ظهر الشاب المهترز العطش وبطيئته المفرطة راح يقبلني من كتفى ويحتضني بقوة وفرح البلهاء، وهو يردد: جاء الإسلام يا شيخ. نجح الرئيس.

فلتذهب ورئيسك وإسلامك الهارب إلى المجيم. خل عنى أيها المعتوه، دفعته بقوة لم تؤثر في بدنه المترهل القوى. فالتفت وعانق آخر ثم تركه وعانق ثالثا وأنا تائه بين الأمس والغد. هل يأتي الإسلام من مكة إلى مصر في بضع ساعات وتنتهى الانتخابات بتلك السرعة؟! ما أعفك يأسعد وأعفن قراءاتك. حواس نكده تمنحنا الإحساس بالوجود فنحيا بحضورها ونغيب بغياها. ما أجملك يا أبامالك الفقير. أمر بين المحتفلين فينكرنى شباب المنصة والميدان. ربما غبت عنهم زمنا طويلا فألقاني سمعهم وبصرهم فى سلة النفايات الكونية. كم من الوقت مر وأنا نائم؟ هذا ما شغلنى طوال الرحلة من السيدة إلى الميدان، غير محتم بالشرع والشرعية والإسلام الهارب العائد مع صناديق الاقتراع. زال جرافتى محمد محمود، ولم يعد هناك إلا بقايا لونية من جرافتى عماد عفت والبطران ومينا دانيال وبقايا من روائح الراحلين وسط الزحام بلاضجيج وأثير فضائى. نأثأت راموزا ليس لها أثر من وجود. لا عليك فالجرافتى فن زائل يا صديقى. التفت فأخذنى عادل فى حضنه معانقا بيد واحدة. يربت على كتفى بيسراه الوحيدة. ابتعدت عنه خائفا، تكشف

سقوط كم القميص الذى غطى كفه الأيمن، فصرخت فزعا. فى عينيه دموع
أبت أن تنزل، وهو يشير ناحية حسونة أعلى المنصة.

حالة من الجنون عمت الميدان. رحلت الخيام وزالت الجداريات وانطلقت
الألعاب النارية، ومقهى عم رؤوف ليس له وجود، والناس فى فرحهم
يخوضون، وعادل فى دموعه يرتجى البكاء، وسلمى لم تأت كى تحدد ضوء
الأيام وظلها وما تبينت الوقت بعد، وحسام بالاسطوانة قد اختفى وإيملى
اكتمل حملها ومونيكا تراودنى عن طفلى الغائب ومازال عادل يشير إلى
حسونه الذى راح ينادى: خير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود
والتكبير خلفه يملاً السماوات والأراضين اهتزازا. ودموع صديقى ما زالت
حبيسه. يخط بعينية لوحة فكر فيها حسونة ونفذا بعض الجبناء ليلا، لحظة
ما كان يرسم جدارية تشمل ثلاثة عشر حمارا على جدار المجمع العلمى
المحترق وقت المعارك. ظن الظانون أنها تشير إلى دعوة الأسباط والشمس
والقمر للعودة إلى مصر وكفّر حسونة من يدعو اليهود إلى الوطن. وعنها قال
جورج إنها لوحة شؤم لأنها تحمل رقم ثلاثة عشر وراح يفسر ذلك بأن رقم
واحد يساوى حرف الألف، ورقم ثمانية يساوى حرف الحاء، ورقم أربعة
يساوى حرف الدال، فيكون مجموع الأرقام ثلاثة عشر ومجموع الحروف يوم
الأحد، والرب يكره من يعمل فى هذا اليوم. وقد تبرع بعض أهل الحل
والعقد من المحللين الفضائيين وعشاق حل رموز التعمية بنسبة الرقم إلى
موقع الرئيس الناجح فى قائمة ترتيب المرشحين وتبرعوا دون دعوة بتكفير من
يبين الإسلام بإهانة شخص الرئيس، فكفر عادل وحق على يده بعضا من

حد الحراة. لكنه أقسم بالله لحظة ما فكت العينان محبس دمعها أنه لم يقصد سوى رؤية التشاؤمية لثورة بلا قائد، ثم تركنى فجأة وغاب وسط المحتفلين وهو ينادى إيميلى، وأنا أنادى دون حرف وبعينين تمسحان جوف الميدان عسانى أجدهما -حسام ومونيكا- ومازال حسونة ينادى جيش محمد المحتمل مع عودة الإسلام إلى أرض الوطن دون مطار أو ميناء بحرى أو مجمع لشاحنات النقل واشتعل قلب الميدان بالهتافات. الله أكبر..

ثم قال متى

ما لم يقله يساكر وسكت عنه إيهود وتنكر له جوزيف وخرس عنه حسونة وتكتم عليه جورج، قاله عم رؤوف بعدما ضبطني في صحبة حسام أمام ضريح السلطان أبوالعلا "الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"

لم يكن النص مناسباً لحالتى الفَرْحَة من تسلم الاسطوانة وإخفائها عن عينيهِ فسرت ناحية النهر غير مهتم بنصوصه. من مستودع أعلاف عم مينا عند ناصية التقاء الكورنيش بالسلطان، خرج رجلان فى منتصف العمر تصاحبهما حالة من التشاجر الصوقى والتنبيهات اليدوية الغاضبة. سارا بمحاذاق، بملابس عملهما المتسخة وفى عتابهما حالة من ود قديم. قال أحدهما معاتباً: فى تلك الساعة تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين: فمن هو أعظم فى ملكوت السموات، فدعا يسوع إليه ولدا وأقامه فى وسطهم وقال الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات.

نصوص على الكورنيش ونصوص فى الميدان. نصوص فى كتاب الموتى وصحف النهار. نصوص على الشاشات اللاهثة بترت ريشة عادل إلى الأبد. ونصوص إيهود أرعبت الخواجة لآكى. بيد أن النصوص المؤطرة بالضوء والظل والديكور والمكياج لا يفهمها سوى المحترفين. توقف الرجلان وتعانقا فى محبة وعادا إلى طفولة بعيدة فانحنى الأول على الثانى فقبل رأسه والثانى

على الأول فقبل جبينه، وتشابكت أيديهما وحملا بائعة مناديل عجوز متسخ
ثوبها، ترغب في إدراك صلاة الجماعة على الرصيف الآخر. بيد أن المتسخين
لا يدركهم سوى المتسخين، وحسونه لا يدرك إلا جورجا. الاسطوانة
منحتني شعورا قويا بمغادرة الشوارع الحجرية إلى الأبد. لم أدرك أن ملابسى
كانت أكثر اتساخا من الرجلين والعجوز، إلا أمام مبنى المشهد الحكومى
عندما رأيت الداخلين إليه يميرون بزواية من جسدكم إذا ما اقتربت ناحيتهم
أدركت خسائر المشهد الهليودى وعرفت لماذا أنكرنى شباب المنصة
فاتجهت إلى طلعت حرب. توقفت على مقربة من ذلك الزحام عند قاعدة
التمثال، بالمنتصف فتاة تصرخ والامرء لحظة ما كان الصبية يعبثون فى
دهاليز أبهائها. العسكرى الواقف على مقربة من تقاسيم الجسد المتهتك ستره
يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال، والفتاة بالوصيد توارى سوء ما لم
يواره المارة خوفا، ربما. استمتعا بهذه الأنوثة المتفجرة ربما، وربما كى لا يرتكبوا
خطيئة العين الزانية. صوتها المتهتك من كثرة النداء والامرء اختفى تمام مع
صراخ شاب ناضج الجسد: إن كان بينكم من يدعى مرسى أو مرساه
فليجيئها. المارة يرقون بلا مبالاة. بلا إجابة. بلا مرسى. بلا توقف لأيدى
الصبية العابثة. فجأة انتفض جسدها المتعب وكأنها عادت لتوها من موت
بعيد. رفعت يديها عن موضع أنوثتها وراحت تبحث فى بقايا ثيابها، ثم
أخرجت كراسا بلون أحمر وكأنها تذكرته لتوها. راحت تلوح بها فى الهواء
تركل وتضرب وتنادى بقوة فى فضاءات الميدان: والى أوبامااه، بينما كان
الصبية يتفرون كجرذان رأت قطا مخيفا، لم أكن محمّتا بتلك الأساء التى

صرخت لإغاثتها، لم أكن مهتما بتفاصيل جسدها البهي لكنني كنت شغوفا لمعرفة سر الكرّاس الأحمر وحمق تخاذلي في نجدها، وبلاهة ذلك المتسائل: من منكم مرساه فليجيبها. خلعت عمامتي الأفغانية المتسخة وطرحتها على جسدها العاري، فأزاحته بقرف، فوقع أرضا وداسته النعال التي اتخذت من قاعدة التمثال محلا للمشاهدة. الكرّاس الأحمر هو جواز سفرها الأمريكي وجهها مشوه من أثر دماء ساخنة وإصابة في حاجبها الأيسر. بها ملامح من مونيكا. لكن حديثها مع كل من يقترب منها جعلتني أفضل المغادرة، فمن الشبه يخلق الله أربعينا وخمسينا وملايين. من أمامها مررت مبتعدا. فأعادني صوت سبابها للناهلين من عريها، هو بلا شك صوت مونيكا. أنا على يقين من ذلك. عدت إليها وقلت: مونيكا!! فصرخت: انصرف أيها المجنون. ربما ليست هي، ومن الصوت خلق الله.. توقفت لأنني لم أعرف كم خلق الله من الأصوات المتشابهة؟ فالموروث أخبرنا بالشكل ولم يأت على ذكر الصوت ولا أعرف السبب. قلت وأنا أستدير خلفها ربما أيضا أربعين وأضفت خمسينا وملايين. كنت خلفها تماما فنظرت العقب الأسود على مؤخرتها وكأنه يعلن من جديد عن عدم مشروعية اللمس أو الاقتراب أو التصوير. يمكنني أن أخطئ وجهها. جسدها، إلا ذلك القاتل التي شجعتني على التهامه دون خوف. أنبأني العفريت الساكن تحت جلبابي بأنه عقربها لا عقرب مشابه فمن العقارب خلق الله أيضا ملايين لكنني لن أخطئ عقربا تذوقته من قبل استدرت إليها ومددت يدي كي أصطحبها فتراجعت بذعر وسبتي. بين الزحام والسباب والمشاهدة رأيت عادل يمر بينناحتي وضع

يده المبتور كفها على كتفها ومسح بالأخرى بعضا من الدم المتجلط على وجهها، ثم غادرا بسلام وهو ينظرني بعتاب ويقول: جاءت تبحث عن سعد.

الاسطوانة. رحت أتحمس جلبابى وسط الزحام خوفا من ضياعها. حمدت الله على سلامتها، فتسلمت الرصيف إلى تاجر الجلابيب، اشتريت جلبابا وشالا بسعر مضاعف عما شريته منذ.. منذ نمت بين الأضرحة وعدت إلى حفل الرئيس بالميدان هذا ما أدركه الآن من الزمن. ما تبقى من نقود غادة لا يكفي لشراء صندل جديد، ولابد من الانتهاء اليوم وإلا عدت إلى الشوارع الحجرية قسرا، وربما لن تقبلنى كزائر كان عضوا عاملا ذات يوم. دخلت إلى شارع هدى شعراوى ومنه تسلفت إلى ضريح الشيخ حمزة، فاستبدلت ملابسى وأتقنت لف العمامة هذه المرة بالطريقة الحجازية، ووضعت المتسخ من الثياب إلى جوار الضريح. حملت الصندل تحت إبطى حتى تجاوزت الباب فاتعلته وسرت إلى مقهى الندوة. مثل كل الأيام. عم عليان مستندا إلى السيارة الموازية للرصيف. منكفى على النعال فى تركيز طبيب للجراحات الدقيقة. لم يأت كى يأخذ حذائى كما عادتنا القديمة. ظل منكفئا حتى ناديته فهض مستندا على مقعد إلى جواره حتى ارتفع بجسده عن الصندوق، ثم استند بكلى يديه على مقدمة السيارة وراح يجر رجله الواحدة تباع الأخرى حتى اعتدل منحنيا. فغاية اعتداله جسد مقوس فى اتجاه الأرض وكأن الأرض تنادينا قبل الوفاة. تقربنا بالانحناء وتحتوينا بهزيمة الساقين، حتى إذا أتى الموت وأعلن المنادى "من التراب إلى التراب" كانت

هى الرحمة المهداة لم يأتنى عاشور بالقهوة كعادته ولم يمازحنى كما كان. سألتى كغريب "تشرب إيه يا شيخ" كدت أنطق بالقهوة السادة، لكننى عدلت حينما طال وجهى طرف العمامة، فقلت: لبن جزاك الله خير. امتنع عاشور ولم يكن سريع الغضب وسألتى بالسحلب أم القرفة؟ فأجبت: سادة كما كان يشربه النبى صلى الله عليه وسلم. فردد ومن سمع من الحاضرين عليه الصلاة والسلام إلا عم عليان لم يردد رغم ملاصقته لى. انصرف عاشور، وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا فى استنكار مؤكد، بينما انحنى عم عليان كى يأخذ الصندوق فنحيت يده بعيدا وانحيت كى ألتقطه كما اعتدت فى كل المرات، لكنه اندفع منحنيا حتى كاد يسقط فأسندته ييدى. أخذ الصندوق ثم أخذ نصيبه من الاعتدال الذى قدره له الزمن وجاهد حتى يبدو غاضبا، ثم قال: لا أريد مساعدة من أحد. استدار مستندا إلى الحوائط بيده الفارغة من النعل فنهضت شابة جميلة وألقت السيجارة من فمها وأمسكت يده، فاستند عليها وأدرك الصندوق. بدأ لتوه فى ترميم اتساخ النعل حتى أعاده صندلا يصلح لقيادة السيارة الفاخرة. من جديد بدأ رحلته عبر المقاعد ومقدمة السيارة واعتماد الحوائط حتى وضعه أمانى. أعطيته ما يفوق تلميع حذائين. بلا حديث بيننا أعاد الزائد وبدأ رحلة العودة. شربت اللبن ودفعت الحساب وأمنت الاسطوانة فى السيالة وسرت إلى محمود بسيونى. نسخت الاسطوانة فى أقرب مقهى للإنترنت وتابعت المسير نحو فندق من الدرجات التى لم ترد فى ملفات وزارة السياحة. حجزت حجرة بآخر ما تبقى معى من نقود غادة. خبأت النسخة بعناية تحت فرش السرير المتهاالك، بعدما

خلعت لباسى الداخلى ولففتها فيه، خوفا من عبث الفئران التى خلفت فى الحجرة بعضا من بقاياها وضعت المفتاح إلى جانب الاسطوانة الأصلية داخل السيالة وغادرت إلى الشارع. توقفت أمام العارة اليونانية، وضبطت من هيئة ملابسى وسبحان من سخر لنا هذا رددت مع مسجل المصعد. بين تصاوير فجر الإسلام توقفت حتى أدركنى الشاب الذى أهانتى يوم رفضت مقابلة مولانا حسونة. قبل أن يبادرنى السلام، نظرت إليه بتجهم شديد، ثم طوحت يدى فى الهواء وصرخت فيه: ما هذا اللباس المخالف؟ كان يرتدى مثل ما أردى تماما لكنه مخالف ولن أتنازل عن كونه مخالفا. نظر إلى ثيابه وكأنه يستئين المخالفة، ثم نظرنى وقال: ما المخالفة يا شيخ؟ لم أكن قد جهزت للرد بعد فضربته بقبضتى فى صدره: ولا تعرف ما المخالفة؟ ثم ضربته ثانية حتى أدركتنى "ناعومى كامبل" عارضة الأزياء الشهيرة فقلت: جيب الجلباب العلوى. هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس جلبابا يجيب؟ كنت متأكدا تماما أنه سيتجاوز السؤال ولن يجرؤ على سؤالى عن جيب جلبابى فأجاب: صلى الله عليه وسلم. بعدها أمرته أن يبلغ مولانا حسونه بقدم الشيخ أبومالك الفقير. فأشار إلى المقعد، وقد أحنى رأسه أرضا: تفضل فضيلتك. جلست حيث لم يشر فى مواجهة باب المكتب مباشرة. سمعت عبدالرحمن ينهره ويستفسر عن أبى مالك الفقير. نهضت لتوى وفتحت باب المكتب ودخلت بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عبدالرحمن التحية وصمت العامل الذى أشرت إليه بالمغادرة، فانصرف. للتو عرفنى حسونة دون مقدمات أو تشبيه، فالهوليوديون يعرفون بعضهم

كالمتسخين. نهض عن مكتبه دهشا فجلست مستريحا، وقلت: أشرب لبن يا فضيلة الشيخ.

سعد لماذا أتيت إلى هنا، وماذا تريد وما هذه الهيئة؟ دفعات متعددة الأسئلة كبندقية المثلث الآلية، طرحها حسونة ومازال واقفا خلف المكتب. أشرت إليه بالجلوس فلم يجلس. قلت: جئت كي آخذك إلى خرابة عامر يا سيدنا. تغير وجهه وخرج عن المكتب وأمسكني من مقدمة الجلباب وصرخ: لو ناديتهم لقتلوك. بالطبع يقصد عمال المكتب ومريديه، فضحكت وأنا أدفع يده عنى أكفرت يا عبدالرحمن. على وجهه رأيت أثر الكلمة فزعا. اخرج يا سعد. قلت: أبومالك الفقير. لم يعد الأمر في حاجة إلى مراوغة فأخرجت الاسطوانة وأعطيتها إياه. لأجل هذا جئتك يا شيخ. السؤال البليد سألني: ما هذه؟ ضحكت بسخرية: هدية عيد الأم. نهضت عن المقعد وتناولتها من يده وأدرت الحاسوب، فعاد إلى مكتبه مستندا بيديه على حافته، فاتجهت ناحية الباب بلطف. ناداني: انتظر يا أبا مالك. اعتدلت وعدت إلى المقعد. أطفأ الجهاز وأخرج الاسطوانة ودسها تحت الجلباب. قلت: عادة تستحق أكثر من ذلك. لن أطيل عليك. المطلوب برنامج على شاشة قناتك ومئة ألف جنيه الآن؛ ولأنتى أعلم أخلاق خرابة عامر، فالاسطوانة منها عشر نسخ مطابقة تظهر إذا أصبت بمكروه. أطلق حسونة جرس الخدمة، فدخل العامل المتين فأمره بكوبين من حليب الإبل الطازج. قبل أن يخرج العامل أمرته بالانتظار ثم وقفت وتجهمت واحمررت وتشنجت وطوحت يدي وعلى وجهه طبعت صفعة لائقة بمن ترك الجيب

رغم التحذير. مددت يدي فنزعت الجيب فأخنى رأسه واعتذر. نهره حسونة الذى كان يرتدى جلبابا له جيب مثلى ومثل العامل الخجول من المخالفة الدينية، فزادت رأسه انحناء وولى دون كلمة مددت يدي كى أحصل على شيك المبلغ المحدد، ففتح درج مكتبه وكانت النقود حاضرة، من مادة الدولار الأمريكى و الريال السعودى والقطرى حمدت الله على نعمة النقد الأجنبى، فلم يعد للجنيه المصرى قيمة بين تلك العملات، والحكومة تسعى لإعادته كما سمعت. فشكرته على استجابته الفورية. رحت أتفحص المبلغ بعينى محروم، فيما كان يتفق معى على ترتيب أول ظهور لى عبر الأثير. قال: ستكون حلقتك الأولى عن حلم المسلمين فى عودة الأندلس. هزرت رأسى بالموافقة وضحكت ذات الابتسامة التى قابلته بها بعد فضيحة خرابة عامر، وقلت مداعبا: أيها أحق بالعودة وأيسر الأندلس أم الجنيه وقيمه؟! فضحك هو الآخر وخرج عن مكتبه بعدما دعانى للطعام فى شيراتون. خرجنا من باب المكتب وهو يلكرنى فى جنبى قائلا: من أنجب لم يمت. تذكرنى بأحاديث الأستاذ يارو عن مكر جدك يوم الحريق الكبير. ركبنا المصعد ونزلنا بدعاء السفر إلى الشارع. فى سيارته الفاخرة التى أبى إلا أن يقودها بنفسه مكرمة لحضورى وأبلغ السائق بذلك راح يتلو ما تيسر من حكايات الأجداد. أخذنى بدهاء أقررت به، بعيدا عن غادة وجسدها وحضوره بين فخذيه، وقال: كان المقتول تحت شجرة العجمى يوم الحريق هو جدى حسونة. يومها انتهى الناس من الإطفاء، واختلى الخواجة لأكى وسيرو بجذك فى سرايا الملحج. بحثوا أمر الحريق واحتمالات أن يكون الفعل

مدبراً. لا سيما بعدما انتشرت شائعة سريعة تلقى بالجرم على ما يسمى الماس الكهربائي. لم يكن الناس يعرفون شيئاً عن ذلك المجرم الذى يتسلل بين أسلاك المخلج والسرايا وبيت الحضرة. مجرم مستحدث على مسامع الناس، فتبرع الشيخ أبو زهر على منبر الجمعة بشرح المصائب الآتية من معاهدة الكفرة. السيارات تصطدم والطائرات تقع والبواخر تغرق وكادت قريتنا تحترق من الماس الكهربائي. أيقن جدك وجود مصيبة مدبرة طالما ألبس الشيخ أبوزهر الحريق حية وخاض فى الكفر والإيمان. كان أكثر حضوراً من الجميع فلم يعر تكهنات سبيرو الطيب اهتماماً. وحده الحاجة لآكى من تفهم ما فى عينى الشيخ من إشارات نحو الفاعل ولم ينطقاً بحرف أمام سبيرو الذى أرسل تلغرافاً عاجلاً إلى المالك ياكماغللو يخبره بالحادثة التى كادت تهلك المخلج خراباً لولا حكمته وسرعته فى التعامل مع الحريق تلك الحكمة التى اكتشف المالك أسطوريتها بعدما جاء من اليونان لإعادة تأمين السلامة الوقائية بالمخلج، فمنحه مكافأة تساوى راتب شهر بألمة ولم يعرف أحد هل كانت المكافأة عن نجاة المخلج أم عن إجادة إتقان الأسطورة؟ ربما هذه وربما تلك، فكم يعشق اليونانيون الأساطير.

"اللهم سخر لنا قلب من أحوجتنا إليه، واكفينا شر من يقدر علينا ولا تقدر عليه، يا من بيده ملكوت كل شيء. أنت عالم به وقادر عليه. تحصنا بالحصن الذى أسسه الله". عادت التراتيل إلى حجرة المجاذيب بعدما تعاونوا على إزالة آثار الحريق، من ماء مسكوب وخطب محروق وبقايا عظام البقر والجمال، وجدك بين الحاضرين يربط شال عمامته حول خصره والعصا على

كتفيه وإلى حلقة الذكر نزل بعدما اكتفى من الرقص والغناء "أخضر ياود
اللينة" وفي فمه الله الله لم تغادر منذ الحريق وإلى أن اجتمع الناس أعلى
الجسر، يراقبون الغريق تحت شجرة العجمي، الغاب حول المهبط المؤدى إلى
النهر يهتز مع اهتزاز ضوء المشاعل، فتظهر الجثة فجأة وتختفي فجأة لكنها
ظلت ثابتة في أعين من راقبها تحت ضوء القمر المكتمل بدرا دون إتباع
المشاعل، فأهل الله يتبعون نوره، وأهل العمى في مشاعلهم يعمهون قالها
مجدوب فشخر غراب بصوت مرتفع وهو يترنح بين الذاكرين وينادى
الفضاءات البعيدة وعيناه شاخصتان ناحية الجميزة القاتلة عبر الباب المفتوح
ثم تبع شجرته بتوت توت سبحان الحى الذى لا يموت. رفض الخروج إلى
الناس الذين أتوا شيخ الحضرة طلبا للمساعدة على انتشال الجثة. حاول
جدا بكل ما أوتى من حب فى قلب الشيخ غراب أن يقنعه بالذهاب مع
الناس لانتشال الغريق، فhez رأسه ولم يعقب إلا بتوت توت. الناس أعلى
الجسر ينتظرون حضور الشيخ أبوزهر وابن النقاش يطلب إبلاغ المركز
وفرق الإنقاذ. الحاجة فهمية تصرخ: إن كانت امرأة فيمكنكم لبس القفازات.
الشيخ غراب لم يكن كعادته. وحده من يجرؤ على النزول إلى جذع الشجرة
وفى صحبته لأكى وشيخ الحضرة. لكنه مصر على عدم مغادرة حجرة المجاذيب
ما بين غرفة اللبن ومدخل الدار توقف جدا وغراب فى محاولة لإقناعه
بالذهاب إلى الشجرة، لكنه عاود هز رأسه وتوت توت. بينهما حل أحمد
النادى: وقال لجدك يا أبى، نعم قال له يا أبى، فكل أهل البلدة لقبوه بهذا
الاسم حتى صار بديلا عن مصطفى أو الشيخ. فأدركه جدا بنعم كى ينهى

وجوده بينهما فى محاولة جديدة لإقناع غراب. قال النادى: المقتول تحت الشجرة هو حسونة المنيأوى وهو من أحرقت الحظائر. لتوه الشيخ غراب راح يقفز فى الهواء والبصاق يتناثر من فمه إلى وجه جدك وضحكة طفولية على وجهه، وهو يردد: توت توت. لم يمض شيخ الحضرة البصاق عن وجهه ولم يهتم. وضع يده على كتفه، فهدأ غراب وتوقف. قال جدك: حسونة لم يحرق يا غراب. هو أداة للحريق. مسكين لا تتركه فى مهانة الموت عبثاً للأسماك وطيور الليل. قلب أحمد النادى كفيه تعجبا، وأشار بالسبابة والوسطى إلى عينيه: رأيته لحظة الحريق بعيني هاتين، هو الحارق يا أبى. عنفه جدك بحدة وأمره التزام المشية النائمة فى العراء، فتركها وولى إلى الزرائب المحترقة. تحركا فى اتجاه حجرة المجاذيب، فوقفا عند صوت اضطراب من حجرة اللبن آت. فتح جدك الباب، فأتاه صوت الطنطاوى المهدى: أغلق الباب يا أبى. معركة دائرة بين قط سمين وعصا فى يد الطنطاوى يجرى بها خلفه. كلما أدرك القط لقفه ضربة تحيل مواءه إلى صراخ. شوالى اللبن الفخارية بين مسكوب ومقلوب وملوث بأقدام القط المذعور. توقف الطنطاوى حينما نهره الشيخ وعنقه. فقال: لقد تسلل إلى الحجرة وشرب من كل شالية قدرا. لم تسلم من عبثه واحدة. انزوى القط تحت لمبة الجاز فى ركن من الغرفة وعلى فمه بقايا الجريمة. نادى جدك غرابا وأشار ناحية القط، وقال: انظر يا غراب، يرتكب الطنطاوى الجريمة ويسجلها فى صحيفة الحيوان المسكين. علا صوت الطنطاوى، وأقسم أن القط هو الفاعل، فعنفه جدك: تركت الباب مفتوحا والنوافذ مواربة وتلقى جرم إهمالك على

هذا المسكين اذهب إلى أبي زهر ربما يجد لك تبريرا مناسباً، سيخبرك بأن الشياطين تسكن القطط وكم من قطّة خطفت مؤمناً ونزلت به إلى عالمها السفلى وتزوجته اعتذر للقط يا طنطاوى أو غادر الدار بلا رجعة. لتوه اعتذر طنطاوى إلى القط الذى لم يقبل الاعتذار وظل ساكناً فى مكانه، فأشار الشيخ أن أعد الاعتذار، فأعاده. هز القط ذيله وغادر الركن فى اتجاه الشيخين. خرج الطنطاوى وجلس جدك على ركبتيه ومرر يده مسحاً على جسد القط المستكين وغراب يتمم حى حى والقط يمتعض إذا ما لامست اليد الأماكن الموحوجة فى الجسد. نهض الشيخ وأتى بشالية من رايب ووضعها أمام القط وقال: هذه شاليتك، ستجدها كل يوم أمام الباب وإن لم تجدها يوماً وتسلفت إلى الغرفة فإياك أن تشرب من غيرها، ساحتك مثلما ساحت حسونة ولن أسامح عبدالمعبود ماحيت. قفز غراب فى الهواء، وأطلق: حى، ثم خرج إلى حجرة المجاذيب ولزم القط باب غرفة اللبن ولم يغادر. همس شيخ الحضرة فى أذن غراب قبل أن يدخل الحجرة: فهمت من الحارق يا غراب لا تترك الجثة فى النهر.

المشاعل وضوء القمر لم يعد لهما قدرة على استئيان مكان الجثة. بعض الرجال يرتدى القفازات، ويتراجع خلف من كان يسبقه، فيلبس المتقدم القفاز ثم يتراجع خلف من كان أمامه، وفهية تشرح كيفية لبس القفازات بسرعة ومازالوا جميعاً فى انتظار أبى زهر، فأخبرهم شيخ الخفراء أنه فى المشفى إثر أزمة مفاجئة فى الحنجرة. اهتز الغاب فى أثناء مرور غراب وشيخ الحضرة على المهبط المؤدى لفوهة الماء. قرب المشاهدون مشاعلهم

من أعلى الجسر إلى فوهة النهر دون النزول. الجثة غادرت ولم يعد لها أثر. لم يجرؤ واحد على ذكر نوع الجثة ولمن كانت رغم يقين بعضهم أنه جدى حسونة، لكن جدك كان مثلك يا سعد، أجاد استعمال الحريق والقتل لصالحه، فأمر الجميع بالمغادرة، وظل ليلتها في صناعة فرق المجاذيب التي انتشرت أمام أبواب وتحت نوافذ الهلايلة، حتى دوار العمدة لم يسلم من آذانهم، كي يستخبر بقايا ما حُيئ له من أولاد العمومة.

مازال عجيزة واقفا أمام الدار منذ انتهاء الحريق ممسكا ببندقية أبيه ذات الروحين، يطلق منها صوب الهواء يتبعها بإطلاق تهديدات في الفراغ لمن جرؤ على حرق أمواله. في الصباح كان شيخ الحضرة بصحبة لأكى في زاوية منزلة بشونة الملحج. اتفقا على إخراج عجيزة من دور أبي الرجال الذي تلبسه منذ واقعة التربة وحتى اللحظة حفاظا عليه من جنون الذات وغرور القوة وسوء استغلال عبد المعبود. لم يعد لعجيزة ذلك التأثير في الوساطة بين لأكى والعمال. اتفق الشيخ مع رواد مقهى العمال على إهمال مرور عجيزة أو تحيته إذا ما مر بحصانه الذهبي. بيد أن الخطة أثمرت بعضا من أكلها لحظة مرور عجيزة عصر ذلك اليوم. كان على حصانه الذهبي وبجلبابه الأبيض وغطاء الرأس المصنوع من وبر الجمال. بيده خيزرانة يداعب بها عنق الحصان. لم يقف العمال كعادتهم ساعة مروره فتوقف ونظر ناحيتهم، فلم يقفوا وراحوا جميعا بين الشيشة والدومينو والمشروبات. نزل عن حصانه وطالت عصاته أول من التقاهم في الطريق التف حوله العمال ودفعوه بعيدا دون عنف مفرط أو سباب. كان جدك على مقربة قدرها جيدا، فظهر لتوه

وهو يضرب عبدالعظيم على مؤخرته وشاكر على قفاه والأرنب على ظهره. والكل يناديه: يا أبى لم تفعل شيئاً، فالتفت إلى عجيزة المندهب من ذلك التغير المفاجئ، وقال: اركب حصانك يا ولى ولا تهتم بأى شىء مادمت لك حياً. غادر عجيزة وابتمس جدك للعمل واتجه إلى الدار. فى الصلاة الفسيحة خلع شال عمامته ومارس طقوس الرقص حتى ناداه لآكى من نافذة السرايا المطلة والقريبة من شرفته التى فتحتها وتلقى خبر قدوم الخواجه يكامغلو بسعادة بالغة فقد عقد العزم وأجاد التخطيط مع لآكى فى أمر تجنيد الزرائب نار عبدالمعبود بمشاركة يكامغلو.

بيد أنكم أسرة تجيد التخطيط يا سعد. أخرج عبدالرحمن الاسطوانة وطبقها بين يديه فانشتت نصفين، فأعاد ثنى كل نصف فمزقه نصفين، ثم خبأ الحطام تحت الجلباب وارتشف من كوب اللبن وأخذ نفساً عميقاً ونادى العامل طلباً للحساب. تواعدنا اللقاء غدا بالمسجل كى نعيد الأندلس من خلال شاشة الإيمان.

فى قصر الحمراء أسكن. أرتشف من شهد الأندلس. الغرفة التى استأجرتها بالشيراتون، أجمل من غرف تلك الأزمنة بكل تأكيد. نمت على السرير وفردت ذراعى كما الصليب ورحت فى جبال السقف أعد الورود الحمراء والزرقاء. أخطئ فأعيد من جديد. جلست وخلعت جلبابى، فتكشفت عورتى لتوها. أين لباسى رحت أتساءل وأحاول التذكر؟! دهشة تملكتنى. هل يخلع الإنسان لباسه دون أن يدرى أين خلعه وأين أخفاه؟! من يضع ساتر عورته وتأخذه خمر الشهرة إلى النسيان، ربما تتخطفه الخفافيش

وتحنيه كأثني يضاجعها اللثام وأيضا دون أن يدرى. تذكرت غرفة الفندق المكتئب في أحضان محمود بسيوني، فارتديت الجلباب على عجل وسرت إليه.

الميدان هادئ وقد خلا من المارة والسيارات. مررت إلى جوار حديقة المنتصف التي خلت من محتوياتها. رأيتها في منتصفها يقفان وسط الظلام تبيتتهما مع تلك الإضاءة الآتية على استحياء من الأعمدة التي أرهقتها الثورة والثوار. يطوحان بأيديهما في الهواء ويهتز جسدهما مع كل حركة ويناديان وحدهما: الشعب يريد تغيير النظام، الجوسقي إلى جوار بركات كمجنونين يريدان إشعال الوطن بعد الهدوء ومحبي الإسلام. مررت أمامهما دون أن أحدثهما ظنا مني أنهما سيفعلان كما كانت الأيام التي خلت فلم يعيراني انتباهها رغم رؤيتهما لي. مازالا على موقفهما الذي اتخذاه عند سلام المسجد الحجرية. لم تنته الهتافات المزدوجة والغيضة إلا بعدما ابتعدت بالقدر المناسب لقدرة الأذن على الالتقاط. انتهى الهتاف من أذني ولم ينتهيا من التردد. حقا عدم إدراك الشيء لا يعني زواله. أنظر إلى أعمدة الكهرباء وأتابع رسم الضوء للظل وأمر بطلعت حرب. إلى جوار كشك الكهرباء عند مدخل المترو، فزعت من رؤية ثلاثة أطفال، خرجوا فجأة من خلف الكشك. بيد أحدهما مطواة من قرن الغزال والآخر يحمل زجاجة ممتلئة بماء النار والثالث يشير بيده: أخرج ما في جيبيك. اقترب مني صاحب المطواة وراح يحركها أمام عيني، ثم حلق في وجهي وتراجع للوراء وجذب حامل ماء النار من يده وصرخ في صاحب الإشارة قائلا: اجريا بسرعة فهو صاحب حسام. ولوا

هارين بين السيارات المتراسة إلى الرصيف، لم يتوقفا رغم ندائى: انتظر
 يا ولد. تذكرت دعوة أمى نقلا عن جدى شيخ الحضرة "شالله يا عيش". فى
 تلك اللحظة أخذت ارتعاشة غافر ويطعمون الطعام على حبه. أكلت فى
 طريقى محملا بوسخاتى التى قررت ألا تغادرنى. فللشوارع الحجرية قلب ميت
 وروح كافر. لن أعود إلى الموات. أعادنى إلى الحياة صوت طفل يبكى إلى
 جوارى تماما. امرأة وثلاثة أطفال. الباكى طفل فى الرضاع وأكبرهم لا يتجاوز
 الخمس سنوات. الأوسط نائم على الأرض مستندا بسنواته الثلاثة على
 فخذه إلى جوارها كيس أسود وزجاجة ماء. لماذا تجلسين هنا؟ سؤال غبى
 طرحته فأجابت بعذوبة الشوام وجميل سخريتهم: أنتظر الخادم حتى ينهى
 حجز الجناح بالميرديان. صَحِكْتُ. حقا صَحِكْتُ من قلبى ضحكة افتقدتها منذ
 زمن. قلت بدعابة: لعنك الله أيتها السورية الجميلة. تملكون روح طفل
 وعذوبة ناسك حتى فى الخراب. اسمح لى بأن أتى لكم ببعض الطعام.
 ابْتَسَمْتُ بعذوبة وأشارت إلى الكيس الأسود وقالت: أشكرك يا طيب
 أطفال الكشك لم يتركونى وأطفالى جائعين، ثم أشارت بيدها كأنها تحبى
 شخصا بعيدا. كان أطفال الكشك يظهرن رؤوسهم من بين السيارات
 وكأنهم يراقبون المرأة والأولاد تأمينا لهم. رجوتها أن تنادىهم، فاستجابت
 وأشارت إليهم فخلوا الجوار. فادى. أحمد. ماركو. قالوا أساءهم بالترتيب. بهم
 براءة وقسوة طيبة وعنفة. يداعبون الطفل اليقظ بخفة وحب. يزدحم رأسى
 بِمَتَى والمسيح "الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن
 تدخلوا ملكوت السموات" أخرجت من السيلة ورقة أجدت سحبا من

بين العملات، فكانت مئة دولار أمريكي. أعطيتها فادى صاحب المطواة. قلت هذه مئة دولار يمكنكم تحويلها إلى خمس مئة جنيه في الصباح. ضحكت السورية وقالت: خبيك الله يا مولانا. يزيد يزيد أيها النائم تحت اللحية والجلباب. دهشت من طريقتها في الكلام. الملابس والإكسسوار لم يدفعها إلى احترامى كما يفعل الآخرون. أعاد فادى الورقة، وقال: لن أستطيع أخذها، فهذا يغضب حسام وهو الصديق. أقسمت أنتى لن أخبره ورجوته الاحتفاظ بها، ففعل. التفت إلى المرأة وطلبت منها السماح بمرافقتى لفندق محمود بسيونى. أخبرتها بنيتى فى كفالتها وأولادها مدة إقامتها فى مصر. لن أسألكم ثانية، فهى مثل آلاف السوريين الفارين من القتال هناك. طلبت من ماركو أن يجلس مكانها ويحمل الرضيع، ثم وقفت واقتربت من وجهى وتفرستنى عن قرب، حتى ظننت بها سوءاً، كانت جميلة حقاً، بل هى فى الجمال أنثى، عينان سوداوان وشعر بنى وحليب يكسى الوجه. حمرة فى الحدين وجسد من عالم الجنيات. ليتها تطلب السوء. قالت: سأتى معك يا حمار. جراً فى قلب امرأة مشردة فى بلد غريب. بيد أنها كشفت حقيقتك يا سعد. حملت عنها طفل الثلاث سنوات وحمل ماركو الرضيع وسار الكبير برفقة فادى وأحمد. اقتربنا من الإشارة عندما ظهرت الدراجة البخارية والمثلثون. سرعتهم المجنونة وبنادقهم المرفوعة أفزعونى فاحتضنت الطفل، وطلبت منهم السرعة فى المسير. الدراجة تتأيل بسرعة نحو الميدان. بنصف دائرة استدار قائدها وعاد ناحيتنا. المرأة والأطفال فى سيرهم المعتاد دون توتر. أطالبهم السرعة فلا يستجيبون سينتهكون عرضك، قلت لها حينما

توقفت الدراجة جوارنا ونزل ملثمان. حاول أحدهما أخذ الطفل عن يدي والثانى عن يد ماركو، فصرخت حرام عليكم عاودت المرأة الضحك، ثم قالت ببلادة شديدة اتركه له. الموت والدمار والقتال يفقدون الإنسان أعز ما يملك. صدق القائل: إن جاء الطوفان إليك ضع ولدك تحت رجلك. أحكمت إحاطة الصغير واحتضنته بخوف ومازالت تضحك وأطفال الكشك يضحكون. أعطه الطفل يحمله عنك. لم أفهم من طلبها هذا إلا أنها مجنونة. شكرا أحبتي، قالت للملثمين وهى تشير بيدها مودعة إياهم، فسألها أحدهما: هل تريدن شيئا سيدة علينا. هزت رأسها وعاودت الشكر، ثم أشارت إلي قائلة بابتسامة جميلة: هيا يا حمار. غادرت الدراجة المترنحة باتزان، وسرت بينهم باتزان مترنح حتى وصلنا باب الفندق توقف الأطفال ولم يتجاوزوا، فسألتهن المرافقة، فضحك ماركو قائلا: لا نستطيع يا شيخ، فنحن أحيانا نسرقه. ضحك الثلاثة وشاركهم علينا الضحك فَحَمَلْتُ عن ماركو الرضيع وصعدنا. موظف الاستقبال مستند برأسه على المكتب ويغط فى نوم عميق. لم يشعر بدخولنا ولا ببكاء الرضيع الذى جلست لإرضاعه على مقعد متهاك. اختلست مقدارا من ثديها الندى وهزرت رأس الموظف فاستيقظ بتثاقل وفرك عينيه: مرحبا مولانا. طلبت حجرة مزدوجة ودفعت قيمة شهر من الإيجار مقدما. دَخَلْتُ والموظف إلى الغرفة وأرحت الطفل على السرير. ما زالت علينا ترضع طفلها بينما نام الأكبر على مقعد بجوارها، فحمله الموظف ووضعه إلى جوار أخيه. نَهَضْتُ بطفلها إلى الداخل ثم خرجت وجلسنا فى الاستقبال الضيق. ذهب الموظف إلى المكتب وأسند يديه استعدادا

للنوم، فَطَلَبْتُ أَنْ أُعْطِيَهُ مَقْدَارَ شَرَاءِ عِلْبَةِ سِجَائِرِ مَارْلَبُورُو وَعَشْرَةَ جَنِيَهَاتٍ أُخْرَى مُقَابِلَ الخِدْمَةِ. أَشْعَلْتُ آخِرَ سِجَارَةٍ فِي عِلْبَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَمَا خَرَجَ مُوَظَفُ الاسْتِقْبَالِ: أَنْتِ لَا تَصْلَحِ لِأَدَاءِ هَذَا الدَّورِ. قُلْتُ: أَيْ دَوْرَ تَقْصِيدِيْنَ. نَفَثْتُ بَعْضًا مِنْ دِخَانِهَا فِي وَجْهِهِ وَسَخَّرْتُ: دَوْرَ مُوْلَانَا يَا.. أَعْتَذِرُ لَمْ أَعْرِفْ اسْمَكَ إِلَى الْآنِ. تَرَدَّدْتُ قَلِيلًا بَيْنَ سَعْدٍ وَأَبُوْمَالِكِ الْفَقِيرِ، وَيَكُنْهَا أَدْرَكْتُ حَيْرَتِي، فَقَالَتْ الْحَقِيقِي وَلَيْسَ الْحَرَكِي يَا مُوْلَانَا. قُلْتُ: سَعْدُ. نَهَضَتْ وَوَقَفَتْ أَمَامِي ثُمَّ أَزَالَتْ رِبَاطَ الْعِمَامَةِ وَأَدَارَتْ الشَّالَ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى وَيَبْدِيهَا رَاحَتِ تَدْلِكُ خَدِي ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا فَتَنَاوَلَتْهَا وَسَرَّنَا إِلَى الْغُرْفَةِ. كُنْتُ فَرِحًا بِسُوءِ نِيَّتِهَا الْمَفَاجِئِ. أَدْخَلْتَنِي الْحَمَامَ وَأَضَاءَتْ جَمِيعَ أَنْوَارِ الْغُرْفَةِ وَضَبَطَتْ وَجْهَتِي أَمَامَ الْمَرَاةِ وَقَالَتْ: مَنْ تَشْبِهُ الْآنَ؟ قُلْتُ: عَمْرُ الْمُخْتَارِ. أَعَادَتْ لَفَ الْعِمَامَةِ وَعَبَثَتْ بِأَصَابِعِهَا فِي لِحْيَتِي ثُمَّ أَطْفَأَتْ بَعْضَ الْأَضْوَاءِ وَسَلَّاتَنِي مِنْ تَشْبِهِ الْآنَ؟ انْدَهَشْتُ مِنَ التَّحَوُّلِ اللَّحْظِيِّ فِي الشَّخْصِيَّاتِ بِفَعْلِ يَدَيْهَا وَالضَّوْءِ فَأُجِبْتُ: كِفَارُ قَرِيْشٍ فِي الْمَحْكَوَاتِ الْمِصْرِيَّةِ. أَعَادَتْ اللَّعْبَةَ وَأَنَا مِنْدَهْشٌ مِنْ احْتِرَافِهَا وَإِجَادَتِهَا. فَصَرْتُ مَعَ كُلِّ حَرَكَةٍ شَخْصِيَّةٍ جَدِيدَةٍ حَتَّى كَانَتْ النِّهَايَةَ، أَمِينَةُ رِزْقٍ فِي دَعَاءِ الْكُرْوَانِ أَطْفَأَتْ الْأَضْوَاءَ إِلَّا مَا يَحْمِلُ بَصِيصًا لِلْأَطْفَالِ النَّيَامِ، وَجَلَسْنَا فِي الاسْتِقْبَالِ سَالَتَنِي بِجَرَأَةٍ شَدِيدَةٍ هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَضَاجَعَنِي مُقَابِلَ مَا دَفَعْتُ؟ تَلْقَائِيًّا أُجِبْتُ بِالنَّفْيِ الْقَاطِعِ دُونَ شَعُورِ بَقْسِمَاتِ وَجْهِهِ الْمُتَوَتِّرِ. فَطَرَحَتْ سَوْأَلًا جَدِيدًا وَهَلْ تَرْغَبُ فِي ذَلِكَ دُونَ حِسَابَاتِ الدَّفْعِ؟ هَدَأْتُ قَلِيلًا وَهَزَزْتُ رَأْسِي بِالْإِجَابِ ابْتَسَمَتْ بِمَكْرٍ

من أدرك شيئاً لا أعرفه عن نفسى وأعادت: وإن رفضتك هل يغير ذلك من موقفك؟ لم تكن مهمّة إجاباتى. فقط تتابع قسماى وحركات جسدى.

أنت لن تصلح لهذا الدور يا سعد. أنت رجل طيب ومثلك لن يجيد ألعاب طاولة العهر. عدت إلى سعد الشوارع الحجرية. وضعت يدي على وجهي ومررتها عليه من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل مرات ومرات، كي أخرج عن ألم أصابني فجأة. وقفت وانحنت على عمامتي وقبلتني، ثم جلست ووضعت يدها على كتفي وهمست: لا أقصد إهانتك يا أخى فأنت رجل طيب وإن كان الناس قد منحوك الدور عن طيب خاطر، إلا أن إتيان العهر والاستمرار فيه يتطلب مهارات خاصة. ربما تعرف شيئاً عن الإكسسوار لكنك تجهل لغة الجسد وتجهل... رفعت رأسي ونظرت ناحيتها في تحد وقلت أعرف الضوء والظل والديكور أيضاً. من جديد عادت السخرية إليها وكلمتني حتى ظننت جدى بركات هو المتكلم والجوستى هو الناصح وعم رؤوف هو المنقذ. قالت: قراءتك منقوصة يا سعد، وإلا كيف تبينتك للتو. دخل الموظف بالسجائر، فشكرته بركة. قلت سأدخل غرفتي وبعدها سأغادر. نهضنا وسرنا سوياً على الممر حتى توقفنا عند الأبواب. فتحت باب غرفتي ورددته قليلاً عن عينيها وأخذت اللباس والاسطوانة. عدت فأغلقت الباب ولبست اللباس وأودعت الجلباب الاسطوانة وخرجت. في منتصف الباب بين الحجرة والممر توقفت وشكرتني باحترام وكأنها حقاً قدرت الجميل بشكل مفاجئ وطلبت عنواني البريدي كي ترسل ما عليها من ديون خلال شهر على الأكثر متناقضات صدمتني بهم تلك

السيدة التي لم تتجاوز معرفتي بها الساعتين أدركت في عامي الخامس والعشرين أتى بلا عنوان في مدينة بلا قلب عدلت عن سؤالها بعد متابعة جديدة للغة جسدى التي تعرفت عليها منذ قليل فطلبت رقم الهاتف وأخبرتني بأنها ستتصل فور شراء هاتف غدا أو بعد غد طلبت منها الانتظار حتى أخرج إلى الاستقبال وأدونه لها على ورقة. قالت: يمكننى حفظه في الذاكرة. سجلت رقم هاتفى وخرجت متعجبا لشقتها في رد المبلغ وشراء الهاتف في موعد لا يناسب لاجئة أدركتها في حضن الرصيف تركت المفتاح على المكتب إلى جوار رأس النائم وعدت إلى شيراتون. بت ليلتى أرقا بين صحة كلام علياء وإخفاقي مستقبلا في أداء دور الفقير، وبين ضحالة معلوماتي عن الأندلس، وبلادتي في استرجاع طفلى من حضن الكافرة. لكن شيئا لن يثني عن النجاح. فنفضت عنى هلاوس الليل ودفعنى الأرق إلى فتح المشاهد ومتابعة محطة حسونة الشهيرة عسانى ألمح خطا مغيرا أبتدئ به الظهور المنتظر. أخذنى شريط الرسائل الأحمر إلى القراءة - أنا منى من الجزيرة. مؤمنة صالحة. أرغب فى زوج يتقى الله - الرسالة تكررت أربعاً خلال دقيقة واحدة. كانت أكثر الرسائل التى شغلتنى دون غيرها من رسائل تحمل أرقام هواتف لعلماء الفلك والتنجيم وفك السحر وتأخر الزواج وزيادة الرزق. رسائل أخذت وظائف الإله الذى لم يتخذ موقفا تجاه هذا العبث. أتى الرد على المؤمنة بعد دقائق - أنا جاسم من الكويت. زوج يتقى الله. رقم هاتفك يا أخت منى - دقائق تذهب وأخرى تجيئ وسعر الرسالة خمسة جنيهات. منى تعاود الإرسال - رقمى بالكنترول. تفضل - مؤمن

ومؤمنة يتواعدان أمام العالم دون خجل وقد ألبسا التواعد لحية وإيمانا وتقوى. استعذت بالله من الشيطان الرجيم وعنفت أفكارى على السوء الملازم لرأسى. وما يدريك لعلهما مؤمنان حقا. اقتربت الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل والنوم يعاندنى.

للاتصال بقناة المؤمن تابع الأرقام على يسار الشاشة. إعلان دفعنى وعناد النوم إلى الاتصال بالكنترول. بعدما حيانى الصوت الإلكتروني بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، طلب من المتصل انتظار التحويل إلى مسؤول الكنترول. ظلمت منتظرا دقيقة أخرى. أحالنى بعدها إلى الكنترول. كان أيضا صوتا مسجلا يخبرنى بجديد أدعية مولانا حسونة. عشر دقائق بين التحية والنصائح والأدعية وخمسين جنيا فقدتهم من رصيد الحساب حتى حصلت على رقم المؤمنة. أمسكت الهاتف وترددت بين الاتصال ومحاولة النوم فدفعنى الأرق إلى تجربة الأرقام.

صوت المؤمنة مزيج من الطهر والعهر أتانى فى البدء بالسلام، فحييتها بما أحفظ من لهجة أهل الخليج. بعد التحية والتعارف وسكنها فى الدقى، تغيرت ضحكاتهما إلى غنج عاهرة مدربة على إيقاظ عفاريت الظلام وقالت: مهرى خمسمائة دولار إن كنت ترغب فى الزواج الليلة. قلت: آتيك أم تأتى إلى؟ اتفقنا على مجيئها بعد نصف ساعة وأن تتسلل إلى الغرفة سرا. ضحكت وأخبرتني أنها تحترف التستر حتى فى وضخ النهار. خلعت عنى العمامة والجلباب ودخلت إلى الحمام مجربا حركات يد علياء على لحيتي وخدي أثمرت التجربة عن إنتاج شاب يجيد حفلات التنكر فى فيلات مصر

الجديدة. فتحت الباب بعد طريقة واحدة اتفقنا عليها. خلعت نقابها فور الدخول لم أتبينها جيدا فى الضوء الخافت الذى تعمدت توزيعه بالغرفة بما لى من قراءات سابقة لداڤنشى. تجردت من ملابسها دون حديث بينها، ثم مدت يدها فاقتربت حتى ألامسها فأبعدت يدى وقالت المهر. استدارت بجسدها حتى أصبحت فى مقابل مصباح منير فتبينت الصليب فى رقبته. سألتها ما اسمك أيتها المؤمنة؟. قالت: أم عبدالرحمن. اقتربت من وجهها ففرغت من هول ما رأيت، فأخرجت على الفور من سيالة الجلباب المطروح أرضا، المبلغ المتفق عليه ودعوتهى للانصراف. بدت أمام الضوء المسلط على وجهها ورقبتها مثل غراب تنف الجرب ريشه فسقط فى الوحل فور الطيران. قبيحة غبية، لكنها تصلح للعمل فى الإذاعة كقارئة لأخبار الحب وعذابات العشاق. أَخَذْتُ المبلغ وَتَوَجَّهْتُ لنوها إلى الباب وهى تعدل من وضع نقابها ثم التفتت ورفعت النقاب قليلا عن فمها وبصقت، ثم جذبت الباب خلفها بعنف.

صوت أدعية حسونة مازال رطبا عبر الشاشة التى نسيت إغلاقها. أدعية جديدة ولمذاقها حلاوة فى الأذنين، لكنها على أية حال ليست فى الصحيحين والأثر. إذأ هذا جائز. قلت لنفسى وأنا أطرح جسدى على السرير بعدما أطفأت الجهاز ورحت أفكر فى أدعية أختتم بها حلقة اليوم. لست موهوبا فى التأليف، ولو اتصلت بعادل كى يرسم لى قصيدة من رحم الأسماء والصفات لن يفعل، فالعلاقة بيننا قد توترت. فجأة أخذتنى الذاكرة إلى حلم بعيد يمر كما الضباب. كنت صغيرا فى الخامسة أو السادسة على الأكثر،

وجدت خالدة تجلس على خرائب بيت الحضرة وترفع يديها ورأسها بالدعاء "اللهم يا فارح الفرج يا من أعلى الدرج يا من فتح البيضة للكتكوت فخرج. افرجها على خالدة بفرج منك يا الله". اعتدلت على السرير واستويت جالسا القرفصاء واضعا رأسي بين يديّ وحاولت التوليف بين دعاء جدتي وما أذكر من قراءات منقوصة - اللهم يا فارح الفرج يا من أعلى برحمته الدرج وفتحت البيضة للكتكوت فخرج - توقفت وأعدت مرات حتى أدركتني أغنية لعبدالحليم حافظ، فعدلت من صيغتها قليلا وأضفت - ورزقت الدودة في قلب الحجر- ما أكثر تعدد أعمالك فإنها على الناس خافية. يا أيها الإله الأحد الذي لا يوجد بجانبه إله - هزرت رأسي بالنفي كي لا أستخدم هذا النص الآتي من كتاب موقى الفراعين الكفار. ولم لا وهو يشهد بالوحدانية حتى قبل بعث الرسل والأنبياء. نص أخذه مؤلف العهد القديم وكتبه مزمورا ورقمه " 104-24" لما لا وكل في فلك المتاهة ساجح. أليس هذا النص أرحم وأكثر إيمانا من صورة الإله الطفل. عندما عاد أبي رحمه الله من الحج، فتح الحقائق وأسرع بتعليق صورة طفل عار، حول عنقه مسبحة وأمامه إناء لبن والطفل على الأرض يضع إصبعه في الإناء. صورة كان لابد لكل حاج أن يشتري منها نسخة ويعلقها على جدار غرفة الاستقبال قبل أن يأتي الناس لتهنئته ولابد أيضا أن يلفها بمسبحة كبيرة تأخذ جانبا على شكل مثلث أعلى البرواز وإلا فلن يصدق الناس ومن المؤكد أنه سيتهم بالاختفاء في بورسعيد أو مرسى مطروح حتى انتهى موسم الحج وعاد محملا بكذبه لأنه لم يعلق الصورة أذكر تلك المشاجرة التي قتل

خلالها عم إبراهيم جارنا بعدما عاد من العمرة وعلق صورة الطفل، فسخر منه أبو أمية وقال: اتق الله أنت لم تحج. فقط كانت عمرة. لماذا إذاً علقت الصورة يا كاذب على الله؟ بعدها رحل عم إبراهيم إلى مقابر سيدي غانم وإلى جواره تمدد أبو أمية بعد ما حكم عليه بالإعدام. وظلت الصورة على الحوائط حتى اكتشفت ذات بحث على مولانا جوجل أن الصورة لإله الهندوس كريشنا. لم يتأدب القلق في حضرتي مثلما فعلت علياء. بيد أنني مثل مبتدئ. فقسوت على أرقى بحمام بارد وأسلمت نفسي للسريير عاريا بعدما طرحت ملءة رقيقة على منتصف جسدي الأسفل

فرناندو الأول يقترش بطن إيزابيلا ويضاجعها بقسوة بين فرش من حرير تغوص بجسدها في مراتب من الزغب الناعم الوثير. الأب توماس دى تركيادا الواقف إلى جوار سرير ليلة الدخلة بين ملك أرغون وملكة قشتالة يصب في منتصف مؤخرتها خمرا مقدسا حينما تعتلى فرناندو. ينحنيان ينفردان. يتقلبان، والأب يرسم بالصليب مباركا. أرى جورج في زاوية بغرفة الملك، يرقب الأب المقدس، ويتعلم الدرس المهيب.

محمد بن أبي الحسن يقترش بطونا ثلاثة على سرير من حرير، وحسونة إلى جوارهم يصب الخمر في مؤخرة الأمير. قصر الحمراء من الداخل لم تخل جدرانها من نصوص تحمل آيات للخائفين وتحاول بعث الروح فيهم. في مدخل القصر ترى الجدران مزينة بآية متكررة "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" في الداخل نصوص تمنحك فرصة للنوم بضيق "الله غدة لكل شدة" على كل جدار من جدران القصر نص من النصين "إن تنصروا.. الله عدة"

حتى غرفة نوم الأمير ومضجع سرائره. نسان لا يأخذان الإنسان إلى التقوى بقدر ما يحملانه إلى الرعب خشية ملوك الأسبان الكاثوليك. سيف الأمير الزغل في مؤخرة أخيه يعبث، وحسونه يولى هاربا.

أبو عبدالله الصغير ينحنى أمام إيزابيلا ويسلم مفاتيح القصر والمدينة. الموت للفقراء والدماء فى الطرقات والكوايس تطاردنى حتى الصباح. خرجت محملا بما علق فى رأسى من حكايات الأندلس. توجهت إلى مكتبة مديولى واشترت كتابا عن تاريخ غرناطة، ثم سرت إلى فندق محمود بسيونى. استقبلنى موظف الاستقبال بترحاب وقبل أن أبادره بالسؤال، أخبرنى بمغادرة علياء منذ ساعة. لمحت طفلها الكبير يلعب فى الممر، فنظرت ناحيته، فقال الموظف: الأطفال فى صحبة خالتي بديرية. تفضل بالدخول والاطمئنان بنفسك الأوسط على السرير يعتلى ظهر المرأة من الخلف وهى تعنفه برقة، بينما الصغير على حجرها تلقمه مرضعة صناعية. هى بائعة المناديل عند ناصية عبدالحالق ثروت. كيف تجيد علياء العلاقات بتلك السرعة والسهولة؟ سؤال خطر فى ذهنى قبل أن تبادرنى المرأة بالتحية. قالت: السيدة ستأتى بعد العصر إن شاء الله. ابتسمت لها وهزرت رأسى ثم أخبرتها بأننى فى انتظار السيدة خلف المسجد عند مقهى البستان. التفت مغادرا، فسألتنى: خلف المسجد الكنيسة ووكالة أبناء الشرق الأوسط، فى أى الأماكن بالتحديد؟ قلت فى مقهى البستان، فردت بـ لماذا قلت خلف المسجد؟ من جديد أكتشف فشلى كممثل مبتدئ حتى بائعة المناديل اكتشفت عجز اللغة عندى وسوء تلاعبى بالديكور المقدس. أردت أن ألقيها

درساً كما عامل مكتب حسونة، فنهرتها: غطى شعرك يا امرأة ووارى سوء وجهك. رأيها تضحك بصوت مرتفع وتهدهد الطفل الرضيع، ثم قالت: صلّ على النبي يا شيخ. على عجل قلت صلى الله عليه وسلم، فأعادت بوقاحة: غطها وأنت نائم كي لا تأخذك الكوابيس. ماذا تقصدين يا منحلة؟ ضحكت بعهر، وقالت: حمراء.

تحسست مؤخرتي التي كانت تقصدها بدرية ونعتها بالحمراء. غادرت إلى مقهى البستان. كتاب غرناطة ممتلئ ورأسي تأبى إلا حفظ بعض أسماء الملوك والأمراء الذين كنت أعرف بعضهم من قبل وأجهل أكثرهم من بعد شواشي الحكايات أعرف... العمق ممتلئ والوقت يداهمني. البث مباشر بعد صلاة العشاء، وعلياء ستأق بعد العصر. أى شعوب الأرض نحن، وحدنا من يعطى المواعيد والأوقات صفة الصلاة. بعد المغرب. قبل العشاء. فى صلاة الفجر. أى إسلام إذاً الذى هرب من بلادنا ثم عاد. الإسلام فى أمريكا كالإسلام فى لندن كالإسلام فى سمنود وضواحيها. دين للحب والسلامة والسلام، لكن المسلم فى بلادهم غير متسخ بشوائب التجار. لعنك الله يا سعد تأخذك تقارير عقلك الفارغة بعيداً عن الحلقة. عدت إلى كتاب غرناطة وعاودنى عناد الفهم حتى رحلت وآذان العصر ودقات هاتفى النقال.

- صباحو.

صوت علياء الندى يأخذنى إلى حمص وحلب والشام بعيدا عن جيش المعارضة والموالاة. عن الرصاص والموت والدمار. عن التكفير والتخوين وقيء الكلمات.

- مرحبا علياء.

- وينك يا حمار.

- على مقهى البستان. اسمعى جيدا. تمشين فى اتجاه التمثال...

قاطعتنى فلم أكمل، وطلبت أن أرفع يدى عاليا كى ترانى، فهى بالجوار دون وصف. رفعت يدى، فقالت: رأيك وأغلقت.

أتت فى ملابس جديدة يتساقط شعرها البنى على ظهرها. الفستان يكشف عن ساقين من الماس. مدت يدها وسلمت، ثم مالت ناحية أذنى، وقالت: أقبلك أم أجلس كى لا أفسد الدور؟ جلسنا مواجهين تفصل المنضدة بيننا. سألتنى عن اسم النادل، فأخبرتها باسمه. نادى عليه وكأنها تعرفه منذ زمن. أتاها مسرعا على غير عادته التى خبرتها من قبل. ابتسمت له وسألته عن صحته وأحواله. لمحت الدبلة فى بنصره الأيسر، فاطمأنت على زوجته والأسرة الكريمة والنادل يجيئها بمجمية صديقين قديمين. طلبت قهوتها المضبوط التى يعرفها كما قالت له، ثم عاودت الابتسام. علياء أنت هنا منذ زمن!! لم كنت على الرصيف بالأمس!! سألتها منفعلا ومندهشا من سذاجتي فأمسكت الكتاب وقرأت العنوان، ثم وضعته على المنضدة وهزت رأسها فتمايل الشعر على كتفها الأيسر. أقسمت بهدوء أنها لم تر مصر فى

حياتها إلا ليلة البارحة. لها أصدقاء هنا عبر مواقع التواصل الاجتماعي لكنها فقدت كل ماتملك في تفجير منزلها، حتى الهاتف والحاسب الشخصي لم يسلما. لم أكن لها مصدقا، فذهبت برأسى إلى أطفال الكشك والمثمين فأدركتني بصاعقة من فهمها المبتسم: من لا يجيد فن الحياة لن يحسن استقبال الموت يا سعد. وكأنها تذكرت شيئا قالت قبل أن أنسى تفضل. أخرجت من حقيبتها الصغيرة مقابل ما دفعت لها في الفندق. أخذنى تفكيرى فى طريق واحد لا ثانى له، فمدت يدها وضربتني بسرعة خاطفة على جبهتى. لعنك الله يا سعد الحمار. لماذا تفكر بهذا ولا تفكر بهذه؟ فى الأولى أشارت إلى ما بين فخذي وفى الثانية إلى رأسى، ثم تداركت بـ : الحرة لا تأكل بشديها وأكملت، كى لا تأخذك الظنون يا أحمق. وجدت عملا بمدينة الإنتاج الإعلامى واقترضت من صاحب المحطة أجر شهر مقدما. ذهبتُ إلى البارحة ووصفها لى بالحمار ويديها المحترفتين فى ضبط الملابس والإكسسوار والضوء والظل فصدقته واعتذرت بخجلا. وضع النادل القهوة وقبل أن يغادر نادته، فاقرب وضعت يدها فى يده. لمحت عملة ورقية يحكم النادل إخفاءها وهو يشكرها بشدة وحمية. قالت بلا داع أو مبرر: انتظر ياسعد، كل دقيقة تناديني علياء علياء، وكأنها ترغب فى تسمية نفسها فى أذى العامل الذى لم يتعد كثيرا. بدأت تحدثنى عن كيفية أدائى داخل الحلقة، فقاطعتها: ماهو عملك بمدينة الإنتاج؟ أجابت بسخريتها اللذيذة: داعية إسلامية إن شاء الله. مخرجة يا سعد. مخرجة كما كنت فى سوريا. عادت إلى حلقة الأندلس. سألتنى عن "الإسكربت" فلم أكن أعرف ما تقوله فهزت رأسها ثانية فمال

شعرها على الكتف اليمين. تأكدت من جهلى التام فيما عدا بعض العناوين التى كنت أحفظها وأرددها بين الأصدقاء وبأعنى الرصيف ومن يطلب نصيحتى شرحت بتفاصيل لم أفهم منها سوى اليسير. تعرفت منها على "الإسكربت" ومعناه المخطط المكتوب للإعداد والذى أسميناه تعريفا "سيناريو"، وحركات الكاميرا الواسعة والضيقة والمتوسطة والمحورية. عن وضع الضوء الذى يصنع من القبيح وليا لله من فرط الوضاعة والنورانية على وجهه. أَكَّدَتْ قيمة الألوان ونصحتنى بكتاب "سيكولوجيا" ادراك اللون والشكل للطبيب العراقى قاسم حسين صالح، والفضائيات العربية الطريق إلى الجهل للكاتبة المصرية طلال سيف، وعددت كتباً وأسماء كثيرة. فتدخلت مقاطعا وكأنتى فى متاهة: وماذا أفعل فى حلقة اليوم؟ أجابت: فى مثل هذا الموقف ولأنك تائه على المخرج أن يضع فى الخلفية صورة متحركة لقبة الصخرة ويكتب وسطها باللون الأحمر واسلاماه. وعن يسارك مينيتور يعمل على مشاهد متحركة للحج أو الصلاة بالمسجد النبوى. تذكرت يوم زرت حسونة ووجدت تلك المفردات بمكتبه، فأيقنت احترافها وجلست أستمع بشغف وهى تشير على ضرورة أن يكون على يمين وجهى كشافا بقوة ألف كيلو، وعن يساره مشابه وفى الوسط ثالث وإضاءة خافتة فى الخلفية، وما عليك سوى الصراخ فى مبتدى الحلقة كى تثير الانتباه القسرى، وإذا ما تغلت منك الموضوع صرخت وأمرت المشاهد أن يصلي على النبى وتطلب من المخرج فاصلا بإشارة جسدية متفق عليها. فيضيع جمهورك فى أحشاء الانتباه القسرى للصورة الصارخة والصوت المرتفع

وبالهناء والشفاء للمؤمنين. انْتَفَضْتُ واقفا بلا وعى وقبلتها من رأسها ثم جلست، فالتقطتني أعين المجاورين، فلم تهتم وضحكت سألتها أن تعمل معي بالبرنامج ولها ماتريد. لم تجب. فقط للممت هاتفها وحقيبة يدها عن الطاولة ونهضت، فنهضت معها وسرنا ناحية الفندق. أَلَقْتُ التحية على النادل الذي رفع صوته: مع السلامة يا أستاذة علياء. تعرف رواد المقهى على اسم الجميلة دون عناء ومضيئا من ممر ريش إلى طلعت حرب ولم تجب عن سؤالى الذى كررت. تَوَقَّفْتُ وَرَسَمْتُ وجهها بالسخرية، وقالت يا سعد: الحرة فى هذا الزمان تأكل بشديها ولا تتاجر بدينها، سحقا للزناة.

اتَّخَذْتُ طريقها إلى الفندق واتخذتُ طريقى إلى التحرير، ومنه أخذت "تاكسى" إلى مدينة الإنتاج الإعلامى. الطريق إلى المدينة مغلق بجواجز خرسانية وأسلاك شائكة. على مقربة من الباب الرئيس. خيام وحشود ومراحض تم إنشاؤها حديثا. آلاف المعتصمين يلتفون على قدر إدراك حواسى النكدة حول قائدهم. حركتهم دؤوبة وجلاليتهم مشمرة وسواعدهم فى حراك. لحاهم متباينة بين طويل ووسط، أو كما تعلمت فيما بعد "توتال ومديم" بلغة المناقاة اعتصامهم أكثر حماسا من اعتصامات ثوار الميدان. لم أر فى حياتى مثل هذا التجمهر حول قائد لم أتبينه من فرط الزحام، فاقتربت حتى أشرف برؤيته. من بين العشاق والمريدين مررت بحبث حتى تقدمت الدائرة الكبيرة أخذتني الدهشة حينما رأيت هذا الحشد الرائع يلتف حول جاموسة مذبوحة يعملون على تهيئتها لطعام العشاء، فَعَلِمْتُ دون ذكاء سبب إنشاء المراحض يوم الاعتصام. من خيمة بعيدة عن الزحام خرج

رجل وبرفته عشر شباب شداد غلاظ لا يعصون القائد على ما يبدو من أسلوب إحاطتهم له. أفسح المتجهرون الطريق لمروهم.

- يخرب بيتك - حتى مدينة الإنتاج التي تأكل منها عيشك لم تسلم من الأعيك. قلت عندما رأيت حسونة قادمة برفقة الشداد الغلاظ. فجعلت نفسى لعينيه هدفا، فتجاوزنى بإهمال وسط مملكته المفزعة. وقف على منصة مرتفعة قليلا عن الأرض وأخبرهم بعودته بعد انتهاء حلقة اليوم عن الكفار والإعلام الفاسد، فراحوا يكبرون. أخرجت نسخة من اسطوانة غادة التي لازمت سيالتي وأشرت بها إلى وجهه، وكأنه تفاجأ بحضورى، هتف وهو يشير ناحيتى: رحبوا معى بفضيلة أبو مالك الفقير. التفتوا جميعا ناحيتى وكبروا. سرت حتى المنصة واعتلتها. عندما صاغت حسونة وعانقته همست فى أذنه: لا تتجاهلنى ثانية يا شيخ الخرائب، فابتسم ولم يعقب. كانت فرصة سانحة لتجربة درس علياء بشكل عملى دون ارتجال كما كان بالميدان، حتما سيفيد اللقاء الجماهيرى فى تجاوز رهاب المنقالة والمُسجَل بدأتُ بنصيحتها وصرخت: الإسلام يضيع، والإسلاماه فرددوا: والإسلاماه أعدت بحماسة: الأندلس ضاعت والإسلاماه. هتفوا وإسلاماه. رحت أصرخ وأهتف، وهم يرددون ويصرخون..

- قتلوا المسلمين.

- وإسلاماه.

- انتشر الزنا.

- وا إسلاماه.
- العلمانيون.
- وا إسلاماه.
- حلبة وترمس.
- وا إسلاماه.

حينما وصل الهاتف إلى الحلبة والترمس نوهت عن حلقة اليوم واستأذنت كي أذهب وشيخنا حسونة إلى القناة. كبروا وهللوا وفتحوا الطريق لمرورنا وحسونة مغتاط من حضوري بين الجماهير وتفاعلهم معي. عند مدخل المحطة كان يجلس. رجل على مشارف الستين من العمر. يملك وجهًا طيبًا أحرقته أشعة الشمس التي يعمل تحتها. تتوه سجمة صلاته الرقيقة على جلده المحترق على رصيف المحطة يبدو كثيبًا من وضع رأسه المنكس إلى الأرض ويديه العابثتين في الهواء بلا هدف. كان يتحدث إلى نفسه وكأنه يتكلم إلى شخص أمامه. عندما شعر بنا إلى جواره انتفض واقفاً، ثم رفع يده بالتحية ودب برجله اليمنى على الأرض كما يفعل العسكر للقادة. وقع قدمه يثير الشفقة من وهن بدا مع التحية المنكسرة الذليلة. قال موجهاً كلامه إلى حسونة: أكرمك الله يا شيخ أعد إلي جاموستي، فهي عهدة وأخذها رجالك وحتما سأسجن. جاموستي يا شيخ.

رضى الله عن صلاح أبوسيف وكأنه استبق العالم بسنوات من الضوء، قلت وأنا أتبع حسونة الذي أعطى ظهره للرجل، وعاش دور نبي الله

موسى ولم يعقب. المشهد نسخة مكررة من رائعة الزوجة الثانية. تحول العمدة إلى شيخ والعجوزة إلى عجوز ومحل الحلاق إلى مدينة الإنتاج. اعترض الأمن صاحب الجاموسة، فنادى بمذلة شديدة: "سابق عليك النبی جاموستی یا شیخ" سمعت صوت بكائه وهو يجلس أمام الباب. أخذتني شفقة مفاجئة فخرجت إليه وقد اتخذ هيئة كونجر ولید. بلقطة قريبة جدا "cup" لمح جزءاً من جلبابی، فرفع رأسه ومازال على هيئة الكونجر الرضيع. في عينيه استغاثة وعلى وجهه الأحزان. مددت إليه یدی، فأمسكها ووقف. لم لم بعضاً من أحزانه وأبدلها ببسمة ذل تدركها حتى العيون الرمدة، وانتظر الخلاص فأدركته حيناً ناداني فرد من الأمن: أسرع یا شیخ. اقترب موعد البث فسألته بسرعة وأنا أستدير ناحية الباب: هل أنت ابن الفنانة نبوية سعيد ثم دخلت بصحبة الأمن إلى المسجل ولم أنتظر الإجابة. مازالت نبوية سعيد تردد في أذني مشهدها الخالد: جاموستی یا عمدة وباب المسجل يحجب بقايا صوت الرجل جاموستی یا شیخ.

المكتب في المنتصف وملامح الديكور والإكسسوار وافقت رؤية علياء، لكن الضوء يأتي من أسفل إلى أعلى ولا أعرف لذلك سبباً. المفردات جميعها منضبطة من لوحة والإسلاماه وحتى تفاصيل الألوان. قلق أصابني من وضع الضوء، فخرجت أستفسر عن دورة المياه. أرشدني الأمن، فدخلت المرحاض وعندما توثقت من خلو المكان، خبرت علياء ففاجأتني بردها أن هذه مؤامرة مدبرة حتى أظهر على الشاشة مثل قرد أوشیخ. طوقتني علياء بجميل قراءتها المكتملة فحملت كلامها محل الثقة، في أن وضع الضوء من

أسفل إلى أعلى يعنى القبح والتشوه. خرجت من المرحاض مغاضبا حتى أتيت المسجل. المخرج يضبط وضع المنقالات الثلاث والمنقالة المحمولة على عكاز يتحرك رأسيا. سمعت عاملا يقول لصاحبه اضبط "الكرين" أشار المخرج بأن أجلس خلف المكتب لعمل تجربة للصوت والصورة، ثم أمر المصور الذى يركب جهازا يشبه فرع شجرة جميزة العجمى المائل ناحية الماء. عدل من وضع جسدك على "الشريو" ثم طلب منى التسمية كي يختبر الصوت، ففعلت ثم نهضت عن المكتب والمخرج يشير بالإبهام ناحية حسونة عبر الزجاج الفاصل بين المسجل وغرفة التحكم "الكنترول روم" رأيت حسونة مبتسما. على وجهه سعادة المخادع الذى ينهى الصيد فى الأشهر الحرم من خلال فخ، كي يقنع الرب بأنه لم يرتكب خطيئة. قصة أصحاب السبت رأيتها حاضرة فى وجهه المنتشى بالقضاء على حلمى ليلة الظهور. ابتسمت إليه ببلاهة، فأشار بإبهامه إشارة الجودة. تحولت عنه إلى مصدر الإضاءة السفلى ويعنف ركلته، فتطير المصباح وأحدث صوت انفجار خلف معه هروب المخرج والعمال إلى زاوية آمنة. سقط المصور المعتلى "الشريو" فكسرت ذراعه. دخل حسونة وبعض المرافقين. راح يستفسر بمكر عن سبب الفعل وانفعالى المفاجئ. بهدوء نظرت إليه من طرف بعينى، ثم إلى المخرج ولم أفسر. عدت إلى المكتب وطلبت من مدير الإضاءة كشافات علياء بزوايا المعرفة المسبقة. للتو خرج حسونة كجرذ هارب تبعه المخرج وخلا المسجل من العمال. ضبط المدير مصادر الضوء، فطلبت عبر مكبر الصوت أن يضعوا "مينيتور" فى مواجهة كي أختبر الصورة بنفسى. اختفى

حسونة من ناحية الفاصل الزجاجى وانتهت مراسم إعداد المسجل، وبالله سميت وعلى النبی صلیت وبدأت الصراخ، فتبعته بالفاصل، فأدركته بالتكفير وزينته بالبكاء على الماضى. فوجئت باتصالات هاتفية غير متفق عليها تسألنى الفتوى والمشورة، فأقسمت برأس ميكافلى أن أستمّر بلا خوف ولو سئلت عن لون العرش وشكل الكرسي لأجبت. فالحكاية كلام، واللغة عندنا مثل كلبة البرعى فى سوق قريتنا يأتيا الكلاب الجائعة إذا لم يجدوا فى الطريق كلبة ضالة تبغى النكاح، فضاجعت اللغة وعلوت وارتقيت ورقيت وأجبت كما الأئمة حتى الفاصل و"تتر" اختتام وتصفيق من غادروا "الكنترول" لتنهى بالنجاح. وحده حسونة من غادر دون تهنئى. أدركته وسط خيام الاعتصام وقد انتهوا من جاموسة العامل المسكين، وأحلوا محلها جملا ينتظر الذبح فى الصباح. الفرصة لن تأتى مرتين، وإن كثر عدد الحمير، فلا بد أن يكثر عدد من يركبهم نقلا عن جدتى خالدة. وقفت أعلى المنصة وصرخت باسم دين الله سنبنى مركزا إسلاميا لعلاج فقراء الصومال. تكبيرات تكبيرات ومركزا فى أفغانستان. تكبيرات تكبيرات. ودارا للأيتام فى بلاد الصوميلستان تكبيرات تهليلات، ولم يسألوا كما الحلبة والترمس عن بلاد أنتجتها بفعل الاندماج فى دور الإمام وأسميتها سوميلستان. طلبت من كل مؤمن فقط عشرة جنيهات. صدقة للجيب غير جارحة ولغضب الرب طافئة، وبدأت الجمع واللم وحسونة فى غيظه كما الضرائر المتحرشات. به لن أهتم وعلى طريق المجد وحدى سائر.

النفق

فما بعد الحادثة وقبل الوصول إلى نهاية الفلسفة كدت أصطدم بسيارة أمامي فصرخت مونيكا: انتبه يا سعد. أجدت ضغط الفرامل والانحناء قليلا، فنجت سيارتي وسيارة من أمامي إلا مصباح سيارته الأيمن فقد حففته فتهشم. نزل المواطن الإماراتي بغير غضب، فنزلت متحفزا وبدأت لتوى ترتيب الحجج اللازمة لتحميله خطأ ارتكبته واتضح لى ولمونيكا ولأصحاب السيارات المجاورة ومنقالات المراقبة المنتشرة على الطرقات. مد الرجل يده ناحيتى فظننته سيضربنى على وجهى كما اعتدت المشاهدة فى مدننا إثر كل حادثة تذكرت يوم موت الطفل أمام مدرسة القرية تحت عجلات الشاحنة، فقتلنا السائق وفى التحقيقات أقسمنا جميعا أن الطفل هو الذى تدحرج أسفل العجلات، لكن قدر الله قد نفذ بعدما أخذنا من كل أسرة رجلا ونحرننا السائق المسكين ونجونا بفعل المأثور فى التاريخ. خفت أن يصفغنى الرجل الإماراتى فتراجعت للوراء خطوات. مازلت متحفزا، لأنهم أخبرونا فى فصول الدراسة أننا سبعة آلاف من الحضارة أعدنا وهؤلاء ليسوا بشرا - بقر هؤلاء - الرجل البقرة يقترب ويده ممدودة وأنا أتراجع وأصرخ: أنت المخطئ. توقفت فجأة رأيها شفقة على وجه الرجل من عتيق موروثى وذعري البائن من كذب وصراخ. أنت المخطئ أيها.. كدت أقول البقرة، لكننى عدلت خوفا من المواطنين والشرطة التى أتت لتوها فقلت يا شيخ. هزتنى مونيكا وأنا تائه بين التاريخ والموروث وفصول

الدراسة وهَمَسَتْ: صاح الرجل يا سعد. مددت يدي مدعورا، فتقبلها الرجل بقبول حسن وربت على كتفي وابتسم. استدار إلى الضابط وقال: أنا المخطئ يا طيب. توقفت فجأة. عاود ابتسامته نحوي وحمدا لله على سلامتك وحيالك الله قال... انصرفنا جميعا ومونيكا دهشة من حالتى الكذب والذعر اللتين حلتا بشخصى الهادئ الخجول. مررنا يمينا فضلت الطريق. عدت إلى مبتدأ ما بعد الحادثة ونزلت نفق الشيخ زايد الذى أسميته حركيا ما بعد الحادثة وكانت مونيكا التى وصلت إلى دبي منذ أيام معجبة بهذا الاسم. مررت يسارا فضلت ثانية طريق الوصول. إلى يمين الرصيف توقفت ونزلت مونيكا وحلت مكاني وقادت السيارة، وعدنا إلى ما بعد الحادثة ونزلنا النفق وسرنا للأمام. طريق يسلمنا لطريق ومن نفق إلى نفق مررنا. عند نهاية الفلسفة طلبت منها التوقف تحت الشجرة المظللة لشرفات المسجد. إلى اليمين مكتبة الشارقة وإلى اليسار قصر الثقافة وفى المنتصف نحت ميدانى لكتاب مفتوح وكأنه يرجع بنا إلى أول آيات القرآن الكريم "اقرأ". نهاية الفلسفة هو ذلك الاسم الذى أطلقته على دوار الكتاب بمدينة الشارقة التى سكنتها منذ تسلم جواز السفر وشهادة التخرج وقبل أن تأتيني مونيكا كى نتزوج. فى دبي شعرت بأننى سعد المزيف كما أخبرنى سعد الأصيل يوم أن زارنى فى الفندق، وبعدما استقر بى المقام هنا ووضحت معالم طريق مستقبلى. شعرت بأنه كاذب والتاريخ كاذب وفصول الدراسة أشرة. أطلت الوقوف بميدان الكتاب بلا هدف غير المشاهدة، غير منتبه لموعدى مع المحامي لإنهاء إجراءات الزواج. نظرت مونيكا فى ساعتها هاتفها

ونبهتني بمرور الوقت وضياح الموعد. إلى السكن في منطقة البوطينة الهادئة عدنا. كانت أميرة السورية تنزل من سيارتها وتتجه نحونا لحظة ما كنا نعتلى خمس درجات من السلم الرخامى للعمارة. حمدت الله لأنها تجاهلتني كغريب وكأنها أدركت بحاسة أنوثتها علاقتي بمونيكا ووجوب غضبها إذا ما شعرت بالصدقة بيننا. أميرة هربت من حرب المعارضة والمولاة واستقر مقامها عند دوار الكويت. أخذت تلك الحجرة بالبوطينة كي تمارس فيها مهنتها القديمة قدم الإنسان. نخيلة من فرط الشقاء. ملابسها تثير الشفقة. توارى سوء فقرها بفتحة في صدر عباءتها، فيظهر ثديان من جلد كتيب. مستهلكة تلك المرأة النحيفة الشقية. في المصعد تبادلنا التحية ثم التحية ثم التعارف. غريبان في بلد الغرباء. هنود. باكستان. أفغان. إنجليز جنسيات من هنا وبشر من هناك. كنت تائها على الأرصفة الحجرية في تلك الفترة التي إستوقف فيها الأمن تسلمى العمل، كي يتأكد من مغادرتي النهائية للجماعات التي ضمتني ولفظتها، حتى استقر بي المقام وبوساطة خطيب مروة في الشركة الإنجليزية التي ارتقيت فيها بلا وساطة أو تعاريج للوصول كما في وطني الشائر. في ذات المصعد الذي نحن فيه الآن، سألتني زيارتها في الدور الرابع وأخبرتني برقم الغرفة وهاتفها. بلا ملابس استقبلتني عارية جسدها يدفعك إلى بكائها والرتاء. لعنت جيوش العهر والأنظمة المستباحة حينما رأيت خراب أنوثتها. تناولتني بقبلة امرأة تفعل ذلك بالية وفطور ابتسامتها من فقر وجليد. كفر تحت عينها الهرمتين، فبدت ستينية رغم الأربعين من عمرها. جلسْتُ على فرش أرضى أشارت إليه، واستدارت إلى موقد الغاز تعد القهوة العربية.

مؤخرتها تنطق بالبؤس حد الموت. رن هاتفها النقال لحظة رفع القهوة عن النار، فوضعتة على أذنها وأسندته بعظم كتفها وباليدين صبت القهوة في الفنجان، وهى تواعد محدثها بغنج متقن وابتسامة باهتة وكأن الغنج والابتسامة شقيقان. أغلقت الهاتف ووضعت الفنجان أمامى وجلست ضامة لفخذيها ورحبت بقدمى. قالت: ثلاثة أولاد ولا أملك سوى هذا وأشارت إلى ما بين فخذيها حزنا وأسفا على شباب راحت تحكى عنه وعن جماله فيا مضى. واداركت: لعن الله الحرب والقتال وقادة العهر وشيوخه لعن الله الزنا والزناة. أرغب فى عمرة وحج وبيت ووطن. معذرة يا أخى لقد شغلتك بما لا يعينيك. اقتربت ولاصقتنى. ابتعدت مقدار فاصل عن جسدنا وقلت: لا أريد، فقط أشرب القهوة عندك. نهضت لتوها وارتدت عباءة منزلية وقالت: فقط أردت أن أسرى عنك وأقدم التحية التى أملكها. فنحن غرباء والناس بعضها لبعض. هاتفها يعلن قدوم الضيف التى واعدته، فارتبكت ولم تطلب منى المغادرة. هو سائق شاحنة سورى، فأنا لا أعمل إلا مع أهلى. لا ضمانة لغريب فى الغربة. أزلت عنها الحرج وصعدت إلى غرفتى مهموماً بالبعد الذى أفقدنا ما تبقى من ذواتنا الحرة. أحست مونيكا بشئ يربطنا سوياً، فحييت أميرة قبل الخروج من باب المصعد وأغلقتنا خلفنا الأبواب تمددت على السرير دون خلع الحذاء ودخلت مونيكا إلى الحمام كى ترفع عنها حر الصيف ولزوجة الرطوبة عن اللحم. أتذكر الرجل البقرة وأنضاء فى سريرى. تنفلت منى نصائحها، بركات والجوسقى اللذان وجدتهما ينتظرانى أمام باب الفندق بعدما طردنى سعد الأصيل. يداى خاليتان إلا

من جواز السفر وشهادة التقدير المقبول. الشيخان جامدان متغيران متحولان إلى جدية أُرعبتني. قبض جدى بركات على عضدى بقوة شجر الكافور فأحسست بالألم. سرت معها رغما عني دون حديث دار بيننا. حللنا ميدان السيدة ولم يتجها ناحية باب المسجد. تبعتهم في اتجاه زين العابدين بن الحسين. لم ندخل المسجد ولا المقام أيضا. صعدنا ربوة من صخر مفتت ومررنا بين البيوت الحطية. الممرات متآكلة والأرض رطبة من ماء صرف لا ينقطع. السكان جميعهم يعرفون الشيخين، حتى الأطفال الذين اتخذوا من المستنقعات حمامات لترطيب حرارة الأجسام يحييون بركات والجوسقى اصطدمت بامرأة تحمل فوق رأسها "ققة" من البوص، بها تفحات من نابت وخبز "مرحوح" فسقطت "الققة" وتناثر الفول. لم تعنفني، ولم تسبني كما توقعت. لم تقل أنت أعمرى كما كان يقول بعضنا لبعض حتى لو اعتذرنا وأخبرنا المصدوم بأن الواقعة سهوا فلا بد من سماع السباب - أنت أعمرى -

البسمة في وجه أخيك صدقة. لكزنى الجوسقى، وهو يأمرنى بالابتسام للمرأة التي ابتسمت مع سقوط محمل رأسها. الأعمرى يصحبني نحو الموروث والمفروض، فابتسمت ببلاهة المأمور. من بركة الصرف كان الأطفال يلتقطون حبات النابت. المرأة العجوز الجالسة عند باب العش الذى قربنا منه، تعنف الأطفال بقسوة. عاقلة بخبرة السنين. تخاف على النشء وشباب المستقبل الواعد من الجرائم. فمصر العظيمة أمنا هي الحمى، وهي الوطن. ضحكنا وأنا أتذكر موضوع التعبير في السنة السادسة من التعليم الابتدائي

ورفعت صوتي بالبكاء حينما صرخت العجوز: "هاتوا لى حبه يا ولاد الكلب".

لا وقت للبكاء كما لم يكن هناك وقت للحب عند حمزة البسيونى فى رائة يوسف إدريس، فتجاوزت معهم باب العش ودخلنا... حور مقصورات فى الخيام. صدق الله العلى العظيم... اسمها مروة، تلك البنت التى استقبلتنا وسط الخرابة التى أعاد الجوسقى تسميتها بيتا. مرحبا جدى بركات. مرحبا جد النور. قالت وهى تعد الفرش الأرضى للجلوس. نظرت بعينها الخضراوين الهادئين ناحيتى، وقالت: مرحبا بالغريب. لم أرد التحية متصلبا كنت فى وجهها النورانى وما ظهر من خصلات شعرها الذهبى تحت غطاء للرأس أخضر. ملابسها البسيطة مثل نجحات المعارض تألقا. خرابتها مرتبة من الداخل حد العجب. بها ثقة فى نفسها لا تتناسب وساكنى الخرائب. قال جدى بركات: رد التحية للدكتورة يا سعد. هل عاد للتعمية من جديد؟! سألت نفسى المتعجبة من حمل الخرائب للدكترة والمتقين لفن احترام ذواتهم. قلت مرحبا يا... وعقدت لسانى عن الدكتورة كى لا أتورط فى الأعييها. لم تشاركنا الجلوس أرضا. فَسَحَبْتُ مقعدا وحيدا من جريد النخل كان. وساقا على أخرى وضعت كملكة متوجة بين رعايا مستأنسين. بالطبع هى تعمية جديدة والأعيب لم أعد أطيق احتمالها، فلا مال ولا عمل وأمى تنتظر خلف المشهاد وصول الأموال المهرية من الخارج. اسمحوا لى بالخروج قلت لهم جميعا. فمالت بجسدها كى تفسح لى طريقا للخروج. وجهت وجهى شطر الباب وقبل ولوجه انكفأت على الأرض من فعل عصا الجوسقى بين

رجلي عنفنى بغضب وأمرنى بالجلوس. أتى صوتها كما النهر صيفا هادئا: دعه يذهب يا جد النور. بيد أنه لا يصلح. أى صلاح تقصد تلك الشحادة المغرورة؟! جلست فى تحد للجمال مزيف منحها ثقة زائفة. فالثريات وحدهن من يملكن جمالا مستدام. سيذهب جمالك فى خرابتك ويأكلك ماء الصرف أيتها المغرورة. حديث فى نفسى دار.

حى حى. اللهم إنى أعوذ بك من وهم يدوم ومن رؤية الشروق غيوم ومن تبريرات تتغافل بها عن الهموم برحمتك يا حى يا قيوم. ابتهل الجوسقى مع ارتعاشة فى جسده أجبرته القيام والجلوس. خرج جدى بركات عن صمته وتلمس فى كلامه الود: هذا هو الولد الضال يا دكتورة نرجو أن تساعدني وتقبلني فى حضرت الضيافة أياما ثلاثة. رأيتها تتعالى وتذهب فى غرور الفقيرات اللاتي يشعلن بجمالهن. فهمست لنفسي كما تعودت حينما أعترض وأجبن عن إعلان اعتراضى: أضلك الله يا بركات كما أضل السامرى. رجل وامرأة جميلة وخلوة. مرحبا بالشيطان ثالثهما. من حجرة بجوار أخرى خرج إلينا بالسلام رجل وقور الهيئة منضبط الثياب. حيانا وفتح خزانة معلقة على الحائط وأخرج منها كتابا وإلى طريق الحجرة عاد، فنادته من أسموها الدكتورة واستأذنته أن يقبلني فى حجرتي حتى انتهاء المقام. كخروف راحوا جميعا يسوون جلوسى وقيامى وقعودى دون تخيير بين الدريس والبرسيم، فاعترضت غاضبا لكننى لم أجرو على المغادرة خوفا من عصا الجوسقى وقوة إمساك بركات. قالت الجميلة: اتركه يا جد سيرهقنى من أمرى عسرا. من يترك للآخرين أمر تسوية شئونه فخرى البكاء عليه قبل المات، أعزبك فى

نفسك يا هذا. تلقيت العزاء بصفعة من كبريائها على ضائع في متاهات الشعب والنظام. وافقتها الرأي هذه المرة، وسألتها عن سبب الإتيان بي إلى هنا كثور يساق إلى مذبحه. قال جدى بركات: هنا نهاية الفلسفة وابتداء الفلسفة وبداية التحديث. ابتسمت مروة وأنزلت ساقا عن الأخرى ومالت برأسها قليلا ثم عقت: ما بعد الحداثة يا جد. رفع الجوسقى عصاته في الفضاء قائلا: ما بعد الفراغ فراغ، وما بعد الشئ شئ جديد، وكلنا فى اللانهاية بلا زوال ليس هناك ما بعد الحداثة يابنتى إلا حادثة أخرى. خرج الرجل الذى قبلنى ضيفا بلا شيطان بين رجل وأنثى وسأل الجوسقى عن اللانهاية بلا زوال التى يقصدها رغم أن النص يعلن "كل شئ هالك إلا وجهه" نظر جد النور إلى الجميلة رغبة فى أن تجيب. قالت: يا أبى المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم. صرخ الجوسقى وانتفض بشدة أخفتنى ومعه صرخ جدى بركات وارتعش وردد كثيرا: حى حى.

مالى والجنون وهذا السجن الكتيب. أرغب فى الخروج بحثا عن مونيكا وطفلى المحزون... الشيخان فى التعمية والأب متحفز والجميلة ترتب الكلمة إلى جوار الكلمة وتبنى بناءً مقبلاً... الرجل غاضب حرصا على صحة النص المقدس. بانفعال مؤمن قال: أجيئنى عما سألت وإلا فأخرجوا الآن جميعاً، وأنت معهم يا ابنتى. بهدوء بناءً خير طلبت من أيها الهدوء كى يحسن الاستماع وإلا فلن تجيب. جلس إلى جوارنا وأخذ نفساً عميقاً فى محاولة للسيطرة والهدوء. قالت: يا أبى أعد قراءة النص ثم قرأت دون انتظار قراءته "كل شئ هالك إلا وجهه" والنظرية أثبتت بلا مجال للشك حتى

هذه اللحظة أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم. يا أبى إن لم تحسن اللغة فلن تحسن استقبال النص فى قلبك. "كل شىء هالك إلا وجه الله" أم كل شىء هالك إلا وجهه؟ لم أكن أفهم شيئاً مما يقال، لكننى أشعر بالمتعة فدعوت الله ألا يغير من عزمهم شيئاً وأجاور هؤلاء المجانين أيام الضيافة المقررة، فهى تحب اللغة وأنا أيضاً أحبها، لكن بيد أن الحب وحده لا يكفي فالقاسم مشترك والوعى مختلف فَعَشِقْتُهَا بالمنقوص فَشَقِيتُ، وعَشِقْتُهَا مروة بالمثبت التام فسعدت ولو فى الخرائب استقرت. هذا واضح فى شخصها.

باستغراب بدا على وجه الأب قرأ "إلا وجهه". بهدوء قالت والابتسامة على شفيتها: صدق الله، فكل شىء هالك إلا وجه الشئ، ووجه الشئ حقيقة وحقيقته مادته، والمادة أصلها الله، والله لم يستحدث ذاته ولم يأت بها من العدم. الله كان فى العاء ومنه كان الكون ومادته فسبحانه الحى وقدرته. يا أبى معذرة، غبى من يحاول إثبات المطلق بالمحدود

حى حى صرخ الشيخان وصَرَخْتُ وصرخ الأب حتى غشيه من الرعشة ما غشى واستحال العش الحرب فى قلبى مدنا للعمار. دخل الأب حجرته واستأذن الشيخان وخرجا. برفقة الدكتوراة جلست مثل تلميذ خائب. سألتنى عن عمارة الأنفاق وبناء الكبارى ونظريات الإنشاء الحديثة التى صدرت مؤخراً، فأجبت بما تيسر لى من هوامش ما درست. فبدا الهامش هزيعاً بلا متن، فأطلعتنى على ما فى رأسى من تساؤلات: أتى بك الجدان شفقة. أنا معيدة بكلية الهندسة، وبعد أيام أحصل على الدكتوراة. علاقتى جيدة بأصدقاء فى المجال... طلب جدى بركات أن أبحث لك عن عمل

فاستجاب خطيبى للطلب وبعد أيام تسافر، لكن المسافر بلا زاد مثل بيت بلا عماد. وزاد الفقراء المعرفة. ثلاثة أيام تستعيد معى ما ضيعته برغبتك ربما تنفع ذاتك بذاك الذى لا تملك سواه، ثم أشارت إلى رأسى المتعب خجلا من فرط ما فرطت فى الكتاب. نعم هذا صحيح. استيقظت مونيكاً متسائلة عن الصحيح الذى خرج من جوفى دون وعى. فعدلت من وضع جسدى على السرير المقابل لسريرها وجلست.

فى "بيجامتها" الحريرية الزرقاء وفتحة صدرها الصغيرة. بدت كملك سلاوى على جدران الكنيسة المرقسية. فنهضت عن السرير ورحت أخلع عنى ملابس الحر والرطوبة. نظرتها بحب ومكر ثم دَخَلْتُ إلى الحمام. "برنس" الطاووس الكينى والعصافير الملونة معلق خلف الباب. ذهبت به إلى ذلك اللقاء البعيد، فأخرجنى لطف الماء إلى حضور يحتاج التفكير لما بعد "البرنس" والحمام، فحلت الفكرة محل الذكرى وما مصصت شفتى على ماض أليم. خرجت إليها ومازالت فى سريرها. فقط عدلت من وضع اتكائها وانضجعت على جنبها الأيمن بنصف انحناء متزنة فظهرت فى عيوفى شهية. جلست خلفها مباشرة وقد بدأ التنور فى الغليان. قبلتها من رقبته فاعتدلت وجلست ثم أشارت بسباتها، وهى تبتسم: كان...

إشارة واحدة إلى عقل سليم وكلمة واحدة فى قلب يعى، يمكنها إزاحة آلاف من مجلدات العبث. عدت إلى حافة سريرى وجلست فى مواجعتها بعدما اعتدلت من جديد. قررنا الخروج لشراء بعض أغراض الزواج. رن جرس هاتفى النقال لحظة استبدال ملابسنا. الشاشة تعلن مفتاح أميركا ومروة

تحدثني عن عملها الجديد وبراءة الاختراع الذي ابتدأته في الخرابة وشرته وزارة الدفاع هناك. غاضبا كنت ألوم عليها بمحبة من طوقتي بجميل معروفها لأنها منحت الاختراع للأعداء، فَضَحَكْتُ حتى وصل صوتها إلى مسمع مونيكا التي غضبت وظنت بي الظنون، ثم قالت: مازالت منقوصة قراءتك يا صديقي. مازال الشعب يريد إسقاط النظام وحمزة البسيوني قد أخبرك بأنه لا وقت للحب وأنا أخبرك بأنه لا وقت إلا للعمل والشعب يريد إسقاط النظام. افتح المشاهد واستمع إلى رأيهم فيما أنتجت. أنهت مروة المكاملة ومونيكا تتحرك في الحجرة بعصبية وشك أنشوى يرافقهن مع العلة والنظفة والمضغة حتى الوفاة.

داعرة فاجرة كافرة تلك العالمة المسلمة التي منحت الكفار اختراعها المعدني الجديد. يستخدمونه في هياكل الدبابات التي تقتلنا وتقتل أهلنا في فلسطين هذا جزء من نص شيخ أسميناه حسونة على قناة أسموها الايمان، ومازالت مونيكا تنتظر منى تفسيراً لتلك المكاملة غير معنية باهتمامي الشديد. أدرت المحطة كي أتابع أخبار ذلك الاختراع الجديد، فتعثرت في نشرة أخبار الوطن تعرض صورة للسيد الرئيس يصافح "جنيرالا" أمريكيا والمذيع يعلن: بتوفيق من الله العلى القدير تمكن السيد رئيس الجمهورية من عقد صفقة لشراء رطل من الدبابات الأمريكية المسماه بوحش الخرائب وقد....

وقد غيرت المحطة كي أستوضح نجاح مروة فأتيت محطة للدين وسطية الشيخ هادئ مترن لا صارخ ولا شاخر كما المدعو حسونة. قال: سبحان الله المعدن الذى اكتشفته الباحثة المسلمة موجود قبل ألف وأربع مئة سنة

في سورة الكهف "آتوني زبر الحديد" فلعلت المطلق والمحدود وأغلقت الشاشة وأمسكت يد مونيكا الغاضبة وخرجنا. معها مزحت وشرحت لها مدار من اتفاق وتفسير وتكفير وإيمان، وكأننا فقط ننتظرهم حتى الاختراع، ثم نبحت عن تلفيق يناسب عجزنا باسم دين الله والنص المقدس. ضحكت مونيكا وعادت إلى جمال حضورها وإلى جوارى جلست في السيارة واتخذنا طريق "سيتي سينتر دى" الطريق مزدحم حد التلاحم، لكنه مناسب حد العجب. لا بقر في جمال في سيارات في بشر يموجون. لكل طريقته وفي فلك ما رسموه ودبروه يسبحون... الشارقة هادئة مثل نهر في الخريف. ودبى في رأى مونيكا مثل أمريكا الطيبة الفاجرة الشريرة الخيرة. تجربة كنت بها محوسا فأخذنى الكلام مع مونيكا حتى افتقدت الطريق. سألت مواطنا عبر نافذة السيارة، فأشار "تمشى سيده سيده حتى الطريق الموازى سيم سيم"

كارثة جديدة أفقدتنى الثقة فى عالمى الافتراضى، فملت بالسيارة يسارا وتوقفت خارج الطريق ثم نزلت وإلى داخل الصحراء قليلا دلفت. الغثيان يتبعه السعال ومغص يفتك بمعدتى. نزلت مونيكا مسرعة وأسندتنى من تحت إبطى. انحنيت ودفعتها حتى صارت خلفى وتقيأت بفيض من ألم. شعرت بخوار رجلى فجلست أرضا. ركعت مونيكا على ركبتيها فزعة. حاولت مساعدتى لركوب السيارة فلم أستطع ولم تستطع. جرت ناحية الطريق وهى تشير للسيارات أن تتوقف. أخذت بجسدها قسطا من الإسفلت دون وعي فكادت تصدم بالسيارات اللاهثة. عادت إلى صارخة: حبيبي. تبعت

الصراخ بالجرى ناحية السيارة والتقطت هاتفها وخبرت الإسعاف. دقائق غير معدودات وحملنى المسعفون فى الطائرة المروحية وحللت ضيفا بمشفى ابن راشد. محاليل وقياسات للضغط والسكر وفريق من أطباء وكأنهم حول قائد مختصر. الرجل البقرة والتاريخ وفصول الدراسة يرون من ثقب بذاكرتى.

حمدا لله على سلامتك يا سعد. كانت ممرضة القصر العيني البدينة بطيبتها وصليب رقبتها دون انفعال أو سباب. لا أعرف سببا لحالة البكاء التي أخذتني إلى الميدان وأهل الشرفات الحالمين بوطن بلا ضجيج. افتقدت جدى بركات وجد النور، وأمى والأستاذ يارو. أفتقد مروة التي غادرت وأفتقدك أنت يا حبيبتي. قلت لها وأنا منهار والطبيبة الإنجليزية تحاول إسكأتى بحقن المخدر، فمنعتها الممرضة وحملت رأسى فوق صدرها كما حملت عادل قبلى. سقطت دموعها على صدرها الممتلئ لحما من حب وضمير. ضمتني بين ذراعيها وبكت بحرف وصوت، فبكيت نفسى وبكاءها. وحدنا نبكى الأحبة. سألتها هل حقا بتروا يد عادل؟ لا يهيم لا يهيم. فقط أين دفنوها كي أقرأ عليها فاتحة الكتاب عند الحضور. تبكى. أبكى. بوجع أعتب عليها وقد فارقت صدرها الطيب. لماذا غَادَرَتْ وغادرت مروة والرجال؟ أتم نسيم ليل البلاد. نور الصباح. مثلى منقوص مغادر لا يهيم. ماكث لا يهيم. هذا آخر ما أدركته قبل أن أذهب فى غيبوبة كاملة لوقت عندى غير معلوم.

الحاجة لأكى فى قفص الاتهام. محاصر بالجنود. الادعاء يطالب بالإعدام لمن خان الوطن خيانة عظمى. لويز تنظر إلى إيهود بحقد وكراهية. يساكر يقرأ

من نصوص الموت مكربة للإله. فيلة تل أيب تلطم على فخذها فيهتز سرير
عجزها وتصرخ: لاكى. أبحث عن عين حسام بين نعال محمد محمود الشائرة.
المنصة وحسونة وجورج والرئيس المؤمن يصلى ويخطب ويقرأ على قبر
الشهيد سورة يس والناس فى الميدان ينتظرون الأربعة. الطرف الثالث
الرابع الخامس يمر من نافذة روحى. وحده عم رؤوف لم يزر غيبوتى. كانت
مونيكا تبتسم وقت عودتى للحياة. رحلت الممرضة البدنية وتركت رسالة
تحت رأسى. ليس بها جملة وفاصلة ونقطة. فقط خطت فى منتصفها
"وطنى" أتت الطيبة الإنجليزية تسألنى عما شعرت به وقت القيء المفاجئ
وقبل حلول الغياب. حالتى طبيعية قبل وبعد الغيبوبة والأطباء فى حيرة من
أمر المرض المجهول. لم أجبها فأنا لا أجيد إلا العربية وبعضا من الفرعونية
الراحلة طلبت من مونيكا أن تأتبنى بطبيب مواطن. استفسرت الإنجليزية
من الأمريكية فترجمت مونيكا وأتى الطبيب الشاب الهادئ. سألنى كما
الطبية فأجبت: لم يقل لى إلى الأمام إلى الأمام. قال: "سيده سيده" لم
يقبل نفس الشئ. ذاته. مثله. قال: "سيم سيم" كلمة من الهند وأخرى من
إنجلترا، وأنا مهموم باللغة فوطنى البديل يعدونه للشعب يريد إسقاط النظام
فاحذروا. هز الطبيب رأسه أسفا ففرحت لإدراكه السريع. تحدث الإنجليزية
مع الطيبة وغادرا. ترجمت مونيكا: سينقلونك إلى قسم الأمراض النفسية،
فهدأت روحى مثل ذلك الهدوء الذى وجدته داخل القسم. لا ضجيج. لا
صراخ. لا خلل هدوء فى الغرفة التى حللت فيها مطمئن الفؤاد كما النزلاء
الذين رأيتم ساكنين مقامهم دون حركات جنونية كما صورتهم المعارض

والمحكوات العربية. تعرفت إليهم بعد ساعات من السكن. جنسيات وأعمار مختلفة سعودى يقرأ فى المصحف، وفرنسى يقف منفردا بوجهه عند الحائط المقابل لباب الدخول ويقرأ فى العهد القديم. يحرك جسده إلى الأمام مرة وأخرى إلى الخلف ويعاود فى هدوء. العجوز الإيطالى المستقر خاشعا على سريره ينظر إلى الأيقونات على المنضدة المجاورة ويرسم شاربات الصليب على جسده وحده عم شنودة الغنوصى الذى عرفته من ملامحه دون سؤال. صعيدى بدا للوهلة الأولى. بيده عهد جديد يقرأ فيه ثم يتوقف قليلا ويقبله ويكيى، ثم يعاود القراءة والبكاء والتقبيل. بينما يجلس على مقعد فى زاوية من الحجرة شاب إيرانى وسيم. أمامه إطار من قماش أبيض وعليه يرسم. المشهد جد تقى. لا غرابة ولا اندهاش إلا من ذلك السرير الذى انتصف وضعه وسط الحجرة. محاط بسائر مرتفع من قماش مقوى، يحجب رؤية من بداخله جلست على سريره بجوار زاوية الفنان الرائع. اللوحة غاية فى الدقة والاحتراف، عليها رجل فى عنفوان الجسد بلامح عربية صارمة. تفاصيل الوجه تأخذك إلى الانتباه جيدا. سألتة عما إذا كان الشخص المرسوم من خياله أم شخص يعرفه؟ أجاب: هذا هو الإمام على بن أبى طالب عليه السلام. قلت فى سري: كرم الله وجهه. لم أعقب على رؤيته. فقط أبديت إعجابى باللوحة وتركته للعمل. مازالوا جميعا فى أشغالهم ساكنين. كل فى حاله وحالته راض عما يفعل، حتى إذا دخل الطعام، تركوا ما بأيديهم وتناول كل منهم وجبته المغلفة بعناية وجلس إلى سريرة وكذلك فعلت. فجأة تفتحت ستائر السرير المغلق، ومنها خرج شخص ناعم الشعر قوى البناء. لا هادئ

ولا هائج. توقف في الوسط ونظر إلى السعوى، وقال: ألا تسمى الله يا رجل. فتح السعوى غلاف الطبق، وهو يذكر: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وصحبه الميامين وأهله الطيبين. بعنف انتفض الرسام الايرانى وخرج عن مقعده، فاصطدم باللوحة فسقطت أرضا وقف أمام السعوى وصرخ: سم الله وصل على النبی وآل بيته ولا تتجاوز بمسحة الأرض المستنده على السرير، ضربه السعوى فى منتصف رأسه وهو يصرخ: شيعى كافر. لم تصبه الضربة جيدا، فهجم عليه وناما على السرير يتقلبان ضربا وعراكا. الرجل الناعم شعره ابتسم بلطف وسحب عن سرير السعوى وجبة الطعام ثم دخل بها إلى سرير الذى أعاد ساتره. خرج إلى مقعد الفنان وأخذ الوجبة وضمها سريريه أيضا، ثم عاد إلى العجوز الإيطالى وقال اذكر ربك قبل الطعام. فأشار العجوز على جسده بعلامة الصليب، فنهض عم شنودة فأزاح الأيقونات بعنف فسقطت عن المنضدة أرضا. راح يصرخ: الرب واحد والمسيح عبدالله ونبىه، الغنوصية الغنوصية يا عبد الصليب يا كافر. استحال الصراخ بينهما إلى عراك مماثل لما على سرير السعوى. ابتسم الناعم وفعل بالوجبات كما فعل من قبل. وقف أمام الفرنسى وبألم خطه على وجهه، تكلم إليه بحزن فنان من رواد المسرح: أيعجبك هذا القتال والضرب؟ انظر الدماء بدأت تسيل. كانوا جميعا قد أصيبوا بجروح ومزالوا فى قتالهم ذاهبون. وقف الفرنسى على سريريه ونادى: يا أهل الجنون سينزل المسيح من السماء وجميعكم يقتل ووحدى أذهب معه فى ملكوت السماوات. مع النداء توقف القتال للتو ونهضوا جميعا

واقفين. فى اتجاه الفرنسى راحوا ينظرون، ثم إلى بعضهم نظروا، ونجأة هجموا جميعا عليه وطرحوه وأوسعوه ركلا وقذفا، وهم يصرخون: كافر، بينما أخذ الناعم الوجبة وذهب. التوت قدم الإيطالى فتوجع ونادى المسيح الإله وابتعد عن الحلبة، فانقض عليه عم شنودة وراح يسبه: إنما الرب الإله والمسيح عبد رسول يا كافر معبد آمون، ودارت بينهما معركة جديدة. وحدى من سلم من المأساة حتى عاد الناعم ناحيتى وقال: اذكر ربك. فى ذاتى سميت وصليت على النبى وأهله وصحبه. فأعاد الطلب بالتسمية والصلاة، فعاودت الفعل دون صوت. أعاد وأعدت حتى مل منى، فغادرنى ووقف بين المتعاركين وأحال دون عراكمهم. ذهب كل إلى سريريه واستقر مضجعا. حمدت الله أننى لم أصب بفضل قراءتى المكتملة وحسن التدبير والذكاء. نظر الناعم إلى عينى وابتسم بخبث، ثم أغلق نصف عينه اليسرى والتف بمحور جسده وراح يخاطبهم: جميعكم مخطئ. القتال صفة الهمج ولا يليق بكم. هذا الرجل وحده لم يشارككم العنف فليهنأ بطعامه وراحته بينكم. كحدأة أجادت الاختطاف التفت ناحيتى وزعق: اذكر ربك يا هذا. من جديد فعلت فى سرى، فأعاد وأعدت. تحول إلى النزلاء الذين حل بهم الهدوء ونادى كما حسونة وهو يخطب: كافر. ملحد لا يذكر له إلهها. وكأن عراكا لم يكن بينهم، كانوا جميعا على جسدى محمولين حتى إذا ما أخذوا نصيب الإيمان منه، خلوا عنى وهم يصرخون: كافر، بينما كان الرجل الناعم قد اختفى فى سريريه ومعه اختفت وجبتى. تعجبت كثيرا من عدم إدراك الإدارة لنا. لكننى كنت أكثر تعجبا حينما شعرنا بالجوع ولم نجرؤ على اقتحام

خلوة الناعم بعد تحذيرات علمت منها شراسته. رحنا نظرق باب الحجرة ونصرخ فلم يدركنا أحد. ظللنا نصرخ ونسب ولنغن، فلم يدركنا أحد. نظر الناعم من فرجة في الساتر أزاحها بيديه وقال: الهدوء. الهدوء يا سادة فأنا لا أحب العنف والصراخ ولون الدماء.

بت ليلتها من فرط الجوع مضطربا، لا من فرط الألم. في الصباح أدركتني مونيكا بالزيارة وأودعتني حجرة منفردة وراحت تسرى عني وجع الباردة أخذتني إلى تفاصيل ليلة الجماع وصباح إعلان الحمل ومغادرتها التي ظننتها هروبا، وكأنها ترغب في إزالة الوهم عني بلا رجعة. منذ أن بحثت في الميدان وعرفت أنني هنا، أتت غير مترددة واعتذرت عن الغياب. كانت في مظاهرات "وول ستريت" تنادى مع المحتجين "الشعب يريد إسقاط النظام" كما أخبرتني أن الاحتجاجات كانت نوعا أصيلا من الترف والفراغ. قالت: تحرك أكثر من مئة شخص نحو شارع "وول ستريت" ورحنا نهتف كما سمعناكم "الشعب يريد إسقاط النظام" فأتت الشرطة واعتقلت منا ثمانين، كنت واحدة منهم. بعد ساعات من الاعتقال سمعنا صحب أمام مقر شرطة نيويورك. كانوا ألفا من المحتجين الذين زادت شعاراتهم مطالبة بسقوط النظام. كنت فرحة بهذا الاحتفال ولا سيما أنني عرفت داخل مقر الاعتقال أن الثوار احتلوا حديقة "زوكوفى" لكن المؤسف أنهم اعتقلوا من الألف سبع مئة. بتنا في المعتقل يومين كاملين دون شغب حتى عدنا وهتفنا الشعب يريد إسقاط النظام، حينما فصل القائد مكيف الهواء لمدة نصف ساعة كاملة روزيتا صرخت في الشرطى الحارس: أريد مكانا منفصلا عن

عيون الثوار شاركها جون تويخ الشرطى، فهما لا يستطيعان الابتعاد عن ممارسة الحب كل هذه الساعات، أما جاكين العجوز فقد طلبت المارجيوانا أو الإفراج الفورى عنها. جميعا رفضوا شرب الماء لأنهم أوتوا بمياه شركة لم تحصل على شهادة "الأيزو" بعد. وحده السيد إدوارد الهادئ مثل عم رؤوف صاحب مقهى ناصية محمد محمود، كان رصينا متزنا هادئا، فى كتاب يقرأ منفردا غير مهتم بصخبنا، وحده شرب من الماء دون اعتراض. عرفنا بعد الخروج أنه أتى إلى الشارع للعبور وليس لإسقاط النظام. اجتمعنا وهتفنا ثم انفصلنا وغادرنا ووثقنا الثورة بالصوت والصورة وعلى جدران منازلنا علقنا التصاوير لم أستطع الاتصال بك لأن حادثة أملت بأى المسكينة ولا أبرئ أبى المعتوه منها رغم أنه مات هو الآخر. كنت سعيدة بموته. مكتئبة حزينة لموت أمى دون تحقيق حلمها بالعودة إلى جمالها الذى كان. كانت تقسم بأنها لن تضاجع المغترين الفقراء بعد شهر من الآن، لأنها قررت إسقاط الزمن عن جسدها بعمليات تجميل تستعد لها. ستفقد من وزنها سبعين كيلو جراما بالتمام. شهر يأتى وآخر يجيئ وتزداد أمى حزنا وكآبة وزمنا فى تجاعيد وجهها. وجدتها وأبى مختنقين بفعل تسرب غاز المطبخ. هو فى غرفتى وهى على سريرها عارية زرقاء الوجه والكفين. كدمات من دم فاسد يشكل جسدها. أكدت الشرطة أن الحادثة طبيعية نتيجة الإهمال. لا طرف ثالث أو رابع اقترفها. فالجرائم عندنا تكتشف لتوها حتى إن تكتمنا عليها، فنحن خبراء الجريمة فى العالم، يمكنك القول إن قياداتنا النكدة، للجريمة خلقوا.

فى تلك الليلة بكيت أمدى ولعنت أبى السكير الفاشل. نمت على سرىرى أرفقة أستعيد من الذكريات التعسة ما يحملنى على البكاء، فألعبه وأتقلب على بطنى مرة وجنبى مرة وأعتدل جالسة مرات ومرات. لم يكن له مكرمة تذكرنى به إلا تلك القوة التى شكلنى بها شهورا من سعادة الجسد. اغتصبنى فاعتدته بعد ذلك. كنت أنتظره حتى يأتى مخمورا مترنخا. أصعبه إلى الحمام وأزيل عنه الوسخ وأسعبه إلى سرىرى وبه أفعل ما أشاء. فى ذلك الشهر الذى حدثت فيه المصيبة التى لم أحتسبها بسبب انتشائى بالخمر والجماع لم أكن أعلم بعد أن جوزيف النجس هو من أمره بهذا فحملت ضعفى الخمر والانتشاء. رأيته يدخل برفقة أبى. طلبا منى إعداد حقيبة ملابسى للمغادرة سألت عمى جوزيف. لم أخبرك من قبل أنه كان شقيقا لأبى، لأتى أكره ذكرهما سويا. جوزيف المقدس كان لمأساتنا الكاتب والمخرج. كان يعشق أمدى الجميلة. يراقبها من شباك المعبد المطل على جامعتهما. أما هى فلم تلقى بالا لمحاولاته الدؤوبة للتقرب منها، كانت تحب أبى حد العشق. ذلك المحامى الشهير فى المقاطعة كلها. حلم العذارى واشتهأهن وكان لها عاشقا. تزوجا وسعدا وعاشا كعاشقين مدة عسلهما فى أوروبا. بعدما عادا لاحظت أمدى تغيرات مفاجئة على المحامى المترن. يشرب بلا رادع. يهمل قضاياه بلا تحفظ، حتى أغلق المكتب فى النهاية وأصبح عمى جوزيف هو المعيل لنا جميعا. يأتينا براتب شهرى مشوه لم ينقطع يوما كصدقة من رجل دين مقدس عند الجميع. أوهم أبى أنه سيساعده كى يعمل حاخاما، وصدق الخمور رغم أن الإعداد يحتاج سنوات من الدراسة. فكرة المساعدة ووهم استعادة

الأسرة دفع أبى لإغراض عينيه عن تلك العلاقة التى بناها جوزيف المقدس مع أمى، حتى صدّق أن وجود جوزيف بحجرة نومها كان للدعوة والهداية إلى طريق الرب. صمت أبى لم يأت من فراغ الخمر والنساء. كان يعلم جيدا أن جوزيف هو الذى أحال إليه تلك المرأة الجميلة الشرسة، كى تراوده عن نفسها وتستعصم قبل أن يأتيها، فتأتيه بحجة القضايا وتقضى فى المكتب وقتنا غير لائق بالموكلين. اعتادها أبى واعتادت هى الاستعصام حتى تم مخطط جوزيف بمحاولة أبى الاعتداء عليها فى مكتبه وتم رصد الواقعة وتعبئتها فى شريط مصور. أرسل المقدس فى طلب أبى بالمعبد وهناك وبجه على الخطيئة وأقنعه بتدخله لدى الأمن والسيدة التى تقدمت بشكوى ضده ومن السجن أنقذه. اعتادت المرأة اصطحابه برفقة أصدقائها وبترتيب من الحاخام القدر، وتبادلوه حتى نسي أمى المسكينة. رغمًا عنه نفذ المخطط المكتوب والمعد بعناية قدسية. حاول جوزيف أن يضى تلك القدسية على حركاته الخبيثة يوم طالبنى بإعداد حقيبة الملابس. حاولت الاستفسار فمنعنى أبى. بغرفة فى بيته الخالى من الزوجة والأطفال حللت. كنا يعرفان أننى حامل دون أن أعرف. بيد أن أبى استطاع كامرأة مدربة على الحساب لمدة اقتطاع الطمث التى لم ألتفت إليها، فاستودعنى بيت أخيه مقابل الراتب وطعما فى الجنة. كان النتائج هذا يا سعد الحزين. أخرجت مونيكا من حقيبة يدها صورة لطفل مشوه. له عين واحدة والأخرى مطموثة تماما. شعره أجعد ومنخاره متضخم. خفت من الصورة وظننتها من فعل الحاسوب فأغمضت عيني. أعادت مونيكا الصورة وهى تبكى. قالت: حملت بملاك

فأنجبت شبحا. استخدمه جوزيف في جرائم كان يجيد تخطيطها. طفلى هو الذى قتل زملاءه فى المدرسة ببندقية آلية. بالطبع عرفت الشرطة أن جوزيف من أعطاه الآلة القذرة، لكننى لا أعرف لماذا لم يتهم ذلك الحقيق!! فهو يجيد استخدام كل شىء حتى أخيه وابنة أخيه والرب آهية. كنت فى غرفتى يوم أن زاره عبد الكريم الأفغانى، وبعدما انتهيا من جلستهما، استدعانى لرفقتها فى السمر. عبدالكريم شاب فى الثلاثين ممتلئ الوجه والجسد. يرتدى بذة رمادية وكوفية حمراء. لحيته كما لحية جوزيف مبعثرة. قدمت لهما "الويسكى الأسكتلندى" الأصيل، ومعهم شربت... عينا عبدالكريم لم تنزلا عن فتحة صدرى التى أظهرت الكمثرى الشهية. نظر جوزيف إلى ساعة الحائط ثم دخل إلى غرفته متخبطا فى الأثاث. تركنى والأفغانى الذى حاول إتيانى فتمنعت. أمسكنى من كتفى وقبلنى من فمى، ففاحت رائحة الأفيون من جوفه كريهة، فقئت فى فمه. ابتلع جزءا من قيئى. ظننته سيقىء لكنه لم يفعل سوى النظر إليّ بكراهية وبصق على وجهى. دفعنى الفقر وطفلى المحبوس فى المعبد إلى الاستسلام والمثول لكل طلبات جوزيف الذى أرسلنى إلى أفغانستان لجمع مادة عن حياة زراع الحشيش والأفيون. قال ستفيدنى فى الحصول على درجة الماجستير الذى دفعنى للتقدم إليها كمساعدة لابنة شقيقه الذى ضاع فى "البارات" والملاهى. هناك التقيت عبدالكريم فى الجبل كان إماما مهيما يحمل آلة الجهاد ضد الكفار رغم أن الدولة لم يكن فيها كفار. يتبعه آلاف من المسلحين. لا زرع ولا حصد دون مشورته. لم أستطع التقيء فى فمه ثانية. أحسست برائحته زكية عطرة

أو هيأت نفسى لذلك واستسلمت لفحولته حتى انتهى وانتهت من
الماجستير وجوزيف الذى حاول إرسالى إلى مانمار فى مهمة للدكتوراه،
فرفضت. حاول تهديدى بقطع راتب الأسرة، فما تراجعت. أقسم بقتل ابنى
فرفضت أن يكون الفقر وشبح الزنا عائقا فى طريقي، فلعبته يوم الفصح
وبصقت على وجهه وقررت المغادرة بما أملكه من معرفة. جميعهم يعمل
لصالحه يا سعد الطيب وقررت، بلا رجعة العمل لصالحى وأنت صالح
عملى يا حبيبى. انتهت مونيكا وانتهت أنا إلى الهَمِّ حزنا على أحمال ذكرياتها
وحمدت الله لكونى لم أكن مونيكا أو أمها أو جوزيف الغبى. عدلت عن
فكرة "سيّدة. سيّدة. سيم. سيم" وقررت المغادرة بلا خوف على الوطن
ولا يحزنون على اللغة وليذهب الميدان إلى الجحيم. طلبت من مونيكا قبل
الخروج أن تأتيني بالطبيب المواطن، فوعدتنى بذلك. مر يومان دون أن
يأتى الطبيب الذى قرر إيداعى قسم المرضى النفسيين. عندما أتت الطبيبة
الإنجليزية قلت لها: "دكتور يو إيه آه. سيم سيم. بابا أرباب" ضحكت الطبيبة
وخلت سبيلى. عدت لتوى إلى الشارقة. لم أجد مونيكا فى السكن وهاتفها
مغلق. أخذت حماما وبدلت ملابسى وانتظرتها حتى منتصف الليل فلم
تأت. القلق عليها أخذنى إلى تفكير أسود. ربما قتلت أو اختطفت استعدت
بالله من الشيطان الرجيم، فالإمارات آمنة على أية حال. النوم يرفض رفقة
القلق ويتركنى بين المشهاد والنافذة وترقب وقع خطواتها. أكاد أجن من ذلك
التفكير الأسود. اتصلت على أميرة فهى التى قالت هذا "الناس بعضها
لبعض" أجابتنى بلا غنج ولا ابتسامة مصطنعة يدركها كل من يواعد عاهرة

عبر الهاتف. قالت: أنتظر في الغرفة. على الرحب والسعة في أى وقت وبلا تحديد موعد. القلق مرض أخذنى كما يأخذ غيرى إلى محاولة تفتيته على صدر امرأة. يأتينى صوت مولانا عبدالباسط عبر ثقب الذاكرة "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" لست أنا ذلك الشخص. هناك من خلقوا لتلك السعادة ومنا من خَلَق بذاته الوهم في ذاته كي يطمئن بين فخذى أنثى. فتحت أميرة الباب قبل أن أطرقه. كانت خلف عين المشاهدة تنتظر. مفاجأة جديدة كواحدة من المفاجآت التى لم أعد أحصيا أتننى، حينما رأيتهما كسيدات قربتنا وأمحات حمص وجدات حماة بملابسهن المحتشمة حد الخجل جلسن على الفرش الأرضى وذهبتن لإعداد القهوة. يأتى صوتها مثل حلم... همس لا ضحيج فيه يرد أذننى وهى تخبر زبونا عبر الهاتف: لن أعمل اليوم. آسفه جدا فأنا متعبة.

القهوة إلى جوارى ويد أميرة تداعب شعرى وأنا أعذر لها عن الإغفاءة نهضت جالسا وأمسكت الفنجان البارد، فلم أر تشف. ضحكت أميرة وراحت تعد قهوة الصباح. أخبرتنى أن شخيرى كاد يفضح أمرها، وهى الحريصة على عدم إدراك الجيران لدخول الرجال وخروجهم. كانت تقلب حبات البن وتهكم: فليذهب الجيران إلى الجحيم. قدمت القهوة أمامى وفتحت النافذة لشمس النهار، ثم استقبلت القبلة ونوت الصلاة. انتهيت من الفنجان وحكاية مونيكا الغائبة وانتهت أميرة من استبدال ملابسها وخرجنا سويا للبحث عن العروس. ما بين الشارقة ودبى كنا نتبادل أطراف الهم والغم والكرب والنكد فرددت كما كنت أردد بلا فهم فى حضرة

شيخى الأول "كد كد كردد سقفاطيس. سقاطيم. أحون. قاف. آدم. حبا. هاء" فضحكت أميرة وزادت فى الضحك عندما أخبرتها باعتياد مونيكا للهروب، حتى بعدما توهمت بحملها بعد الجماع بساعات. ضربتنى أميرة بمداعبة على صدرى، وقالت: حقا مغفل. وهل يظهر حمل المرأة بعد ساعات يا سعد!! ضحكت مع ضحكاتها ومررنا ببرج خليفة و"سيتى سينتر" والجميرة وأم سقيم ولا أثر لمونيكا على الإطلاق. الليل يداهننا وليلة أخرى تأتى ومازالت غائبة. المشفى والطبيب المواطن وشرطة المطار إن وجدت وساطة هم الوسائل المتبقية فى البحث.

سألت الطبيبة الإنجليزية عن المترجمة التى كانت فى صحبتي بمفردات يتيمة من الهندية والإنجليزية والباكستانية، فأدركتنى أميرة بالترجمة حتى توقفت فجأة عند فرحة مفاجئة عبرت وجه الطبيبة. سألتها عما دار بينها فأمسكنى من معصى وغادرنا بعدما شكرت الطبيبة. عند باب المشفى الخارجى نزعت يدى عنها وسألتها بعنف عما دار. قالت: عرفت مكانها لكننى أفضل العودة إلى السكن. بالطبع كانت تطلب المستحيل، وأمام رغبتى الملحة اصطحبتنى إلى فندق بشارع زايد الكبير. كانت مونيكا فى فستان زفاف أبيض إلى جوار الطبيب المواطن فى مقعد العرس. المباركون بين آكل وشارب ومستمتع بالرقص والغناء. لم يتنبه لدخولنا إلا عامل الاستقبال أجلسنا حول طاولة ثم انصرف. نهض العروسان إلى منتصف القاعة وهدأت الأضواء والموسيقى. احتضنها الطبيب وبدأ رقصة العشق الناعم. جاءنا العامل ببعض المشروبات وحلوى العرس. حاولت الوقوف فجأة، فأمسكنى أميرة من يدى

وجذبتني فجلست غاضبا. مالت إلى أذني وهمست: لنستمتع بالحفل والطعام طالما حضرنا. لا تغادر أى مائدة ولو مائدة للأعداء دون ربح يا صديقي. مونيكا ترقص كعذراء خجول والطبيب يحتضنها كعاشق لم يجرب. المرأة التي تجلس خلفي تتحدث عن شراكة قريبة مع والد العريس الشاب المجاور لمقعدى يتمنى لها السعادة لأنه من أسرة عريقة تقدم خدماتها للمحتاجين. أميرة تأكل وتشرب بلا حرج وكأنها صديقة الأسرة بهدوء نهضت مع انتهاء الرقص وصاغت العروسين ودعوت الله لها بالرفاء والبنين، فابتسمت مونيكا وشكرنى الطبيب. عدت أبحث عن أميرة التي كانت تواعد مواطننا سوريا فر من القتال، فتركها لعملها وركبت السيارة ونزلت فى بطن النفق استعدادا للرجوع.

"مَدُّوْ"

باباى مثل أماييت والشيطان التباس إله الشر ست، وما بين هذا وذاك شجرة بعمر الزمن تأكل من أسقطته ماعت من كفة موازين الممجدين، فيتساوى فى الهلاك الجدد البيض والغرايب السود. يلتقطت الأطفال النبات من برك الماء وتحمل الخرائب قلوب الأتقياء والشعب يريد إسقاط النظام، وأبوزهر مع العمدة وعبدالمعبود يخططون لتخريب بيت الحضرة. شطن فى شطن يا بركات.

انتهى يارو الطيب من استقبالى بنصوصه التى كنت أعشقها منذ شبابى وصباى، فيما كانت يداه المثقلتان برعشة العجز والمرض تنتهى من صب الشاى فى الأكواب الفخارية. مر عقد ونصف قرن من الزمان ويارو فى حجرته البعيدة عن العمران عدا تلك البيوت المتناثرة على استحياء. مازال المصباح القديم ومشعل الجاز وأطباق الفخار على حالهم. وحدنا من حكم علينا الزمن بالإعدام قبل الميلاد. لم يتبق من القرية القديمة سوى حجرة يارو أعلى الربوة النهرية وشجرة العجمى وما تبقى من خرائب المحلج وضريح سيدى عزالدين. بيت الحضرة حل محله عمائر من كتل الأسمنت بعدما خرب برحيل الجميع، أكل الأسمنت براح الحوش وحجرة المجاذيب وتلك الأفران التى كانت تحمل رائحة الطحين إلى شباك السرايا الراحلة، كنت أنادى خالتى خالدة، فتفتح أمينة خليلية الشباك فإن لم ترنى إلى جوار

النافذة تنادى بصوتها العاشق للحياة: ياخوaja. فإذا ما غبت عن الرد أمسكت كوزا من الذرة المتبيس وألقت به في اتجاه نافذتي، وهى تنادى: الله يلعنكم يا أولاد المهايل. إذا ما أصابت الهدف ونادرا ما كانت تصيب فتخلف قلة مكسورة أو طبقا ممشما، فأخرج وأنا ضاحك: الفطير يا خالة أمينة. ترفع طرحتها السوداء عن كتفها وتربطها حول صدرها وتتراقص بشديها، وهى تردد: حاضر يا ضنايا. الرقص والغناء كانا حيلة العاملين فى بيت الحضرة لتجاوز الهم الذى عاشوه فقرا وجلدا وضربا من الهلايلة خدام القصر والإنجليز. غيرهم كانوا يشكون الزمان ويصرخون. من الرجال من كان يلطم كما نأحات راموزا التى خلفها عادل وأزالها رجال الرئيس الجديد وحدهم سكان بيت الحضرة من تعلم الرقص والغناء من صاحب الدار الذى أقسم بالله ثلاثا أن الباكي حظه مطرود والنائم عن عمله مطرود والكاره لزميله فى براح الدار مطرود. أطلب فطيرة الذرة من خالتي أمينة، فترسل معها خالتي خالدة طاجنين من اللبن الرايب وفخارة من القشطة الطازجة ولسبيرو مثل ما أرسلت ولسكن كامتشو ضعف العدد لأنه معيل أسرته تشتعل الأفران مع الفجر وتنتهى مع الظهر. يعد الخدم طعام المجاذيب وعمال أرض الجزيرة ويستعدون لغذاء من يأتى من عمال المحلج طالبا الغذاء. مثل سوق كان بيت العم مصطفى. آت وغاد ومستظل ونائم فأضاف للمسافرين حجرة، وللمحتاجين حجرة، ولكل من تجاوز عتبة الدار مكانا يسعه. فيها فرش مرفوعة وأكواب موضوعة وتراتيل للعشاق وذكر لا ينقطع مع الصباح. أستمع بالأذكار وأتواجد مع القلوب المستظلة بالسكينة

والشهود. لم ينكرنى أحد لكونى مسيحيا كما ظنوا. كما لم ينكروا سبيروا
وياكمغلو وكامتشو قبلى. أجلس فى حلقة طعام الشيخ غراب، وكما
يسمون أسمى، وكما يأكلون أفعل. وحده شيخ الحضرة من كان يعلم أتنى
يهودى منقطع الأصل والنسب. ظننت به السوء وبأنه سيشى بحالى مع
حرب فلسطين وخيبات القادة والدماء. لكن ظنى كان سوءا... قبلنى
فأنكرت ذلك السائق الذى أتانى فى منتصف ليل كى يخبرنى بضرورة
المغادرة. وطنى هنا. دار الحضرة. السرايا. ذكرى سهيلة وولدى عجيذة هنا. لم
أقل له هذا لكننى واعدته المغادرة خوفا من الوشاية. ترك لى عنوانه
مخطوطا. كان يهوديا يسكن مدينة السنبلاوين. يعمل على شاحنة تجوب
البلاد وكانت شاحنته همزة الاتصال بمن يرغب فى المغادرة أو من يخططون
لنقله بالمؤامرة. لم أكن أرغب إلا فى رؤية عجيذة وهو يكبر تحت عيني. وأترحم
على قبر سهيلة فى الخفاء كما يترحمون... وحده أحمد النادى من عرف
علاقى بها. مرات عديدة رآها تتخفى تحت ظلام الليل وتأتينى "بجنطور"
عم مرقص الفقير، الذى يعود إليها قبل الفجر ويصحبها. أخبرتنى سهيلة
وأخبرنى أحمد بعينية دون الحديث. كنت أرغب فى الزواج منها لكنك
تعرف ضوابط الرب يا يارو الطيب. انتهت سهيلة فى أحضان ابن سموح
باشا وحضن الجميزة الأخير. كنت بين مراقبة ولدى وأخبار الجنيرال عوفا
العظيم والقائد إيهود البطل ويساكر المؤمن ودماء البشر وإجادة كوبرك
للمداح، هذا ما كان ينقله سائق الشاحنة، لكننى لست مهتما، فالعالم عندى
عجيذة الذى أخبرنا مجذوب سيدى عزالدين بأنه مقتول لا محالة. أثمرت خطة

شيخ الحضرة في نشر المجاذيب على طرقات الهلايلة إلى استراق خبر تدبير أبوزهر والعمدة وعبدالمعبود لقتل عجيذة بعد احتراق الزرائب، فينهون سند الشيخ وثروته وتعود مقالة المحلج لحظيرتهم. كنت والشيخ وسبيرو نخطط في الخفاء لنقل الزرائب داخل أسوار فناء السرايا الخلفي. استطعنا إقناع ياكماغللو بمشاركة شيخ الحضرة في مزارع تنقذ الشيخ من شبح الفقر المنتظر.

ضحك ياروا بمكر من يحتوي التاريخ في ذاكرته. رفع فرش سريريه القديم وأخرج كراسه المتآكل، وقال وهو يشير إلى مخطوطه: لكن كتابي هذا وإن كنت لم أحضر الواقعة قد سجل، أن الحاجة ياكماغللو لم يكن عاطفيا عاشقا للخيرات كما تصوره يا لآكي. بل وازن العرض بمنطق الرمح والخسارة فوافق مع احتمال المراجعة. بيد أننا نسعى دائما إلى تجميل حكاياتنا بإضافة ملح الطيبة وماء الشهامة واختزال مقبول العقل كي نرضى ذواتنا المضطربة وافقته الرأي وضحكت أنا أيضا رغم أنها محض محاولات للضحك، كنا نجاهد كي تخرج الضحكات كما كانت في شبابنا، لكن هيهات والزمن. مثلنا يكتشف عجزه في المراحيض وعلى السرير وفي الأنفاس المضطربة وخروج الضحكة من الجوف مثل طفل في الحماط. قلت: اسمي بركات يا ياروا ومتفق معك تماما، فالعالم قائم على الشراكة، والشراكة قائمة على القراءة وشيخ الحضرة أجاد المخطوط والمنقول شفاهة، فحرق من المراحل ما وجب وأبقى ما ينفع للفلاحة. بالطبع أعرف أنني أكبرك بسبع سنوات، لكنني أقوى منك يا رجل. حاولنا من جديد إخراج ضحكات الشباب فسعل ياروا حتى كاد

يختنق. نهضت كي أدركه بقلة الماء، فأخذت وقتنا خلال الطريق من المقعد إلى القلة. حملتها فلم أجد لقوة الكافور في جسدى بقايا. لم أستطع السير بها كان يارو قد هدأ ونظرتى والقلة المحمولة على صدرى. حائر بين إنزالها والسير بها. لم أستطع هذه ولا تلك. أدركت أننى فى الطريق لارتداء بذة الإعدام البيضاء، وجب إعداد الكفن. أشار يارو بملل أن أسقطها من بين يدك. تذكرت عربة نقل الأقطان التى انغrust فى وحل الشتاء ولم يستطع ثلاثة عمال على جرها. كنت على مقعد المراقبة شخاصا إلى شجرة العجمى تحولت ناحيتهم وهم يطلقون زفرات التشجيع التى لم تسعفهم، فنهضت وداعبت قوتهم. قلت: ماذا تدفعون إلى إن جررتها وحدى؟ قال أحمد النادى: سأدفع "خمسة بيض" يا خواجا، فشمرت عن ساعدى وناديت كما يفعلون: مدد يا سيدى عز الدين مدد، فدفعتها وحدى. فابتسم أحمد النادى خجلا وقال: أنا مدين لك "بخمسة بيض" نام يارو ومازالت القلة على صدرى فانتهزت فرصة نومه وأسقطتها من يدى، وأنا أردد: مدد يا سيدى عز الدين مدد. فزع يارو من صوت الارتطام والمدد، ففتح عينيه وأشار كي أجاوره الفراش وبتثاقل نائم أو عجوز سألنى: ماذا تعرف عن المدد، فأجبت العون فأطلق ضحكة شبابية من جوفه عجبت لها. قال: مازلت خواجا يا لايكى المدد فى لغتنا الراحلة "مدوو" اذكر الله يا سيدى عزالدين اذكر "مدوو. مدوو" عاود يارو النوم، وشعرت بالإهانة، يخبرنى بحمقه وبعد غياب ستين سنة أننى منقوص القراءة غادرت حجرته التى لم يحسن استقبالى فيها، وخرجت متكئا على عصا الليون. آتخس خطايا

على جسر الماء خشية السقوط صعدت محبط أم إبراهيم مع حلول الليل. مررت باتجاه بيت الحضرة استوقفتنى طفل ظننته من سوء الحال حفيدا لخادم زرائب السرايا. سألتني جنيتها يا جد. سمعت شيخ المرأة الجالسة على عتبة دارها المتهالكة كما بدا لعيني تنهره: "عيب يا عبد المعبود سيب الشحات في حاله وشوف أخوك هلال فين وتعالوا ندخل. الدنيا ليّلت". كدت أطيح برأسه بعصاتي لولا أن أدركت فارق الزمن والتاريخ، فأعدت العصا إلى موضعها وسرت على الطريق بعيدا عن عبد المعبود الذي حدد موعد قتل ولدى بعد المغرب وعلى ذات الجسر. اتفقوا مع قاتل محترف برفقته خمسة رجال ينامون في بطن الجسر حتى يمر عجيزة بعدما واعدته أنثى عبدالمعبود لقاءها... كنت مع المجاذيب في القوارب الخشبية نراقب وضع القتلة. بعضهم بين الزروع مختبئ حتى مر عجيزة على حصانه الذهبي، وقبل أن يخرج القتلة من باطن الجسر إلى أعلاه، كنا فوق رؤوسهم. أخذنا أسلحتهم ومنها أطلقنا الرصاص في اتجاه عجيزة. فزع الحصان وفي الهواء ارتفع وسقط الفارس مرتعبا. كان يجبو بمؤخرته على التراب كي يحتبئ خلف شجرة عبدالجواد وهو يصرخ: "مين. مين" صوت شيخ الحضرة يعلو على الرصاص وينادى: لا تخف يا ولدى. كنت أريد أن أصرخ أنا الآخر: لا تخف يا ولدى. خرجنا إلى الجسر وفي أيدينا الأسرى مكبلين بأربطة من ورق الموز اليابس ومازال عجيزة على الأرض دهشا. أعاد أحمد النادى الحصان الهارب وأعانه على الركوب وبالقتلة عدنا إلى بيت الحضرة بفرح وصخب، حتى تجمع أهل القرية وخبروا الحادثة. وصلت الرسالة إلى الطرف

الثالث الذى ابتكره الشيخ أبو زهر على منبر الجمعة، ذلك الطرف الراغب فى الوقعة بين الأهل والأحبة كما قال فى جمعيتين متتاليتين. بينما كان الطرف شبه الأصيل من القتلة المحترفين فى حضرة حجرة المجاذيب يجلسون حول "مشنات" الفطير والعسل واللبن الرايب. لم أكن متفقاً مع الشيخ على إكرامهم والتجاوز عنهم، لكنه لم يلتفت إلى كلامى. فى صباح تلك الليلة استيقظت على صوت عراك وسباب فتحت نافذة الصالة ومنها طللت ناحية بيت الحضرة، فرأيت قتلة الليل ممسكين بحصان عبدالمعبود وأجبروه على النزول. حوله التفوا وراحوا يدفعونه بقسوة لا يجرؤ أى منا على فعلها. قال كبيرهم: من اليوم لا تمر باب بيت الحضرة إلا قتلناك. خرج عمى مصطفى ووجههم على أذيتهم لولد عمه، فتراجعوا وأوصل الرسالة إلى الطرف الأصيل بضحكة غير بريئة ودعوتة بغير جدية للتشريف بحجرة المسافرين. كانت أيدى قتلة الأمس أول الأيادى التى بدأت فى بناء زرائب السرايا. يرتفع البناء ويأتينى سائق شاحنة الاغتصاب كى يفرح قلبى بانتصارنا على الفلسطينيين. لم أكن مقتنعا بنون الجمع أو المثنى التى وضعنى رغماً عنى بداخلها. يتحدث بحماسة وحرص عن جنة يساكر الموعودة وقوة عوفا وكوبرك وإيهود. يتركنى ويغادر، ثم يعاودنى ويرحل والشيخ أبوزهر يجمع بأمر شيخ جماعته أى معلومة شاردة أو واردة عن اليهود فى القرى المحيطة. اضطررت بعدما شعرت باستهدافه أن أذهب إلى كنيسة أبانوب برفقة سبيرو أحيانا ومرات برفقة كامتشو الطيب أخشع مع الخاشعين وأدعو مع المصلين، وقلبى مع فعل محمد نجيب بنا بعد الثورة التى قادها ضد الملك،

وكان أبوزهر داعيا له على المنبر. ذات المنبر الذى دعا عليه لجلالة الفاروق، يدعو لفخامة الرئيس ويذكر الفاروق بالزنا والخمر والخيانة، هو من أسماه الفاروق واعتلى المنابر وجلسات السمر كي يحدثنا عن مآثر الفاروق بن القواد وبأنه يشبه عمر بن الخطاب، ثم اعتلى ذات الأماكن كي يلعبه ويشبهه بفاروق المنيأوى شاب القرية المتسربل بالزنا والخمر والسرقات. ظللت بيت الحضرة مطمئنا وبالكنييسة مخادعا، حتى علمت بأن الثورة كان قائدها شاب يدعى عبد الناصر، فدعا له أبوزهر على المنبر ودعوت الرب فى الكنييسة أن يجنبني غضب الرئيس الجديد. عاد سائق الشاحنة بعدما ظهرت تفجيرات وأعمال قتل وتخريب نفذها بعض شباب اليهود بالعاصمة. قال: لابد وأن ترحل الآن والا فلا تلومن إلا نفسك وكما أتى غادر ومازلت بين السرايا والكنيسة وبيت الحضرة. ليلة الرحيل سمعت طرقا ضعيفا على باب السرايا الداخلى. كنت فى قلقى بين اليقظة والنعاس. نهضت فرعا وإلى الباب توجهت. وضعت أذنى فسمعتة يهمس: افتح يا خواجا لاكى. كان الشيخ أبو زهر فى ملابس امرأة بملاءة اللف وغطاء الوجه. فرعت من رؤيته وتراجعت للخلف خطوات بعدما فتحت الباب بحذر. كشف الغطاء وأمسكنى من ذراعى وهمس: ليس لديك وقت عليك المغادرة الآن. عبدالناصر يقبض على اليهود بعد التفجيرات. لم يعد الفرع وحده حالتي. أصبحت محاطا بالموت والجنون والغياب. من أخبرك بأننى يهودى. قلت وهو يخرج من طيات ملابس المرأة بطاقة هوية مزورة ومئة جنيه ورقة واحد حمراء. حاول اصطحابى للخارج فدفعته بعيدا عنى. من أخبرك!! لم

يجبني إلا بأن هناك شاحنة تنتظرني على الطريق وتصحبك إلى السنبلاوين ومنها إلى الشرقية فسيناء. إما الموت أو المغادرة الآن. ليس هناك من البشر من يختار الموت رغم أنه الحقيقة الوحيدة في حياتنا. حاولت جمع أغراضى فعنفنى وجذبني بقسوة. سرت إلى جوار المرأة المتخفية تتحسس خطانا. عند بيت الحصرة توقفت رغما عنه. دخلت الحوش وحجرة المجاذيب. مررت بحجرة اللبن فوجدت القط الكبير على بابها مازال واقفا يضرب بمخالبه كل قط دونه يحاول الاقتراب من الباب. شممت رائحة العجين ووليت عائدا. ابتعدنا سويا مع همس من صوت الشيخ غراب يذكر "حى حى" والصلاة خير من النوم نداء دخل به الشيخ سليم إلى خيمتنا.

فجر سيناء يلفحك بنسائم من خلود. محمل بعطر القدس ورائحة الأنبياء نهضنا جميعا وخرجنا أمام الحيمة. كانت حفيدات الشيخ سليم قد أعددن جرار الماء للوضوء. بعض شباب القبيلة يعد الخراف للذبح إكراما للمجاهدين. أمنا فى الصلاة وكما اتفقنا قبل الوصول إلى بلدة المساعيد سائق الشاحنة قرأ فى الركعتين من سورة البقرة واتهمنا باللحم المشوى. بيد أنه الوحيد من يعرف أين نحن ذاهبون ولم نحن فى هذا الطريق؟! منعنا من الاتصال بالشيخ سليم الذى رآنا شبابا مسلما مجاهدا فى سبيل الله وأيضا منعنا من الاتصال بشباب القبيلة. ابتعدت عن العيون لقضاء حاجتى، ثم عاودت فى طريق خلاف طريق الخيمات. بظل صخرة جلست أستعيد ذلك الكابوس الذى حل بحلول أبوزهر ومفارقتي دون رغبة وتحويل حياتى قسرا هل صرنا حطبا لنار أوقدها طرف الغياب فاحترقنا بها واستظل الغائب

بدفء لهيها دون أن نشعر؟ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، هذا ما أحفظه من دعاء بيت الحضرة ولا أعرف سواه. الرب يعرف ما أريد قوله وحده يعرف ما أدين به. تائه يارب وكره للدماء. تدرجت الشمس حتى توقفت عند رأسى. حاولت الالتفاف حول الصخرة كي أستقطع من الظل نصيبا يجنبني اللميب. كانت ظريفة الصغيرة تمر بغمامتها حول العشب اليابس وبقايا الأخضر المبعثر. العرق جاوز جبهتى فملاً تفاصيل الوجه ملحا. شردت غمة رضيعة وإلى جوارى توقفت، بعينها جبال الطفولة وبوجهها البراءة والحنين. التفت ظريفة خلف الصخرة بجلباها الأسود المؤطر بذهب زائف وخرزات ملونة. اختبأت ولم يظهر منها إلا منديل الرأس الأحمر الموشى بالأزرق والذهب. فجأة انقضت بجسدها الضئيل على الغمة الصغيرة، فسقطا سويا على الرمال. من فمها راحت تقبلها ظريفة وتحتضنها وتتقلب معها على الرمال. أى زيف نفعه كى تمر بعاديات الموت إلى قصور من وهم الخلود؟! كانت تضحك بقلب يزن كنوز الأرض براءة ونقاء ضحكت لجمالها معا، فثاغت الغمة وضحكت ظريفة التى سألتها عن اسمها. طلبت أن أمسك الغمة حتى تعود. توقفت وسط الأغنام وخلعت الكيس الصوفى عن رقبة كبش القطيع ومنه أخرجت شالا من الوير. عادت وقدمته إلى. قالت: ضعه على رأسك يحميك من الحر والعرق، فالرجال لا يصلحون للرجولة بلا غطاء للرأس. هربت ظريفة بغمامتها مع سماع صوت سائق الشاحنة الخفيف، وهو ينادينى: يا محمد يا عبدالله. أين أنت يا محمد يا عبدالله؟ لعنك الله يا محمود عبدالعظيم. قلت مرددا فى نفسى دون أن أظهر له. أسماء

حركة وطرق وهمية ويوم في الحضرة وآخر في الكنيسة وموعد الليلة بمعد
أورشليم، مالى والجنون. لعن الله دين الشاحنة والمتشاحنين والمفرعين
للغنائات وبراءة الأطفال. ظل ينادى بفزع عالم فقد القلم والقرطاس بعدما
خط عنوان التجربة. لم أحبه وقررت عدم الإجابة. يهود الشاحنة وشباب
قبيلة إكرام أهل الشاحنة والشاحنه والشيخ سليم شيخ تهريب المجاهدين
عبر الشاحنة يبحثون عن الهارب من الشاحنة. حتما سألتقى تعنيفا من
السائق وربما أيضا من الشيخ سليم. نهضت ووليت وجهي شطر القدس
وكبرت للصلاة. أشعر بهم جميعا حولي، لكن المشهد لا يحتمل سوى
الحشوع، فالرب هو أسهل الطرق وأيسرها كي نمر خطيانا دون لوم من
الآخرين. تقبل الله منك قالها الشيخ سليم. حرما إن شاء الله. قالها سائق
الشاحنة بغیظ. نهضت معهم وسرنا على طريق الحيام. سمعت صوت
ظريفة تنادى يا عم. تلوح بالशल حتى توقفت أمامي وهى تلهث. يهبط
صدرها الصغير ويعلو نتيجة الجرى فى قیظ الرمضاء. قالت: يا عم لا تنس
غطاء الرأس بعد اليوم. به تستظل وفى أيام الشتاء يدفى قلبك. أخذت
الغطاء من يدها الصغيرة وقبلتها وسرنا على الطريق.

طريق يسلمنا إلى طريق وظلمة تأخذنا إلى ظلمة. فى المعبد التقنا يساكر
بطيبة لم أحسها فى بيت الحضرة ولا كنيسة الشهيد أبانوب. بسفر الخروج
استقبلنا وبمزامير داود جهز موائد الطعام ودخلنا إلى عنبر النوم. طابور من
الأسرة المعدنية تزدهم بهم القاعة. فى نهاية العنبر سور من قماش يحجب
الرؤية عن سكن النساء الآتين عبر شاحنة المغرب القصى. الصمت والترقب

واستغراب المكان هو المسيطر علينا، وحده صوت أنثى منطلق بلا تحفظ من عنبر النساء. على الرغم من تحذيرات يساكر لصاحبة الصوت إلا أنها لم تلتزم السكون. فهدد من خلف ساتر القماش بمعاقبة لوزير. فانطلقت الضحكة أكثر ضحيجا وسخرية. هذا ما قاله يساكر ورد من عرفناها بلوزير أسقطنا طول الطريق ووعثاء السفر في نوم عميق. استيقظنا على ضحكات لوزير، وهى تكشف فرجة من الساتر وتنظر إلى عنبر الرجال. استيقظوا يا أبطال إسرائيل. قالت ثم تابعت بضحكة رقيقة. أتى يساكر مغاضبا وقد أزاح الساتر بيننا. مثل عنبرنا كان سكن النساء. وجوه مترقبة وقلوب أتت من بلادها نحو مجهول. جلست إلى الطاولة المجاورة للوزير التى لم تكف عن الكلام والمزاح معنا جميعا وكأنها تربت في بيت حضرة بلادها. لا أعرف مادفعنى لخلع غطاء رأسي الصوفى وحول وسطى عقدته. تحركت نحو الباب ومن خلفه أتيت بالمكنسة خلعت عنها العصا ووضعتها على كتفي ورحت أرقص بقاعة الطعام وأغنى "أخضر يا عود اللينة يا ليلة بيضا عندنا هاتوا العاذولة نخبسها لما نفرح ابننا" نهضت لوزير وسحبت عن عنق جارتها كوفية من "هلد" الإنجليز وأدارتها حول وسطها وقابلتنى فى الصالة رقصا ملتبها وهى تغنى "عيشة قنديشة" بدأ بعضنا يغنى معنا "أخضر يا عود اللينة" وبعضنا "عيشة قنديشة" منهم من راح يطرق بانتظام على طاولة طعامه حتى صار إيقاعا. بعض الفتيات نهضن للرقص. كنا ندفع الخوف بالغناء وتعبيرات الأجساد المتعبة، حتى دخل يساكر غاضبا وعنفنا على أفعال لا تجوز فى حضرة قدس الرب. أمرنا بالانتهاء من الإفطار كي تغادر فورا إلى

مركز القيادة. جلست لويز ووضعت ظهرها إلى ظهرى. بدأنا تناول الطعام راحت تضربنى بكوعها فى جنبى. استغربت فعلها فى المرة الأولى، فالتفت بنصف زاوية إليها، فلم تلتفت وكأنها لم تفعل شيئاً واستمرت فى محادثة زميلاتها. عاودت الضرب، فضحكت بصوت مرتفع. سمعتها تهمس دون التفتات: اسكت حتى لا تأتى عائشة قنديشة. ثم ضحكت ونظرت ناحية الباب الذى خرج منه الحاخام، وكأنها تقصده بعائشة القنديشة. انتبهنا من الإفطار وخرجنا سيرا على الأقدام، فى استعراض حكومى للفت الأنظار ناحية حماة الوطن الوافدين. كنت إلى جوار لويز فى طابور العرض، وإلى جوارها جلست فى قاعة بن جوريون للمحاضرات. انتظرنا قدوم القادة الأبطال محدقين ناحية منصة الوعظ والكلمات المرتقب توجيهها إلينا كجنود جدد. مع إعلان قدوم القائد إيهود، وقفنا جميعاً ورحنا نصفق قبل أن نراه. صفق بعض الحراس فنبعناهم، رغم أننا لم نر معجزة توجب التصفيق. مفاجأة دفعتنى إلى الجلوس ذاهلاً حينما رأيت سائق شاحنة الأمس هو قائد المرحلة إيهود. راح يلوح بيديه فى اتجاهنا ويعقد قبضة يده اليمنى على اليسرى ويشير إلينا يوازي السبابة والوسطى على شكل رقم سبعة ويحرك يده يمينا ويسارا. تذكرت هتلر وهو يعقد ذات اليدين ويفردهما ويوازي سبائته بوسطاه. أشار إيهود ناحية الباب فأعلن الحارس قدوم الجنرال عوفا. دون مقدمات سقطت لويز إلى جوارى عندما رأت الجنرال عوفا على المنصة. ثم قرصتنى من فخذى وههمست: يخرب بيتك يابن أم كوهين، من سائق شاحنة بالأمس إلى قائد اليوم. أتى يساكر وتوسط القائدين وجلسوا

خلف المنضدة. ألقى عوفا كلمته وتبعه إيهود ويساكر يغط في نوم عميق. انتهى اللقاء فنهضنا وصفقنا ومعنا نهض يساكر بعدما نبهه إيهود، فصفق بجرارة من اقتنع بمطروح الأفكار كنت سعيدا بمعرفة لويز وصحبته. في طريقنا إلى السكن الجماعي الذى انشطر، للرجال نصيب، وللنساء نصيب، كنت ساهما غير محب للتجربة كانت لويز مرحلة طوال الطريق تغنى "عيشة قنديشة" ثم في لحظة مفاجئة تحولت أكثر منى شرودا. سرنا صامتتين حتى قالت: أظن أننا وقعنا فى أحضان "عائشة القنديشة"؟ لم أجبها لأننى مازلت شاردة لا لأننى لا أعرف عائشتها، على الرغم أننى حقا لا أعرفها. انتهت على رسم علامات الشر على وجهها وتحويل قبضتيها إلى مايشبه مخالب النمر وأحنت جسدها كثيرا وبدأت تتحرك كما قرد يستعرض فى سيرك روسى وفرجت عن شفتيها وضمت أسنانها، وقالت: أنا عائشة القنديشة. أنا العجوز المغربية التى تستدرج البشر وتضاجعهم بعدما تتحول إلى جميلة. أنا من تأكل لحمهم وتشرب دماءهم بعد الانتهاء. رفعت لويز جزءا من بنطالها وأشارت إلى أن أنظر إلى رجلها، وقالت: أرجل ماعز. جال. خيل. أنا عائشة القنديشة. انتهت لويز من تمثيليتها وارتمت على الرصيف وضمت ركبتيها إلى صدرها وغمست فيها رأسها وأجمشت بالبكاء، وهى تسألنى: هل يأخذنا عوفا وإيهود ويساكر إلى أحضان جنية المغرب ذات الأرجل المتحولة؟ أخاف عائشة القنديشة يا لآكى. إلى جوارها جلست وكما بكت بكيت. قلت: أخاف من النداهة الجميلة التى تأتى الفلاحين فى الليالى المظلمة وتناديهم من خلف النوافذ المتأكلة. تصحبهم إلى مدار الساقية

مسحورين بجمالها. تضاجعهم ثم تكشف عن ساقها وتظهر أرجل الماعز. كثيرا بكينا ثم سرنا على الطريق نتجنب عائشة القنديشة ونداهة الساقية.

لم تكن ناتالى قد تحولت بعد إلى فيلة تل أيب. تعرفت إليها في حفل استقبال الوافدين الذى نظمه يساكر فى دار المشاة. من خلالها عرفت لارا وصوفيا وكثيرا من نساء شركة المناسبات السعيدة. لم أقطع علاقتي بها بعدما أصبحت فيلة البلاد ومجنونة الوطن. على سرير مرضها أنقذتني من حبل المشنقة. لازمتها رحلة توقيع الكشف الطبى بعدما تبينت تبولها اللإرادى وكان سبب هجران عوفا لها وسباب العجوز الذى تبينت أنه القائد كوبرك المختفى. خرجت من المشفى بعد استئصال ورم فى نخاعها الشوكي ألزها ذلك السرير الذى صمته بنفسى وأشرفت على تنفيذه. كانت تمل الوحدة داخل الفيلا. وكنت أُسرَى عنها وقت الفراغ وانتهاء العمل حتى اقترحت عليها قضاء النهار فى الحديقة والليل بالداخل. لم يكن لنا تالى سوى ذكريات الشباب وأسرار القادة كى تسلى بها جلساتنا خوفا من أن أمل زيارتها وأقطع. تمنحنى كل يوم حكاية غير مكتملة، كى تضمن زيارتى فى اليوم التالى. كنت متشوقا لمعرفة العجوز الذى مات بسبب تبولها فى وجهه وظننت أنه من بال ليلا دون شعور. مالت تالى عن جنبها قليلا ثم طلبت أن أزيح وجهى بعيدا عكس اتجاه الريح وأخرجت غازاتها ثم تجشأت، وقالت: عندما دخلت الحجرة كى أبحث عن ثياب يوارى سوء ما عراه عوفا وهرب رأيت صورة القائد كوبرك معلقة على الحائط بزته العسكرية وأخرى مع الجنود وثالثة بصحبة الرئيس. فرحت لأن جسدى المشتفى لم

يخلق إلا للقادة. وَقَفْتُ إلى جوار جثته وقدمت لها التحية الواجبة، ثم عدت إلى الحجرة وقنشت فيها عسانى أحصل على تذكّار يناسب هذا اللقاء التاريخي. أخذت من خزانة الملابس لباسا داخليا ومن صندوق الذخيرة طلقة واحدة خلا الصندوق إلا منها. فتحت درج التسيّجة الأخير فأكرمنى القدر بمذكراته التى خطها بيديه. خرجت إلى الصالة وحملته بين يدي مثل طفل وأودعته السرير كي يموت بما يناسب قيمته. طرحت عليه ملاءة بيضاء ناصعة وعطرته بما وجدته على التسيّجة من بقايا العطور، ثم مشطت شعره، وإلى الحمام أتيت بمأكنة الخلاقة وحلقت لحيته والعانة البيضاء المقززة. من هاتف حجرة النوم اتصلت بالشرطة وأخبرتهم موت الجنيرال العظيم كوبرك، ووليت هاربة. من أوراقه علمت أنه لم يكن الطرف الأصيل فى مذبحّة الأقصى. لم يكن غير حطب اشتعال نار أوقدها عوفا ويساكر وإيهود. جاءتني لارا قبل المذبحة بسنتين وأخبرتني أن المقدس يساكر يرغب فى أن تلد بعض نساء الشركة أطفالا كي يأخذهم لخدمة المعبد. كانت لهجته آمرة ومهددة. نصحتها بالتنفيذ حرصا على استمرار الشركة دون مضايقات. قبل المذبحة قرأنا فى الجرائد وشاهدنا على الشاشة طفلا إسرائيليا مذبوحا بأيدي امرأة عربية. جميعنا طالب القادة بالرد والانتقام حتى قام كوبرك بمجزرة راح ضحيتها المئات من العرب. كان يساكر هو الذى أقنع القائد بالتنفيذ مرضاة للرب. مذكراته تكشف عن مؤامرة شارك فيها عوفا وإيهود ويساكر الذى لعب دور الرب فى إقناع كوبرك بالنص المقدس، مقابل قطعة أرض ساحلية بمنطقة العجمي، على الرغم من أننا لم نعرف من

هو ذلك العجمي. فينيقيًا كان أم رومانيا. تركيا محتلا أم فرعونيا من الزمن البعيد. تمت الصفقة رغم هزال العرض وعرفت من لارا أن المقتول كان طفل الشركة ومن مذكرات القائد عرفت أن القاتل هو يساكر المقدس والقتلى كانوا ممن لا يبيحهم الإعلام وتذكرهم حفلات المجد. اختفى كوبرك لكن ليس إلى الأبد كما ظنوا، لكنه أثر سلامة روحه بالبكاء على خطيئته، فمنحه الموت شرف البكائين وصورت الصحف ووكالات الأنباء جسده على السرير وتناولوا شهادات الشهود حول العطر الذي سكبته ملائكة الرب وقاموا بتطهير جسده قبل الدفن مكرمة للقائد المنتقم الجبار. ظلت الأسطورة الملائكية تنتشر وتتسرب وتقر حتى إلى كتب المدارس ومعاجم المؤرخين، فمنحوا جسده رتبة قدسية إلى جوار مراتبه العسكرية قبل الدفن. أسكنوا الجسد التراب وحصل يساكر وإيهود وعوفا على مساحات شاسعة في رمال شاطئ العجمي.. بنوا عليها شركتهم السياحية تحت مسمى يشبه تماما مسمى شركة لارا. كلهم يبحثون عن نصيب معلوم من كعك الحياة ولا يأخذ منها إلا دقيق الرماد. كن للزمان دائما فتصرف من خزائنه عصاة للالتكاف ولا تكن له مدينا فيسوى حسابه مذلة وهوانا. شكرا يا لاكي على هذا السرير، فهو معلوم نصيبي من تلك الحياة. مالت على جنبها وأطلقت للريح روائحها. كان هذا آخر ما وصلني من صوت نتالي قبل المحاكمة.

الصخب والصراخ وبقايا انتظار أبي زهر وشكرية القفازات وابن النقاش أعلى جسر النهر. الأهالي يصرخون: غريق جديد أكلته الشجرة في الصباح

الشجرة تطورت مع الزمن، لم تعد تهتم بالابتلاع في ميقاتها المعلوم مع اكتمال القمر مداه بدرا. كنت نائماً تحت الجميزة العتيقة غير معنى بما يقولون. لم يكن بينهم لآكي أو غراب أو شيخ الحضره كى يبادر بالمعرفة فينزل إلى فوهة النهر كى ينتشل الغريق. انقضى الوقت كلاما والفعل كلاما سمعت من ينادونها بالخالة شكرية تطالبهم بلبس القفازات خشية أن يكون الغريق امرأة، على الرغم من أننى نائم خارج الماء إلا أنهم اتخذوا قرارا بشأن الجسد ومنحوه لقب الغريق المسكين، فهمى العادة فى إكساب الوهم صفة الحقائق. طلب بعضهم الانتظار حتى يأقى الشيخ عبودة أبوزهر، فأدركه المجاور له بأن الشيخ فى المشفى لإجراء جراحة البواسير شفاه الله. صرخ شاب بهيئة الفُرسيين وبقايا اليوسيين أن اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً وإن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا. الشيخ عبودة فى المشفى لإجراء جراحة الناسور نظرت شكرية إليهم بقر، وقالت: من لا يعرف فليقل عدسا. الشيخ فى المشفى لترميم شرح فى الشرح. زرته اليوم والطبية أكدت ذلك. عاد الشاب الفرسى وتحهم وتعفرت وانتفض، ثم قال: لا يجوز شرعاً أن تنكشف عورة الشيخ على امرأة. اتق الله يا أخت شكرية. جاءت ضحكة ساخرة من شاب تبدو نظارته ونصف لحيته كما تصاوير لينين فى الكريملن وإدارك بهدوء وهو يفسر يديه متقناً للحركات حد جذب الحاضرين: المشكل هنا فى الاقتناع غير المرئى فى الأفق المحدود المبلور لميتافيزيقا الوجودية السارترية من خلال ذاتيه الفعل المتخاذل. على الفور عنفه الشاب الفُرسى وأقسم بالله أن المشكلة فى انتشار التشيع فى أمريكا اللاتينية بما يهدد الوجود الإلهى فى

جورجيا من خلال إبادة المسلمين في ميانمار. حدثت مشادة كلامية بين الشايين وتحولت لعراك شارك فيه الحاضرون جميعهم. كنت قد أخذت قسطا كافيا من الراحة فنهضت، وعلى المهبط سرت حتى اعتليت الجسر ومرت بين المتعاركين فلم ينتهبوا لعودة الغريق إلى الحياة. جلست قليلا على عتبة مسجد البحر الذى لم يكن فيما مضى، حتى انتهت المعركة التى خلفت جريحين وبضع سباب تنتهى به المعارك دائما. مر رجل يبدو محميا فى حضرته، سألم عن سبب تجمعهم أعلى الجسر. فراحوا يشرحون ما دار من حديث بدأ من الاختلاف حول مؤخرة أبى زهر وحتى الجريحين، فعاد الرجل السؤال وأعادوا نفس الجواب وكأن الزمن لم يتحرك لحظة منذ ستين سنة. ترك الجثة فى النهر ونختلف حول وضعها فى الماء، أكانت على ظهرها أم وجدناها منكفئة على بطنها؟! تركهم فى العتاب ومرت من شارع الملحج إلى ضريح سيدى عزالدين. قرأت الفاتحة بترتيب حضورهم فى ذاكرة الفضل سيدى عزالدين وتقييه سلامه، ثم شيخ الحضرة، فغراب وانتهيت يياكامغللو المحترم لأنه آخر من رم الضريح وأعاد بناء المسجد. شهدت الواقعة الحقيقية والأسطورة التى رواها بعدما نجا من الغرق خلال رحلته من اليونان إلى الملحج. جاءه شيخ الحضرة عندما شرع فى هدم المسجد واستعد لإعادة البناء. سأله: ماذا تعنى الكنيسة لك يا خواجا؟ فأجابه يياكامغللو: بيت الله. سأله الشيخ ثانية وماذا يعنى المسجد لنا؟ فأجاب: أيضا بيت الله. قال شيخ الحضرة: وقد تهدم بيت الله فماذا أنت فاعل؟ أمر يياكامغللو دون نقاش أن يصرف سيرو من خزانة الملحج مئة

جنيه إكراما للشيخ والمسجد وسيدى عزالدين. بعدها غادر وجاء ميقات العودة والمسجد لم يرتفع بعد. طلبنى الخواجة فى مكتبه. ذهبت حيث طلب. فأمرنى بإحضار عمى مصطفى كان ساعتها بين البنائين ومجاذيب المقام ورواد المسجد يعملون فى البناء ناديتنه فنفض يديه من طين المخمرة ورحب بقدمى. أخبرته بطلب الخواجة فصاحبنى دون أن يغتسل أو يظهر فى هيئته البهية التى اعتدناه عليها استقبله ياكامغلو بترحاب شديد ثم أمر بإحضار سيرو فورا. وفورا أمر بصرف مئة جنيه جديدة لصالح المسجد. ضحك الشيخ ولم يطلب تفسيراً للعطاء. سمعت ياكامغلو بنفسى ورأيت وجهه المتعجب وهو يمنح شيخ الحضرة المال. قال: كنا عائدین بالباخرة وفى منتصف البحر نادى القبطان أن ارتدوا سترات النجاة، السفينة تغرق. لم نلبث ساعة حتى كنا جميعا معرض البحر نلتمس النجاة. رأيت سيدى عزالدين يمد يده من طاقة المقام ويسحبنى بأمان وهو يردد: لا تخف ياكامغلو فنحن لا نترك رجالنا.

خرجت فى صحبة عمى مصطفى الذى استقسمنى بالأأردد ما قاله الخواجة قال: محض تخيلات ضر ذكرها أكثر من نفعها. أقسمت ووعدت رغم أننى شبه مكذب نصف مصدق كنت. لماذا يذكر الخواجة مثل تلك الحكايات الأسطورية؟ لا هو بالدرويش ولا بالمجنون وأثق تماما فى قدراته العلمية ياكامغلو لا تحركه الأساطير والرأسالية لا تعرف بذخ التبرعات وإن فعلت انتهيت من قراءة الفوائح وسرت موليا ظهرى للضريح. بعدما تجاوزت ساحة المقام ودخلت شارع الدائر. توقفت أمام بناء شاهق عن يسارى. هنا

كان بيت أحمد النادى. لن أتردد ولن أسأل كثيرا عما إذا كان حيا أم مات في صحراء سيناء أثناء العودة أو عاد وسلم نفسه للزمن فمات بيذة الإعدام "الكفن" مثلما علمنى ياكامغللو وشيخ الحضرة فعلت. بادرت بطرق الباب حتى خرجت امرأة فى مقبيل زهر العمر فسألتها عن أحمد النادى. تعجبت لسؤال العجوز عن أخيها ورحبت بدخولى. أجلستنى فى حجرة المسافرين وخرجت - أحمد حى - صورته على الجدار دون شريط أسود. حاولت الوقوف مع دخول أحمد النادى إلى الحجرة، فلم يسعبنى الجسد. انحنى بشبابه القوى على يدى ومنعنى القيام قال: مرحبا يا جد. رحت أحدثه كما لم نفترق يوما، لكنه لم يعرفنى. وضع حديثى فى وعاء المجاملة كى لا يشعرنى بالحرج فى حالة سؤاله عن شخصى. دخل رجل ستينى العمر ورحب بقدم مجذوب أتى من الضريح إلى الدار يسألهم الطعام، كما ظن الأب الذى أمر الشاب بإحضار الطعام. عند باب الغرفة ناديت الشاب وقلت: أشكرك يا بنى لست جائعا. توقف على العتبة واستدار للدخول، فعنفه الأب وأمره بالطعام. عدت وشكرته وعاد الأب فأمره وعدت فشكرته وتداخلت أصواتنا حتى سمعت صوتا ضعيفا يأتى من الصالة المجاورة يسأل عن الضيف الذى حضر. الصوت ليس غريبا على مسمى، لكننى لا أعرفه يقينا. خرج الشاب الذى هو صورة منسوخة من جده أحمد، وتحدث إلى صاحبة الصوت: غريب جاء للطعام أتى ردها كى يعيد الزمن إلى حيث غادرت: الطعام ليس هنا يا ولد. الطعام فى بيت الحضرة. ضحك أحمد وخبرها بأن بيت الحضرة خرب بعد موت الشيخ ووفاة الجدة خالدة. قلت بلا حياء

يجب على ضيف في بيت غريب: وكان أحمد النادى والطنطاوى المهدي
يعدان النار لشاى المجاذيب. صرخت المرأة قدر استطاعتها ورددت:
"أخضر يا عود اللينة يا ليله بيضا عندنا" ثم سكنت، فأكلت الغناء "ها توا
العاذولة نخبسها لما نفرح ابننا" أثنى صوت بكائها وراحت تناديني: تعالى يا
غريب. التفت إلى الأب وطلب منى الذهاب إليها، فقد أصبحت كالأطفال
لن تتنازل عن طلبها وإن أخذته بالبكاء المصطنع. ساعدنى ولد أحمد النادى
وحفيده الذى دخل لتنفيذ طلب الجدة حتى يتجنب بكاءها. جلست قريبا
من سريرها المتخذ ركنا فى الصالة كما أسرة كل العجائز فى بلاد الله. دوما
يرفضون الحجرات المغلقة وينتظرون زائر الموت فى المنتصف. يسألون المار
بجوارهم من أنت وابن من. ما الذى تحمله فى يدك. لماذا أنت مستيقظ إلى
هذه الساعة؟ وغيرها من الأسئلة التى تشعرنا بالحياة. مدت جسدها
بتناقل وعنقها بضعف حتى اقتربت من وجهى وسألتنى ذات السؤال الذى
تسأله عجائز الصين والهند وأمريكا وحارة سيدى عزالدين: من أنت؟ بقايا
الشامة على خدها الأيمن والجرح الغائر فى جبهتها من أثر رفسة حصان
عبدالمعبود دفعانى إلى تحيتها باسمها: كيف حالك يا فريجة. الدهشة أخذت
نصيبها من الجالسين برفقتنا. قالت: الحمد لله. صوتك ليس غريبا يا غريب.
من أنت؟ قلت مداعبا: أما زالت أملك تضرب نافذة الخواجا لأكى بكيزان
الذرة. بكت فريجة وسألنى ابنها: من أنت يا عم؟ مر طفل إلى جوار السرير
فعنفته فريجة وهى تبكى ثم سألته: ابن من أنت؟ نظرت إلى الابن وسألته
عما إذا كان أحمد النادى مات فى حرب يونيو أم عاد سليما؟ أجاب: عاد

لكنه لم يعد سليما. عاش كسيرا حتى رحل إلى مقابر سيدى غانم. وكيف عاد سألته؟ عادت فريجة من بكائها لتسألني من جديد عنم أكون ثم نظرت إلى ابنها وسألته أيضا من يكون ثم أعادت صوتك ليس غريبا يا غريب. صمت وكأنا غير موجودين. ذهبت حيث قدرت لها الذكريات. التفث ناحية الابن الأب وسألته عن عجيبة الهلالى وعمّا إذا كان قد عاد من الحرب؟ قال: كنت تسألني عن أبى يا شيخ. أشعر أننى فى مكان لا أعرفه ولا أعرف سببا لمجيئ إليه، فاستوضحته فقال: عاد أبى من الحرب محطما ذاهلا فى حالة تدعو المؤمن لرتاء الكافر. ملابسه ممزقة. شعره مغبر أشعث. حذاؤه ممزق حتى صار بلا نعلين. وصل بعد منتصف الليل وطرق الباب طرقة واحدة. خرجنا فوجدناه غائبا عن الوعي، مطروحا على عتبة الدار. كانت فرحتنا لا توصف لكونه حيا. غيره جاء فى التواييت العسكرية وبعضهم لم يأت إلى يومنا هذا ولن يأتى. ظل صامتا لمدة أسبوع وحتى خرج إلينا بحكاية تأكدنا منذ أن حكّاها بأن الحرب قد أخذت النصيب الأكبر من عقله. قال: نجونا من القصف الجوى ومن دبابات العدو التى كانت تمشط الأرض وتسويها بأجسادنا. كنّا أربعة جنود. سرنا فى الاتجاه الخاطئ حتى كدنا نموت عطشا تحت الشمس. فى مساء ذلك اليوم تخطفتنا سيارة نقل جنود إسرائيلية. لم نفكر كثيرا فى مصائرنا فمشهد الموت والدماء جعل الحياة عندنا كالمات. لا فارق بين هذه وتلك، فللموت رائحة طيبة إذا ما فسدت رائحة الحياة. كان أبى يتحدث إلينا بطريقة واعظ وبكلمات نبى بيد أننا نحتفظ فى مكاننا بكنوز الأنبياء وحكم الصالحين ولا يخرجها سوى الألم دون أن نشعر. أبى

الذى ذهب غير الذى عاد، حتى أمى شاركته الهزيمة وظلت فى حزنها حتى اللحظة. عادت المرأة العجوز مرة أخرى وتمتت: راح أبو الرجال ورجع مذلولاً يا ولدا. قال إن الخواجه أنقذه. عدت أنا أيضاً ولم أكن قبل هذه الساعة معتاد الغياب. أنا فى دار أحمد النادى تذكرت فسألته ومن الخواجه الذى أنقذه. من جديد تركت الحكاية وقالت: صوتك ليس بغريب يا غريب. من أنت؟ ادرك الابن: نعم عاد بحكايات أودعته دار الشك عندنا. قال: أمسكونا بالحديد من أيدينا وأرجلنا، ثم تركونا ساعات فى معسكر للأسرى. كنا سعداء بتلك الراحة حتى لو تبعها الموت نمنا ماشاء الجنود أن يسمحو لنا، ثم ألزمونا الشاحنة بعد ساعات لم ندر کہا واتجهوا بنا ناحية نقطة تسليم الأسرى. توقفت الشاحنة عند نقطة الوصول على مابدا. قدم الجندى الذى كان برفقتنا التحية للقائد بكلمات لم نفهمها وبصوت منضبط، كما كنا نفعل، فتيقنا أهمية الشخص الذى تسلمنا بالعدد تركنا الجندى ومن برفقته داخل الشاحنة، وغادروا فى سيارة أخرى... الظلام منعنا الرؤية وتحديد الأماكن والشخوص فكان إدراكنا تخميناً. صعد القائد وأنا كشافاً فى وجوه الأسرى. مرر المصباح على وجوهنا عدة مرات، ثم ثبتته على وجهى وأمسكنى من كنفى وهمس حتى تخيلت أنتى أحلم: أحمد النادى. قالها فكدت أصرخ. كمنى بيده بسرعة واختطاف، ثم قال: اسكت رفع يده عن فى فهمست وأنا أبكى وسألته من يكون وكيف عرفني؟ أعاد يده على فى ثم سلط الكشف على وجهه. كان الخواجه لأكى. أقسم بالله كان الخواجه لأكى. احتضنته كما غريق اشتبك بمنقذه. فأمرنى الصمت. نزل من مؤخرة

الشاحنة التى دارت بعد دقائق وعادت إلى طريق المجيء. سرنا مدة غير بعيدة من الزمن حتى توقفت. عاد إلينا الخواجة لآكى ومعه عبوة من ماء مثلج وبعض الخبز الطرى وورقة أعطانيها ثم سألنى عن عجيزة وعمّا إذا كان قد شارك فى المعركة أم لا؟ أخبرته بأنه لم يشارك، فالهلايلة لهم نصيب معلوم من أى سلطة تحل بالبلاد، فهم الآن يعملون لحساب جمال عبدالناصر وعجيزة أصبح كبيرهم. طلب أن أبلغه السلام ولشيخ الحضرة مثله وللشيخ غراب، ثم أشار ناحية طريق الهروب وأبلغنى بإعطاء الرسالة إلى السيدة التى تقود دورة الحراسة هذه الليلة إذا ما صادفتنا. كان اسمها... معذرة يا عم، نسيت اسمها. قلت: اسمها تتالى الفيلة. قال: لا حاولت جاهدا تذكر اسم صديقتى التى كانت حاضرة الغربية ولم تشعرنى بها هى على أية حال "عائشة القنديشة" "عيشه قنديشة"

صوتك ليس بغريب يا غريب. قالت العجوز التى على السرير. فريجة. نعم اسمها فريجة. ضحك الابن، وقال: فريجة هذه أمى يا عم. صرخت بلا صوت مرتفع وكنت فرحا لعودة الذاكرة: اسمها لوز. الطيبة لوز. أريد أن أعرف منك هل قابلته لوز وقدرت صداقتى لها؟

- صداقتك!! من أنت يا عم لا ترهقنى ؟

- أنا الذى أودعوه قفص المجرمين بعدما اكتشفوا هروب الأسرى. كادوا يطلقون الرصاص عليه لولا رسالة وصلت من تتالى إلى إيهود وعوفا ويساكر تخبرهم بنفض جرائمهم إذا حكموا على بالإعدام. أرفقت مع الرسالة نصا بخط

الجنيرال كوبرك يذكركم واحدا واحدا. فكان البديل أسيرا مصريا دونوه في أوراقهم باسم... قاطعتنى فريجة وتهلل وجهها وحاولت أن تظهر فرحتها فبدت مثل طفل بعد حبو راح يخطو للأمام. قالت: لاكى. أنت الخواجه لاكى يا عفريت. كنت تعاكس أمينة خليلايه من الشباك، فتضربك بكيزان الذرة. لم أرك منذ أسبوعين والخواجه سبيرو غائب وكلكم لا تسألون عنى. صوتك ليس بغريب يا غريب. من أنت؟ أشعر بالجوع وجسدى يؤلمنى دون إنذار مسبق. قلت: غريب يريد الطعام. نهضت متكئا على عصاتى ويد تحاول منعى من المغادرة وصوت يطلب الانتظار للطعام وشارع فسيح وضباب يحجب رؤية الأشياء وأصوات أشباح تقول: اشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. اشهد فأنت تموت. أصوات تنادى ياهو وأخرى تطلب المسيح. تتوحد الأصوات. أنت تموت. وصوت بداخلى يردد فقط أحبك يا الله.

الجمع

أقسمت برصاص العسس وبمنصة الكلام وسط الميدان وبكل ما حدث، أن بالغيب مونيكا لم تكن. فعش حمارا يا هذا وادخل النفق وارتجل لما بعد الحداثة قصيدة ولنهاية الفلسفة قصيدتين. ضعف الطالب والمجد للمطلوب تزوجت مونيكا من الطبيب الإماراتي واستعملتك لجسدها فبك استمتعت وحقت مصالحها وانتهت، وكنت الزاني وإن لم يرك أحد. فأنت لا أول المستخدمين بغفلتهم ولا آخر السائرين في الطرقات الحجرية، فاستغفر لذنبك واشكر الله على ما أتاك من نعمة الخرائب ولا تنس ذكر خرابة عامر وخرابة سيدي زين العابدين. فمنها حصلت على وظيفة لم تحلم بها، وعلى طريق وهم المجد سرت فأصبحت ما أنت فيه. انتهى عم رؤوف الذي جلست عن يمينه وسعد الآخر عن يساره من توجيه تلك الكلمات التي لم أفهم لمن كان يوجهها، ولم كان يردها. فقط عدت من الإمارات في إجازتي كي أطمئن عليه. جلست في صالة شقته وسط ازدحام الكتب. لم يرحب بي ونظرني بقرف كما فعل يوم العراك بين العلمانيين والإسلاميين وسقطت بينهما حتى أدركني الشاب المهتر العطش. بعد دقائق من وصولي سمعنا جلبة وضجيج بالشارع. تكبيرات يتبعها صراخ كما يفعل جمهور المطربة الكولمبية شاكيرا زادت حدة الصراخ حتى وصل أمام الشقة. فتح عم رؤوف الباب فرأى سعد الأصيل بملابس أبو مالك الفقير أمام الباب. يخط بقلمه تذكرا للمحبين أشار إليهم بكلتا يديه وبدأ حراسه في دفع الناس للابتعاد. ألقى

السلام على عم رؤوف الذى استدار ودخل إلى الصالة دون أن يرد التحية. توقفت الحراسة أمام الباب ودخل سعد وجلس دون تحيتى، وكأنه لا يعرفنى تماما لم يعقب على خبر زواج مونيك من الطيب، رغم أنه كان يبحث عنها مثلى بيد أن ثراه الذى بدا لعينى، أفقده الحب والمودة. مثل آلة كان يرفع كم جلبابه الأيمن كل دقيقة، كى تظهر ساعة يده "الشوبارد" التى عرفتها للتو فهضت إلى النافذة كى ألقى نظرة على سيارته التى كانت بمثل ثمن "الشوبارد" مليون ومئة ألف دولار أمريكى. بدا عم رؤوف غير مهتم بوجودنا وغير مرحب بنا. وقفت أمامه وسألته: بكم سنة يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء يا مولانا؟ حرك يده اليمنى فعادت "الشوبارد" للظهور ثم وضع ساقا على أخرى فظهر حذاءه "التيستونى" ثم قال: بخمسائة عام. كان عم رؤوف قد تركنا وراح يبحث بين الكتب وكأنه يرغب فى أن تغادر. قلت: ما رأيك يا مولانا وأنا أحبك فى الله. لم لا تعطينى ساعتك والسيارة والحذاء وتعطى عم رؤوف نصف مالك وتسبقنا إلى الجنة؟. بعنف أنزل أبو مالك الفقير ساقه عن ساقه ونهض واقفا. فعدت وسألته: ما رأيك فأنا لا أرتضى أن نسبقك يا طيب؟ بغضب ونقلنا عن جدتى خالدة فى أمثالها القبيحة فعل مثل من لم ير اللحم يوما فرأى ما بين فخذى أمه فجئ. أجاب بـ: خخخ شجرة من عمق قرار حنجرتة ثم توجه ناحية الباب وهو يردد: حقد. توقف قبل الخروج وأخبر عم رؤوف عن سبب الزيارة. قال: رغم أن الفرح لن يحضره سوى رموز الوطن وسعادة السفير إلا أننى جئتكم للدعوة. غدا زواجى بمونيك فى فندق "جراند حياة" خرج مسرعا مخلفا الباب مفتوحا

وعقلى مغلقا عن التصديق فمونيكا فى حضن زوجها الطبيب. مازال عم رؤوف أمام الكتب يتصفح فى واحد وكأنه لم يتنبه لدعوة أبى مالك أو مغادرته. وقفت استعدادا للمغادرة كى أعود إلى فندق المطار وأستعد لزيارة أمى فى الصباح. ودعت عم رؤوف بالتحية فلم يرفع عينيه عن الكتاب ولم يرد. تقدمت نحو الباب وقبل أن أخرج نادانى للدخول. ترك الكتاب بلطف على الطاولة وكأنه يضع رضيعا فى السرير. طلب أن أجلس ثانية، ففعلت. راح يسألنى ورحلت أجيب.

- هل استمتعت بمونيكا؟

- ظننت.

- هل تعبت عليها؟

- لا.

- وأى فقير يدخل الجنة قبل الغنى بخمسمائة عام؟

- كل ثرى يفتقر إليه.

- وأى غنى متأخر يا سعد؟

سعدت حينما سمعت اسمى يردده، فتأخرت عن إجابته، فأعاد وسأل وهو يتنسم كأم تعرف تفاصيل أنفاس ولدها. قلت: كل فقير عنه قد استغنى، ثم اكملت إجابتى بسؤاله أينما سعد الأصيل يا عم رؤوف؟

قال: قد أوتيت سؤالك يا سعد، فأنت السائل والمسئول. وحدك من يعرف الإجابة فلا تسألني وسله وحده، فهو أنت في مكنون صورته وأنت عماء ذاتك عن حضرته، فتبدل به إليه كي تكون أنت هو؟

سبحان قلبي. سبحان عقلي وروحي وتباعيضي. سبحاني إذا ماصرت فيه فهو الحقيق بالتسايح. يا أنا يا من لا عقل له ولا قلب ولا روح، ليس فيك إلا ماكان منه فيك، فسبحانه ولا تزيد.

يارب صرت كما بركات والجوسقى. مالذي أقوله وما الذى قاله عمى رؤوف. دون تحية أو وعد باللقاء غادرت. توقفت عند ناصية محل أعلاف عم مينا. التفت يمينا ويسارا كي أكتشف مرور السيارات وأتجاوز الطريق دون أن تصدمنى عابرة. كان المصباح الذى يضيء المكان مختلا، فيشتعل وحده وينطفئ كما يريد. ابتسمت وتبعت الابتسامة بضحكة، فمازالت عاداتي القديمة على حالها، تخرج لحظة الخلوة من تلقائها. كان أهل المدينة يعرفون الفلاحين أمثالنا من أحذيتهم الموحلة وقت الشتاء أو من رؤوسهم الملتفتة يمينا ويسارا لحظة عبور طرق المدينة ذى الاتجاه الواحد. يضحك بعضهم ويداعبك: يا فلاح يكفى النظر ناحية اليسار. عدت ونظرت يمينا ويسارا احتراما لخزون موروث أمي "اللهم اجعلنا من أهل اليمين" تجاوزت الشارع الذى خلا من المارة والسيارات، حتى سرت بمحاذاة جسر أكتوبر. لم أتبين تلك اللوحة المرسومة على جدار الجسر من ضعف الاضاء. اقتربت منها حتى اصطدمت بجسد نائم أسفل الجدارية، رأسه مستند على صندوق خشبي وجسده مغطى ببطانية لا يظهر منه شيئا. أدت مصباح هاتفي

النقل في وجه اللوحة. مئات من أكف الأيدي المقطعة، يسيل منها الدماء. مرسومة بشكل بدائي لفنان تلقائي في مقتبل عمره الفني. وسط اللوحة رجلان. أحدهما يشبه في نصف وجهه الأيمن حسونة المنيأوى والنصف الأيسر يشبهني بعدما أصبحت أبامالك الفقير، وفي يده اليمنى مصحف وفي اليسرى سيف أما الآخر فهو بلاشك جورج بعدما أصبح أبانا المقدس، في يده صليب من الخشب. لم يتحرك النائم رغم اصطدامى به. تجاوزت اللوحة والجسد وفي طريقي سرت. ظهرت الدراجة البخارية التي كنت قد نسيته. خرجت من خلف مبنى المشاهد الحكومى. عليها نفس المثلثين بأسلحتهم، وبذات الحركات المائلة المحكمة الاتزان، بدؤوا استعراضهم في اتجاه بولاق أبو العلا ثم استدار قائدها بحركته نصف الدائرية المحكمة ناحية وزارة الخارجية وعندها ظل القائد يستدير بشكل مكمل لمخلفا عادما محترقا كثيفا وصوتا مرعبا. توقفت في مكاني مرتعشا. أخرجت حافظة نقودى وهاتفى النقل وخلعت ساعة يدى انتظارا لهجومهم وكى أعطيهم مطلوبهم دون قسوة أعرفها عنهم. حمدت الله حينما ظهرت سيارة الشرطة في طريقها إلينا. مازالت الدراجة في استعراضها دون تحفظ أو خوف من مرور الشرطة. مرت السيارة بإشاراتها الضوئية التي يرهبا دوما المجرمون. كان وجه السيارة مقابل وجه الدراجة في أثناء مرورهما. رأيت سائقها يحرك إشارات التحية الضوئية لقائد الدراجة، تبع الضوء تحية من آلة التنبيه العسكرية، فرد التحية قائد الدراجة بتنبيه آخر مدنى. خلا الشارع ثانية ولم يعد سوى المثلثين. رفع الشيخ النائم أسفل اللوحة رأسه عن الصندوق وأزال عنه الغطاء وجلس،

فما كانت الدراجة تغادر ناحية عبد المنعم رياض. حاولت استيقاف سيارة
أجرة مرت بعث فلم تتوقف. عاد الشارع إلى الصمت حتى عادت الدراجة
بعصبيتها المعهودة وبسرعة مفرطة مال قائدها يسارا ثم قفز بها متجاوزا
الرصيف الحاجز بين الطريقين. جريت هلعاً ناحية الجسر ربما أحتى أو أهدأ
بوجود مرافق. اعتلت الدراجة رصيف الجسر وبدؤوا فى طقوسهم المربعة.
داروا حولى بشكل مكتمل الاستدارة حتى صرخت فيهم من فرط الخوف
وأنا أقدم لهم محتويات الحافظة والساعة والهاتف. توقفت الدراجة ونزلوا
جميعاً أسندها قائدها على السناد الحديدى واقربوا منى. رفعت يدي
اليسرى على وجهى فى محاولة للحمايته من ضرب سيارتى للتو، ومددت اليمنى
بالمحتويات. ضحك أحدهم وضربنى فى صدرى عدة ضربات متتالية بفوهة
البندقية الآلية دون عنف، قال آخر وهو يشير ناحية الشبح الجالس
أسفل اللوحة: لسنا فى حاجة إليهم. هذا أولى بالمساعدة، قدمهم إليه. سرت
معهم مستسلماً لمشيتهم، ناحية جدارية الأيدى المبتورة. بدا المشهد مثل
مقبرة فرعونية يجلس أنوبيس عند بابها للحراسة واستلام القلب كى يقدمه
لماعت العادلة. خلع أحدهم غطاء وجهه ثم هز رأسه مرتين، فانسدل الشعر
على كتفيه. اشتعل مصباح الاضاءة المضطرب أعلى محل عم مينا، فأثار
المشهد على فتاة سبحان من صورها بتلك العناية. التفت أنوبيس بوجهه
ناحيتنا، فسقطت أرضاً من هول المفاجأة. احتضنته وصرخت: عادل. كان
بارداً خامداً بلا حراك. عيناه على الأيدى المبتورة لا تتجاوزها. هزته ربما
يستفيق، فلم يبدِ تجاوباً. هزته ثانية وثالثة وعلى حاله لم يتغير. مددت

يدى بالحافظة والساعة والهاتف. رفض تسلم العرض بيمينه المبتور ويسراه متدلية إلى جانبه والتفت إلى الجدارية محلقا. مات عادل إلا من دموع تجرى على خديه بلا ألم أو ندم. أو ربما بآلم يجاوز آلام العالم والمسيح وندم يفوق رابعة وبشر والفضيل بن عياض. لا أعرف تحديدا لأننا لم نخلق لتفسير مشاعر الآخرين والرب ليس فى حاجة إلى مساعدة من الأغيار. خلع قائد الدراجة قناعه فظهر عجوزا فى ملامحه قوة المصارعين وصلابة القادة وطهر البراءة. فتح مغلاق بذته وأخرج زجاجة ماء صغيرة وملفوفين من اللحم ووضعهم على صندوق الفرش والألوان ثم أشار إلينا بالمغادرة. فى طريقنا ناحية الدراجة كنت أتساءل فى صمتى عن هذا التناقض المقيت. رأيتم يضربون عادل ويسرقون السيارة ويفزعون البشر، ثم رأيتم يساعدون علياء الهاربة وأطفالها واليوم يحرسون عادل وجداريته. " الجرافتى فن زائل " أتذكر مقولة عادل وأضحك فى ألم. كلنا جرافتى إذا. وضع المثلثون أقنعتهم وغادروا بلا حركات مفزعة. ترددت فيما بين العودة لاصطحاب عادل والتوجه إلى الفندق استعدادا لزيارة أمى.

مازال عبدالمنعم رياض ينظر ناحية الميدان، وفى يده منظار المراقبة وكأنه يعلن لتلك الخيمات التى ظهرت وسط الميدان من جديد بعد محيى الرئيس المؤمن، أن الثورة بلا قائد محض بكاء أرامل بأئسات. الإضاءة الباهتة وبعد المسافة بين الميدانين لم تسعفى فى محاولة تفسير هذا الاعتصام. وحدهم النائمون تحت الشرفات من تبينتهم بدقة، فذكرت جدى بركات بالخير إن كان حيا وبالرحمة إن كان قد فارق ويجد النور كما أستمته مروة فعلت. سرت

حتى توقفت عند مبتدى جسر أكتوبر من ناحية شارع رمسيس. الشوارع خالية وإذا ما مرت سيارة، مرت منزعة ومزعجة دون أن تتوقف. لا أرغب في دخول الميدان ثانية ولا أحب أن أسلم نفسي للجماعات المسعورة مثل ذئاب عادل على جدار المكتبة الأمريكية. قادنى جدى بركات إلى مروة وهى قادتنى إلى طريق واضح، شيء واحد أرغب فى معرفته قبل السفر، أينما سعد الأصيل وأينما الزائف؟ أخشى أن أبنى فيحتكم بزيفه أو أصالته إلى القضاء وبالقضية يفوز ويرثى حيا أو ميتا رغم أنه أكثر منى ثراء ولا مجال بيننا للمقارنة لكننى موقن بأن شهوة المال لا تفرق بين غث وthin لذا لا بد من المعرفة.

خلفى فندق محمود بسيونى وأمامى "هيليتون" رمسيس والنوم يغالبنى الطرقات خالية وبقايا السيارات الأجرة هاربة. مللت الرجوع إلى الخلف فاتخذت غرفة منفردة "بالهيلتون" نمت بلا هدوء، بعدما نفضت عنى تلك الذكريات الشيطانية وما رأيت عليه عادل وأصالة سعد وزيفه، لم تكن نصف حبة المنوم كافية كى تنحى عنى الكوايس، طوال الليل يخترق مسمعى طلقات رصاص وخرطوش. أشم روائح الغازات المسيلة للدموع. أصوات تحترق حجب الليل: الشعب يريد إسقاط النظام. يمر جدى بركات بين الحيات ويهتف: ليست ثورة. ليست ثورتكم. يقرضنى القلق ذات اليمين وذات الشمال والكوايس بوسيد رأسى تفرد لهم ذراعين. أجراس التنبيه بالحريق تشتعل وتزداد. أضع المحدة على رأسى وأتقلب. طرقات عنيفة على الباب تبعها شخص دخل مندفعاً ورفع المحدة والغطاء -اهرب الفندق

يحترق - هربت مع الهاربين إلى الشارع الخلفي. لمحت فردا من حراسة أي مالِك الفقير يلتقي بعبوة مشتعلة إلى الداخل. الكل يجري ناحية الميدان وكنت معهم، على الرغم من هدوء الشارع ناحية مبنى الخارجية، واشتعال الدخان وسط الميدان. بيد أن التحرير أصبح عادة الناس في طلب الاحتماء. المشهد نسخة آلية مكررة مما حدث في الخامس والعشرين من يناير. ارتباك وصراخ وكر وفر بين المتظاهرين ومن أطلق عليهم الغاضبون، ميليشيات الرئيس المسلحة. وحدهم النائمون تحت الشرفات ظلوا ساكنين مطمئنين دون فزع لعنة الله على الأطراف الثالثة. الرئيس لا يتخذ ميليشيات. هذا ما نعرفه في كل بلاد الله. لن أنجرف وراء هذا الهراء، نعم سافرت بعيدا عن الميدان لكنني كنت أتابع بعضا من أخبار الرئيس. الرجل كل يوم ينتقل من مسجد إلى مسجد. يصلّى جميع الفروض في مواقيتها. يخطب كالأئمة ويبكى كالصالحين. قالوا عنه إنه حفيد عمر بن الخطاب. كلاب كاذبون يتهمون الرجل بالإرهاب. أقسمت بالخروج من قلب الميدان الذي دخلته اللحظة قدرا مقدورا. هربت جريا من شارع شامبليون مع آذان الفجر. اتخذت الطريق من خلف المحكمة إلى التوفيقية. جلست على إحدى المقاهى المتراسة في الشارع كي ألتقط أنفاسي. كانت محطة الإيمان تنقل إمامة الرئيس لصلاة الفجر، ومحطة الرقص على المقهى المجاور تنقل فعاليات حفل الخميس ومحطة للسياسة على المقهى بعد المجاور تنقل مشاهد الموقى في مشفى التحرير الميداني. نهضت كي أكمل نومي بفندق المطار. سرت بين المقاهى كي أصل إلى الناصية. كان المقهى الأخير يعرض من جهازه صورا

لمجموعات منظمة من الشباب تحت قاعدة تمثال سيمون بوليفار في اتجاههم إلى التحرير. يتقدمهم الشاب المهتز العطش - ليست ثورتكم - من جديد تذكرت كلمات جدى بركات فطبعتهما في قلبى بدماغ من حديد. وسببت ثورة بلا قائد وثوار بلا دليل ومحطات لاهثة خلف الثروة وجماعات مسعورة فى شوارع بلا قلب. استوقفت سيارة أجرة وسرنا إلى طريق المطار. لست راغبا فى الحديث مع أحد والسائق يأخذنى فى تحليلات تجعل المؤمن يسب الدين بلا طلب للمغفرة. ما دفعنى للمصراخ فى وجهه ذلك التحليل الأخير بأن المتظاهرين غضبوا لأن الرئيس يصلى وهم لا يريدون ذلك. طلبت منه التوقف عن الكلام وإلا لن أكمل معه. ابتسم ببلاهة، ثم أخرج علبة سجائره وراح يعبث فيها حتى أخرج سيجارة "ملقوفة" جيدا ومد بها يده، وقال: "طُبطُ الجمجمة يا أستاذ" بعدما انتهى من سيجارة الحشيش أدار المسجل على أغنية "سلفنى ضحكك" للمطرب عبد الباسط حمودة. كنت أحب هذه الأغنية وأعشق مطربها، فجذبت ذراع تعديل وضع المقعد واستلقيت إلى الخلف عدت إلى الاعتدال حينما سمعت بكاء السائق الذى ضرب على المقود بكفه الأيمن وصرخ: "الرئيس يبصلى الفجر. الظهر. العصر. المغرب. العشاء لكنى حزين يا أستاذ، فهو دائما ينسى أن يدعو الله لحل أزمة البنزيم. تصدق وتؤمن بالله يا أستاذ واحد صاحبى إتقتل الليلة فى خناقة بمحطة البنزيم" كنت على وشك تعديل حرف الميم واستبداله بالنون وكدت أنطقها بنزين أو أحل محلها "الوقود" لكننى خشيت غضبه فالتزمت الصمت.

أغلقت هاتفي وعلقت لافتة ممنوع الإزعاج على باب الغرفة ونمت إلى ما بعد العصر. فتحت ستائر النافذة واتصلت ببدالة الهواتف وطلبت الطعام بالغرفة بدأت في ترتيب محتوى الحقيبة التي فتحتها بعدما استبدلت ملابسى استعدادا للعودة إلى القرية. دخلت العاملة بمحمل الطعام بعدما استأذنت بطرقات خفيفة على الباب. وضعت المحمل على منضدة بوسط الغرفة ثم وقفت وسألتني عما إذا كنت أرغب في شيء آخر. شكرتها ومازلت منشغلا بالحقيبة التي أغلقتها واستندرت إلى الطاولة فرأيت العاملة الجميلة جدا في مكانها لم تغادر. سألتها عن حاجتها، فابتسمت دون إجابة. منحتها بعد تدقيق في الفئات الورقية التي أخرجتها من جيبي، صدقة تناسب عملها طبقت يدها على العملة ثم استدارت وتفحصتها جيدا وتحركت ناحية الباب ثم انكفأت عائدة وهي تنظر إلى الصدقة. أدت مفتاح المشاهد فكانت الشاشة ناقلة لصلاة المغرب والرئيس يقرأ من آخر سورة آل عمران. قالت وهي تشير إلى العملة: ما هذه يا أستاذ وماذا تنفع في هذه الأيام السوداء؟ غضبت من حماقتها وقلة ذوقها، حتى الشحاذة في البلد تغيرت. صرخت في وجهي: لست شحاذة. هذا حقى. الأسعار ارتفعت ولا بد أن نحيا كراما. ارتبكت من وقاحتها فعدت ومنحتها عشرة جنيهات إضافية. نظرت إلى الورقة وضحكت بسخرية: أنا لا أطلب صدقة يا أستاذ. كدت أطيح برأسها بكوب الماء الزجاجى، لكننى عدلت مع صوت الرئيس وهو يقرأ "الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس" فأمسكت وحاولت الابتسام. قلت: اتركنى حتى أستمتع بمتابعة الصلاة. الرئيس يصلى فاحترمى اللحظة من فضلك.

رأيتها تفتح أزرار قميصها وقد أخرجت ثديها خارج حمالة الصدر، ثم شخرت: الرئيس يصلى ونحن نبيع هذا كي نعيش. أعطنى خمسمائة جنيه ونم معى. وقفت مرتبكا وطلبت منها المغادرة فوراً. فأغلقت لتوها الأزرار وعلى وجهها تحفز نمر قبل الانقضاض على الفريسة. أكملت ستر جسدها ثم مررت يدها اليمنى من أعلى الصدر إلى منتصف البطن ثم أعادتها إلى صدرها. فجأة توقفت ثم شقت يديها أزرار القميص. قالت: إما أن تنام معى وتعطينى المبلغ وإلا صرخت واتهمتكم باغتصابى. أخرجت المبلغ عن عدم طيب خاطر ومددت به يدي عن طيب خاطر، لكنها لم تتناوله. قالت: بعدما تنام معى. لا آخذ صدقات من أحد. أى جنون هذا صرخت فيها. لن أفعل يا ساقطة. ردت السباب بسباب مماثل، ثم قالت: لأن أمثالك هربوا كالجرذان ولم يعرفوا قانون نهضة ما بعد الثورة. الحرة تأكل بثديها والساقطة تأكل بدينها وأنا حرة. أسقطت بنطالها وفرجت ما بين فخذيها وقالت انهض النهضة هنا ثم أشارت إلى موضعها. أقسم بالله أن هذا جنون. قذفت المال فى وجهها فتساقطت الخمس ورقات بين رجليها فراحت تدوسهم. كانت الصلاة قد انتهت وحلقة معادة من برنامج قد بدأ بعد فواصل من ضرب وحرق واشتعال وقتل. أبومالك الفقير إلى جوار حسونة وامرأة منتقبة خلف منضدة مجاورة يسار الشاشة. مازالت العاملة فى عريها تدوس المال. نظرت إلى الشاشة وضحكت باستهزاء وأشارت إلى أبى مالك، وقالت: به بعض الشئ منك ثم نظرت إلى المرأة وقالت هذه أم أنس المؤمنة، بالطبع هذا اسمها الحركى، هذه داليا محسن زميلتى فى الجامعة، كنت فى دار العلوم

وهى فى كلية الزراعة. كنت قد مللتها ومللت جرأتها الوحشة. فوقفت ودفعتها نحو الباب وقلت: اصرخى إن شئت، أى دين يدفعك للزنا والتهمك على الصالحات يا ساقطة. دفعتنى بعنف وانحنت تجمع المال وهى تردد: معتزلة أديان يا غبى. للمرة الأولى فى حياتى أصادف مصرية مسلمة أو مسيحية مارقة تعلن هذا السوء. كدت أجن وأوشكت على خنقها لولا أن أشارت ناحية المشهاد وهى جالسة أرضا. قالت: استمع وضحكت بسخرية من كلام أم أنس المؤمنة التى سمت بالله وصلت على النبى صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه ثم اداركت: أما بعد، فإنما "المؤمنون" أخوة. لذا كان "المسلمين" الأوائل سادة العالم. فاتقوا الله.

بدهشة نظرت ناحيتها. كانت قد أعادت بنطالها إلى مكانه وأخرجت من جيها إبرة وخيط وراحت تحيك أزرار القميص. بعدما انتهت، اتجهت ناحية الباب وهى تسخر، "إنما المؤمنون". الرابط بيننا دفعنى إلى ندائها: من فضلك. استدارت ووقفت مكانها. قلت: أعذر عما صدر منى. هل يمكنك مشاركتى الطعام؟ لمحت الابتسامة على شفتيها وهزت رأسها بالإيجاب عادت هادئة متزنة غير التى كانت منذ دقائق. جلست برفقتى بعدما اعتذرت هى الأخرى. لم أرغب فى سؤالها عن جدية الاعتزال. فقط أردت من يشرح لى ما الذى حدث فى أثناء غيابى حتى أخرج إلى الطرقات غير منقوص القراءة. كان حسونة على شاشة إيمانه يسب ويلعن ويكفر المعتصمين فى الميدان. قال: أقول لمن يرى نفسه زعيما ويحرض على ولي الأمر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم "أععض بهن أيك" نظرت

بدهشة إلى العاملة التي سألتها عن اسمها فقالت: إيمان وأكملت إذا كان النبي
 صلى الله عليه وسلم وهو من أوتي جوامع الكلام، لم يستطع على حد
 مذكروه أن يأتي بتوبيخ للكافر غير هذا الفحش ويقول: أعرض العضو
 الذكرى لأبيك فأنا بضمير مرتاح خلعت لك ملابسى كي تمصص بظرى كما
 قال مولانا أبوبكر الصديق "امصص بظر اللات" هما بريتان من هذا
 التلغيق ولو أتو بألف ألف بخارى ومسلم فلن أصدقهم. الرسول وصاحبه
 بريتان من محل عين كفر اللغة. تعجبت لحرقتها الشديدة ودفاعها المستميت
 عن النبي وصاحبه. دفاعا لا يليق بمن أقرت باعتزالها الدين. عدنا إلى
 البرنامج وقد انتهينا من الطعام. كان أبو مالك صاحب الكلمة. قال: اسمعوا
 هذا الحديث كي تحترموا علماءكم لم يذكر فى مجمل كتابه صاحب الحديث:
 احذروا فلاحوم العلماء مسمومة رددت أم أنس وحسونة صدق رسول الله
 صلى الله عليه وسلم. ضربت إيمان جبهتها بكفها الأيسر ورددت: رواه
 أفعى. تحولت إلى غاضب من سخريتها المفاجئة بعد فاصل من القتال عن
 صاحب مجمع الكلم وصحبه. بيد أنها أدركت غضبى فأدركتنى بأنها مقولة لابن
 عساكر رحمه الله وبأن شيوخ الإفك الفضائى ثبتوا الجملة فى ضمير الناس
 على أنها حديث شريف وأن سخريتها ليست من هذا أو من ذاك. فقط ممن
 أستمتهم أنطاع الشاشة. نظرت إلى ساعتى مع فاصل أذان العشاء واستواء
 الصف كي يبدأ الرئيس فى الإمامة. قلت: تأخرت فى الغرفة وربما يسألون
 عنك. أخبرتنى بأنها أنهت الدوام لحظة تقديمها الطعام فى غرفتى. نهضت
 لطلب البدالة كي يحضروا سيارة أجرة تصحبني إلى أمى. طلبت إيمان أن

أنتظر حتى الصباح فالملمثون يقطعون جميع طرقات المسافرين ليلا. عاودت الاعتذار لها فابتسمت وسألتني عما إذا كانت تصلح للتمثيل أم لا، ثم أخرجت الإبرة المغروسة بطرف قميصها وأشارت بها. قالت وهي تضحك: إن كنت قد صدقت المشهد ولاعبتك نفسك الشيطانية كنت غرستها في هنك وجعلتك تصرخ حتى تتمنى أن تعض هن أهلك. ضحكنا سويا وقلت: للتمثيل وللدعوة أيضا تصلحين. خرجت إيمان عن الطاولة وبرقاعة ضحكت وهي تذهب وتحيء بالغرفة. أشارت إلى المشهد. كان الرئيس بالناس يصلى. استدارت وانحنى ووجهت مؤخرتها إلى وجهي وضربت عليها بيدها وقالت: لأن العلم أصبح مثل هذه تماما، فأهل الزراعة والهندسة والتجارة هم أهل الدعوة والإفتاء، ومثلنا لا يصلح إلا لهذا أو لذاك. أشارت إلى صدرها بعدما اعتدلت ثم تبعت بالإشارة موضعها وأخذت نفسا عميقا وزفرته وهي تردد: المخرج فاشل يا أستاذ.. قلت: سعد. بدت إيمان مثل عضو عامل في جماعة حجرية ظهرت بعد الثورة. كفر وإيمان. ستر وعري. أدب وعهر. سألتها عما إذا كان لديها وقتا تقضيه برفقتي حتى ميقات المغادرة فرحبت. استأذنت لتبديل ملابسها، وبدأت في التفكير لقضاء الليل بعيدا عن الميدان. تذكرت حفل زفاف أبي مالك بعد ساعة من الآن. رن جرس هاتف الغرفة وخبرتني أنها في الانتظار بصالة الاستقبال. رافقتي في المصعد امرأة بيضاء تحمل طفلا خمري اللون تمسك بيد زوجها الزنخي الممسك بطفلة تشبه الجنوب شرق أسويين. بدت الطفلة مريضة بما نعرفه بالبله المنغولى. ليس لمرضها أثر على سعادة الأسرة المشتبكة الأيدي في مودة

وهدهوء. قدمت إليهم التحية ابتسامة وانحناءة تقدير من رأسى، فبادلوتى التحية والإشارة. بيد أن العالم لا يعرف إلا لغتين، عن الحب واحدة وعن الشر والكراهية أخرى. انتفتح باب المصعد فأشرت إليهم بالخروج، فأشارت المرأة كى أسبقهم. رفضت تقديرا للطفولة والمرض. رفض الأب الخروج وأشار إلى. عدت فرفضت وأشرت ضحكت الزوجة وزوجها ويبد كل منها أشار ناحية الباب. توقفنا حتى أغلق الباب ذاتيا. وضعت إصبعى على زر الفتح وأعدنا الإشارات. البنت المنغولية رقصت وغنت بلغة غير مفهومة وليست لدى معلومة ثم أمسكت بيدي وهى تدب وتقفز فى الهواء. كنا جميعا فى يد واحدة نخرج من باب واحد، فيما كانت إيمان تستند على طاولة الاستقبال الرخامية، تستمع إلى موسيقى فرقة زفاف تدخل من باب الفندق. تقدمت ناحيتى حينما رأتنى بوسط الصلاة. كان العرس يدخل بصخبه والمفاجأة تصفنى فى رأسى. مونىكا بفستان زفاف أبيض تحتضن ذراع شيخ حجازى الغطرة والعقال. ظللت بعينى متشبثا فى وجه العروس التى أنكرت معرفتى وانحنت على وجه الشيخ العريس وقبلت خده، ثم توجهوا إلى مقاعد الفرح. هزتنى إيمان من كتفى وقالت: جميلة جدا السيدة رحمة. امرأة أعمال شهيرة. بارك الله لها. هزرت رأسى ونفضت عنها ذلك التشابه بين رحمة ومونىكا وقررت فى ذاقى استشارة طبيب نفسى. ربما كانت الطيبية الإنجليزية محقة فى إيداعى وبموافقة الطبيب المواطن، قسم المرضى النفسيين. خرجت بصحبة إيمان. فناديت سائق إحدى السيارات الأجرة المنتظرة فى مرفأ الفندق. صعدت إيمان من الباب الأيمن واستندرت للركوب

من الأيسر. استوقفني بائعة مناديل منتقبة لا يظهر منها سوى عينين ذابلتين. أشارت بالمناديل، وقالت بجمود: تشتري مناديل سيادتك. ترددت قليلا قبل أن أخرج النقود من جيبى. إن رفضت ربما تفعل مثل إيمان وتتعري وتصرخ وتجلب مصيبة أنا غني عنها وإن منحتها مبلغا صغيرا ربما تفعل ذلك أيضا وتسبني. أعطيتها عشرة جنيهات ولم أمد يدي لأخذ علبة المناديل. وقفت في وجهي وقالت: تفضل. رفضت أخذها فقالت في ثقة بذاتها: تفضل يا أستاذ فأنا لا آخذ صدقات. تناولت العلبة ومددت يدي لفتح الباب بعدما صدق حدسي بأنها لن تقبل الصدقات فرغبت في الهروب قبل أن تنزع ملابسها. بسرعة توقفت في وجه الباب ومنعتنى الصعود. قالت وهي تمد يدها في جيبها: انتظر سعادتك. أخرجت تسعة جنيهات ونصف ورفعت بهم يدها كي أتناولهم كمرتجع فارق سعر الشراء عن قيمة الدفع. أشرت بكف يدي الأيمن إشارة المنع التي نعرفها فرفضت وبجدة قالت: سيدى أنا لا آخذ أكثر من حقى. مالت إيمان ناحية الشباك الأيسر وطلبت أن آخذ حقى لأن رغبة لن تقبل إلا حقها، ثم أشارت إليها بالتحية فأعدت المتبقى إلى جيبى وغادرنا إلى طريق مصر الجديدة. عند محل "كنتاكي" طلبت من السائق التوقف. نزلت واشترت وجبة ساخنة وسرنا إلى طريق العباسية. أسفل الجسر سألته التوقف مرة أخرى. مالت على جسدى وأخرجت رأسها من الشباك ونادت: عم إكرم. لم أكن أرى شيئا سوى أكوام من النفايات تحجب الرؤيا عن الطريق الموازى. لمحت من بينها حركة بدت لى مثل كلب يبحث عن طعامه وسط تلك الأكوام. يخرج عن

الظلمة والاحتجاب إلى الضوء والرؤيا. ليت سلمى حاضرة كي تفسر
الأعيب الحواس. جسده نحيل متجه إلى الأرض يشبه في حركته الضعيفة،
عم عليان. كان يرتدى معطفا شتويا في يقظ الحر، رفع ياقته ووارى به وجهه
سترة عن أعين الفئران التي خرجت معه ناحية السيارة. مدت إيمان يدها
بالوجبة الساخنة، فتناولها دون كلمة وتوجه ناحية الجسر. رأيت الفئران
تلتف حوله على شكل دائرة وهو يفتح العبوة ويرمى منها قطعاً بعيداً عن
رجليه الطريق مزدحم من الاتجاهيين وبدأت السيارات تتداخل مع بعضها
بتحركات عشوائية. أعلى الجسر وأسفله كانت المسيرات المتوجهة إلى القصر
الرئاسي غاضبة. يردد المتظاهرون "الشعب يريد إسقاط النظام" أتت
الهتافات ضد الرئيس ومن أسموهم جماعته، من أبواب فقه اعرض بين
أييك وامصص بظر اللات، مع الأخذ في الاعتبار معطيات الحادثة في
اللغة، فغضبت مما رأيت وسمعت. لكن ما خفف حدة الغضب، أن شباباً
خرج من مسجد النور وراح يهتف ضد المتظاهرين "إسلامية. إسلامية"
يتقدمهم أيضاً الشاب المهتز العطش، لكن الهدوء لم يدم. بدأ شباب النور
بضرب المتظاهرين بالرصاص ولتوه بدأ اشتباك عنيف. أجاد شباب
المتظاهرين الرد بالحجارة وزجاجات الوقود الحارقة من أعلى الجسر. لم يكن
لدينا وقت لإحصاء عدد القتلى والمصابين، فسيارتنا تعرضت لطلقة رصاص
في مؤخرتها فغادرناها وهربنا في اتجاه رمسيس، فيما كان الهتاف البديل
يطارنا في الطريق "كفار كفار".

في سدرة ميدان رمسيس الذي وصلناه سيرا على الأقدام، كانت تجلس
وإلى جوارها طفل يتعلم المشي حديثا، تستند بظهرها إلى حائط نفق المرور
عند نهايته. الطفل يتعثر وينهض وهي تصرخ: احتلال. احتلال. إنجليز.
إنجليز يا سارية الجبل الجبل. كنت مضطربا، فخشيت الحديث معها. ربما
ليست هي، بل حتما ليست هي. كان الطفل قد تعثر واستند بيديه على
الأرض فالتقط قطعة صغيرة من حجر الجير المتناثر. توقف وخط رقم ثمانية
ووازه بثمانية جديدة. رسم نصف قوس، ثم تعثر وبعد محاولات وقف
ومازال الحجر في يده. خط أسفل الخطوط وعلى جانبيه، فظهرت ملامح
ذئب شرس. أتى عامل النظافة وأخذ الحجر من يد الطفل ورماه بعيدا.
صرخ الصغير وكأنه فقد ثدى أمه لحظة جوع جامحة. جريت ناحيته
واحتضنته وصرخت: عادل كانت إيميلي في هذيانها مستمرة: يا سارية.
الاحتلال. الإنجليز. جلست إلى جوارها وإيمان تتابعنا بدهشة. وضعت
يدى على جبهتها وقرأت آية الكرسي تمطت بثقل وهدوء، ثم ثاءبت
وقالت: أزداد طاقة يا حبيبي. أرى الإنجليز في الطريق. ضحكت بديلا عن
البكاء، وقلت: الإنجليز رحلوا منذ زمن يا إيميلي وليس هناك احتلال. هيا
بنا نغادر، سيفرح عادل إذا ما رآك برفقة ولده. بالطبع كنت أكذب. لا هي
في الدنيا ولا عادل في الحياة، لكنني لن أترك الطفل يضيع فهو ولدى أيضا.
نهضت وحملت الطفل وإيميلي لم تعترض. كانت شاردة في الفراغ وما بعده
والفراغ الذي يليه حد الامتلاء سألتني إيمان عن الطفل وعما سأفعل به،
فلم أجيبا ودخلت النفق، فتبعتنى عند بابيه من ناحية الخروج، ظهرت

الدراجة بملثيها، بحركاتها المجنونة فزعت إيمان وتوارت خلفي، فهدأت من روعها وطالبها السكون. نزل أحدهم وكنت أظنها الفتاة. بلا حديث مدت يديها فناولتها الطفل. غادروا عائدين ناحية إيميلي الشاردة. حاولت إيمان المغادرة فرجوتها أن تكمل معي. لابد من حضور العرس والتأكد من كذب أبي مالك. السيارات الأجرة بدأت في الاختفاء مع الليل. اضطررنا للسير حتى توقفنا عند ناصية شارع جريدة الأهرام. كان مجموعة من الشباب يديرون حفلا قرأت عنوانه "إخوان كاذبون" يعرضون مقاطع من براهج مصورة. عروض سخيفة ومقاطع مبتورة بفعل التوليف والإخراج الرديء. كانت إيمان تتابع عن كثب وبعناية وتركيز ضربت على كتفها كي أنبها بضرورة المغادرة. رفعت يدها وهزتها في إشارة بأن أنتظر وأصمت. معها رحت أتابع مضطرا، مشهدا للرئيس وهو يخطب قال: إنما يخشى الله من عباده العلماء، فرأيت إيمان تقلب كفيها دهشة. لم أتبين سبب تعجبها إلا وهي تصرخ: مستحيل أن يأتي اسم الله مرفوعا في هذا الموضع. أعاد الرئيس الآية بنفس النطق وقال هذا في قراءة من القراءات، وبينما كان يفسر فخامته، كان الشاب المهتز العطش يتقدم مسيرة إطلاق الرصاص، وهم يصرخون: كفار. كفار.

شدت إيمان من يدها وجرينا في اتجاه النهر. هدا الطريق من الجلبة فيما عدا مجموعات متفرقة تجلس على مقاعد التريض بمحاذاة الماء. سرنا في اتجاه فندق "جراند حياة". مازالت غاضبة في سيرها وقسمات وجهها، فدعوها للهدوء. صرخت في وجهي: مستحيل أن يأتي اسم الله مرفوعا. عن مقعد

التريض نهض شاب هادئ وبعدما ألقى التحية. قال: يا أختاه الرئيس قرأ القراءة الصحيحة. هي ليست من القراءات العشر المتواترة، لكنها من الأربعة الشواذ. عاد الشاب للجلوس وجذبت إيمان من يدها قبل أن ترد على قوله. فالغضب حتما سيدفعها للخطأ. تحركنا عدة خطوات، فنهضت سيدة في حوالى الخمسين من عمرها. قالت: يا ابنتى. الرئيس عالم مؤمن وقرأ من الأربعة الشواذ الذى لا يعلمها إلا الفقهاء. نهض عجوز متصاب ومد رقبته ناحيتنا ووضع كف يده اليسرى على منتصف ذراعه الأيمن وراح يهز النصف اليمين ويردد: رئيسكم بلحية أفلا تكبرون. عالم يقرأ من القراءات الشواذ. تركت إيمان يدى وجرت ناحية مقعد الرصيف وعليه وقفت ثم قلدت العجوز فى حركاته التى نسميها فى قريتى "التدريج" وهو وصف لا يفعله إلا الساقطون: رئيسكم بلحية أفلا "تشخرون" أقسمت برب القرآن والإنجيل والتوراة وما أوتى الأسباط وما نزل على سليمان. أقسمت برب نوح والسيفنة وشعيب والمدينة وبكل مقدس نزل: أن القراءة لا هى من الشواذ ولا من شواذ الشواذ ولو أتيتم بألف ألف شاذ ما أنزل الله بقراءة الرئيس من سلطان. تحول المتنزهون فجأة إلى ذئاب عادل وأحاطونا. بدأوا التحرش بنا، فسببت إيمان وصرخت منها المحاصرين بأنها مجنونة. اختطفتها من أعلى المقعد وهرولت بها فى اتجاه "جراند حياة".

كان الأمن يغلق جميع المنافذ ويمنع الناس من المرور. حزنت كثيرا لعدم استطاعتي حضور العرس. مازالت إيمان فى غضبها وتمتمتها، مستحيل أن يأتى اسم الله مرفوعا. حاولت الالتفاف بعيدا عن التحرير قدر المستطاع

حتى نفذت إلى طلعت حرب ومنه إلى مقهى البستان. كانت المخرجة السورية الشهيرة تجلس وسط دائرة من أهل الفن والأدب. يتناقشون في أمر ما بعد بعد الحداثة وعلاقته بما بعد الثورة. لم تكن علياء تعلق أو تدخل في صلب الحوار، فقط ضحكات وهزات رأس تحاول بها إرضاء الفريقين المتناحرين بين الرفض والقبول. انتهت الجلسة بأن نعت أحدهما الآخر بالمستغلل والآخر نعت بالرجعي، فقالت الفنانة التي تجاور علياء: أتم حمقى، فعنفها أديب يجلس قبالتها ووصفها بالديماجوجية. خرجت إيمان عن صمتها وضحكت ومالت إلى أذني وهمست: اللامرئى فى اللامعقول بتجاوزات الهوى فيما بعد ميتافيزيقا شارع شبرا والشعب يريد إسقاط النظام هيا نرحل يا سعد. مررنا من منتصف الدائرة الساخنة حد بداية العنف. مدت علياء يدها على كتفى ثم ضربتني بحميمة، وقالت: كيف حالك يا سعد؟ قلت إنك لن تجيد الدور من قبل. مررنا دون إجابتها وقد ذكرتنى بما كنت قد نسيتته أو يارادتنى تناسيته، بأننى أبومالك دون لحية وجلباب. حمدت الله أن رأيت عم زكريا "الريجسير" منزويا فى ركن قصى وكأنه منبوذ من العالم. هو لا يعرفنى، لكننى أعرفه من ريادة مقهى البستان والندوة. عدلت عن فكرة العودة إلى فندق المطار. سلمت عليه بما يليق باحتياجى إليه. مددت يدى وصاحفته وأنا أردد: شرف لى أن ألتقى فنانا كبيرا مثلك. بالطبع لم يكن فنانا كبيرا ولم يكن أيضا معروفا لكثير من الرواد، لكن المضطر يركب الكلب ويقسم بأنه حصانا. رحم الله جدتى خالدة. رأيت الفرحة فى عينيه، تبعها بفرد جسده إلى الأمام وتحول إلى أحمد زكى فى

زوجة رجل مهم. ترك مقعده المنزوى وأشار إلينا بالجلوس وسط ممر المقهى. لم تعترض إيمان فهازلت مشغولة بالمرفوع والمنسوب. بثقة زائدة نادى العامل وطلب لنا المشروبات وبدأ يقص تاريخه متبرعا دون أن نسأله. أخذنى إلى أعمال لم يكن وقتها قد ولد، فذكر رواية الشرف البدوى التى مر عليها مايقرب من مئة العام مضطرا للاستماع أقسمت أن دوره فى الناصر صلاح الدين لم يقل عن دور يوسف شاهين. بالتدرج وصلت معه إلى "هوليود" ورائعة ذهب مع الرمح واختتمت "بنايتك" ثم سألته بما لديه من خبرة مساعدتى على استئجار جلاباب وشال ولحية بها بعض الشعر الأبيض. عنفنى لأننى طلبت المتعلقات إيجارا، فهو يعرفنى والناس لبعضها. ذكرت أميرة السورية بالخير وسرت معه حتى وصلنا إلى غرفة يسكنها بحى العتبة، يشاركه فيها "ليس عجوز" بيدين مرتعشتين وبعينين لا تقويان على الرؤيا استطاع العجوز أن يشككنى أبومالك الفقير، فرجوته أن يجعل إيمان مثل أم أنس المؤمنة ففعل باحتراف لا يتناسب مع محدود عمله. بيد أن الإتيان لا يناسبه إلا المقاهى أو أن بنا خلل ننتظر من يأتى لاكتشافه.

الضباط يفتحون الطرقات ويقدمون التحية للشيخ الزائف. دخلت من باب القاعة مواريا نصف وجهى بأطراف الشال، محتميا بإيمان التى توقفت أمام باب المراحيض ودخلت. أزلت اللحية ودسستها فى سيالة الجلاباب وعدنا حيث المدعوين. مالت إيمان ناحية أذنى وأخبرتني أنها كانت تعمل هنا قبل الانتقال إلى فندق المطار. رجوتها الاعتدال وضبط النفس حتى لا تثير النظر إلينا. بدأت الموسيقى تعمل ودخل العروسان. حولها المدعوون

يحيطونها بعناية وفرح. كنت متشوقا لرؤية ادعائه لكننى فضلت الجلوس حتى أتيناها لحظة المرور والتتويج على مقعدى العرس. حضرني الطبيب المواطن وهو يلدغ بأسنانه عقرب مونيكا فضحكت بسخريه وتحينت لحظة التشفى فى سعد الأصيل. مر الزفاف بجوارنا، لكننى لم أستطع تبيان وجهها الذى حجه أبومالك بكتفيه. استدارا ناحية المقعدين فلم أكتشفها أيضا من ظهرها. الفستان الفضفاض حجب تفاصيل الجسد. المصاحفات والتهنئة أخذت حيزا من الوقت، وأنا متشوق لاكتشاف الحديعة. استدار العروسان وجلسا، فظهرت مونيكا بابتسامتها الناعمة الحاضرة، أو ربما تكون هى وأخشى أن يكون التباسا شيطانيا كما ظننت بعروس فندق المطار. بالتأكيد هى، فكل الحاضرين من الشخصيات المهمة كما أخبر عم رؤوف الذى لم يحضر إلى الآن. أشارت إيمان ناحية امرأة رفعت النقاب عن وجهها وجلست بصحبة بعض المدعوين الأجانب قالت: هذه أم أنس المؤمنة. حواجبها مثل خيط من حرير وكحل عينيها كما ربة القمر إيزيس. تذكرت سلمى ولعبة الحواس والمحبوب والمنقول، فحركت منقال عيني على محور رقبتي الرأسى ونزلت ملتقطا من أسفل المنضدة، فتوقفت على رجل أحد الجالسين يلفها حول فخذى أم أنس. رفعت المنقالة إلى وجهها فأخذت لقطة ابتسامة وخائنة عين. أعدت وجهى إلى إيمان وأفضت لها برغبتى فى الاستيلاء على مونيكا فضحكت بتكتم وسألتنى كيف؟ شرحت لها مكنون صدرى ورجوتها مساعدتى بما لديها من علاقات مع التعاملات. فقط تأتى بشراب إسهال ومنوم شديد من عيادة الفندق. تضعه فى الشراب، وفى

المرحاض نستبدل الأدوار لأصبح سعد الأصيل. صمتت إيمان ولم ترد ثم نهضت وغادرت دون تنبيه. أصوات هتافات أتت من الخارج. انتبه المدعوون على صخبها. كان حسونة يدخل من الباب مذعورا وكأنه هرب من مطاردة. جلبابه ممزق وعمامته ساقطة على كتفيه. الغبار يعلو لحيته. غادر أبومالك مقعد العرس مع وضوح صوت الهتاف "الشعب يريد الفتح لاسم الله. بعصية وهياج كان أبومالك يغادر من الباب الخلفي وهو يصرخ ملتفتا ناحية حسونة: أنتظرك بالمحطة الآن فالقراءة من الشواذ. حالة من الاضطراب حلت بالقاعدة مع تزايد الهتافات ووصول قذائف الزجاجات الحارقة من النوافذ. وسط هذا الارتباك أخرجت لحيتي من السيالة ولصقتها على وجهي وجريت ناحية المنتصف. كانت مونيكا مضطربة بينهم، تنظر يمينا ويسارا في ذهول وفزع. أدركتها بين يدي وحملتها ثم من الباب الخلفي هربنا. أنزلتها عند باب مشفى القصر العيني فاصطدمت بالمرضة البدينة أثناء دخولها إلى المبنى. بيدها كيس من عصير التفاح. كانت تلعن الثورة والثوار وأباها جورج وحسونة وأبامالك والجماعات ونفسها والمصاب التي خرجت من أجله. كانت السيارات الأجرة قد اختفت تماما والهتافات تحاصرنا من جميع الاتجاهات. توقفت سيارة خاصة وطلب صاحبها أن يوصل مولانا حيث يأمر، فقلت: فندق المطار إذا سمحت. تأرجحنا ما بين المنيرة والمبتديان حتى باب اللوق، فالعتبة فرميسيس واعتلينا الجسر الخالي من الثوار والمارة. أسندت مونيكا رأسها إلى الخلف وذهبت في نوم متقطع. كنت أتابع الطريق خوفا من ظهور ثوار وثوار حمدت الله عند قصر

الاتحادية. لم يكن هناك معتمدون. قليل من الشباب اليقظ لحماية القصر من هجمات الكفار أو الثوار. لم أعد ممثما. ما يهمنى هو الوصول بأمان. كان الشباب يساعدون البنائين في رفع أسوار القصر وإغلاق نوافذه. صاحب السيارة يجيهم بصافرات التنبيه وأنا أحييهم برفع اليد وأهتف بلا صوت وحرف: أعان الله حفيد عمر بن الخطاب. وكأن صاحب السيارة قد سمعني أو شعر بدعائي فhez رأسه وردد: لو أن هنا شجرة، وأشار إلى مكان وحيد ليس به شجر، لنام الرئيس تحتها وأتاه سفير أمريكا وقال: حكمت فعدلت فأمنت فحمت يا حفيد عمر. مرات متكررة مثل آلة خربة هززت رأسي بالموافقة وأنشدت: ونعم بالله. وفي نفسى رددت لعن الله فصول الدراسة وكتب التاريخ والأستاذ حسن حنفي. لا أعرف لماذا دفعني الغضب إلى سب الأستاذ حسن حنفي؟! فاستغفرت الله ودعوت أن يرحمه بما قدم عن النهضة من كتابات وحمدت الله أنه مات قبل الثورة ومشروع النهضة الذى طرحه الرئيس، وإلا لعاش مشلولاً حتى نهاية العمر، فالثوار لا يعطون الرئيس فرصة كي ينهض ويعمل. مازلت منقوص القراءة يا سعد. تتكلم بنظرة أحادية ربما عاش الأستاذ سعيداً حتى الممات إذا ما اقتنع بنصب الفاعل ورفع المفعول.

الليل والسكون وصدى الدوى المختزن فى عقلى، يأخذونى إلى قبر أبى إلى موت عم جلال عامر مقهوراً بين جموع المتناحرين. إلى حضن أمى وانتظار الحلم.

جدى بركات يقف وسط الطريق ويصرخ: ليست ثورة. عبدالله الفيصل يلقي بثورة شكه. رحل محمد عابد الجابري وعاش حسونة وسعدانا.

جزاك الله خيرا. قلت لصاحب السيارة وأيقظت مونيكا وإلى الفندق دخلنا. حينما رأنا موظف الاستقبال خرج مسرعا عن مكتبه. حياني وصافحني بحرارة وغض بصره عن وجه العروس. أشار ناحية المكتب وقد تأخر عنا خطوتين: تفضل يا شيخ. شرفتنا فضيلتك. وقفنا خلف الحاجز الرخامي وعاد الموظف إلى مكتبه وسألني عما أمره به. جناح أم غرفة؟ على عجل طلبت غرفة وصعدنا. التعب بدا على جسد مونيكا فارقت على السرير بفستانها. جلست إلى جوارها ولم أخلع ملاسبي. قالت: معذرة يا صاحب الفضيلة لن أستطيع إسعادك اليوم، فأنا متعبة جدا. بقراءة مكتملة سألتها أن تدخل الحمام كي تبرد بالماء اضطراب الليلة وأخبرتها أنني لا أرغب في شيء سوى سعادتها اعتدلت وقبلتني من خدي ثم نهضت إلى الحمام. امرأة الإثم هي. كيف تتزوج من رجلين في دولتين وتواعد ثالثا وبه تغدر؟ يعاودني صوت عم رؤوف "هي استعملتك حققت مصالحها". نحيت الستار جانبا ووقفت أشاهد الطريق عبر النافذة. شغلتنى فكرة الطبيب النفسى. لابد من معرفة الحقيقة أينما هذا وأينما ذاك. قررت المغادرة لتحسين صلة الرحم التي اهتزت منذ سنوات، فالיום أزور أُمى. بعدها أعرض نفسي على الطبيب، ثم أعود للعمل بعد العلاج بلا "سيده سيده. سيم سيم" وقد شفيت تماما من المرفوع والمنسوب وعض الهن ومص البظر. آلهة من طين نحن، انشغلنا بسيئات الآخرين ففقدنا كل حسناتنا. عدت ثانية إلى منقوص القراءة،

فمنحت نفسى رتبة الله فى محاسبة المسيئين... المنتظرون تحت الشرفات لا يعينهم مرفوعك ومنصوب الرئيس وهن أبى مالك ويظر أم أنس. فقط يحلمون بالحياة.

خرجت مونىكا عارية، فعدت من خلف الستار مستغفرا الله على منقوصى ومددت يدى فأمسكتها حتى نامت على ظهرها، جذبت يدى فأجلستنى شعرت بحركاتها تشير إلى استبدال رأيها ورغبتها فى المعاشرة، ورغبة منى فى رؤيته. كنت قد واعدت الله ألا أترك نفسى للزنا. لن أزنى ولن أسمح لأحد أن يزنى بى، لكن لابد من رؤيته ولو اضطررت إلى ذلك عنفا. لعن الله العنف والموروث والتاريخ وفصول الدراسة، تغير العالم ولم أغير بعد. أى عنف أقصد. حتما سيفسر لى الطبيب. تبدلت الحرب وأصبح العنف مخططات من أفكار. مونىكا تمد يدها كى تفتح أزرار الجلباب، فمددت يدى ومررتها على ذراعها وكتفها فلم تنقلب على بطنها كما أردت. وضعت احتمالاتى جميعا فلم أجد سوى إيقافها بالحديعة. توقفنا وسط الحجرة وتشابكت أيدينا ثم انفصلنا وذهبت ناحية مفاتيح الإضاءة كى تضبطها كما ترغب. حينما استدارت رأيت ما أنتظره متحفزا عنيقا ذلك القرب الأسود الخفيف. أطفأت بعض المصابيح وحلت بعض الظلمة بما يتناسب وعاشقين. تشابكت أيدينا ورحنا ندور فى الغرفة بصمتنا. الظلال تخلف أشباحا على الحوائط. شبهان. أربعة. ثلاثة. ندور فتدور أشباحنا. أسندت رأسها على كتفى فوضعت يدى اليسرى على ظهرها ومازلنا ندور وأشباحنا معنا تدور. سألتها: من أنا يا حبيبتي؟ أجابت بصوت يشبه الهمس: أبومالك زوجى.

درت بها وسألتهما: ومن الطبيب الإماراتي يا حبيبتي؟ قالت: زوجي أيضا. درنا وأشباحنا، فسألتهما: ومن سعد يا حبيبتي؟ رفعت رأسها عن كتفي ونظرت مليا في عيني ووجهها يوحى إلى بخدر في رأسها. قالت وهي تمد يديها إلى وجهي وتخلع عنى لحيتي: أنت حبيبي يا سعد. أعادت رأسها على كتفي ودرنا بهدوء العاشقين، فرأيت مئات الأشباح على حوائط الغرفة تدور بسرعة تجاوزت المعقول والموروث من حكايات الجن والمنقول من كتب الأساطير، ففرغت ودفعتها بقوة فسقطت على الأرض. جريت ناحية الباب حاولت فتحه فتعثرت ولم أستطع. كانت على الأرض ممددة. غارقة في نوبة ضحك ندامات جدتي خالدة. صوتها مثل فحيح أفعوان وجسدها مثل سهيلة تحت الجميزة العتيقة. أطاع المفتاح يدي فخرجت هاربا، فيما كان صوتها يخترق خوفا: أحبك يا سعد.

ركضت كحمار "أحمر" هرب من خوض الماء واتخذت طريقى إلى اليسار الخوف وانتظار المصعد لا يتجاوزان. نزلت على السلم فالتوت قدمي اليمنى اختل توازنى فملت على جانبي الأيسر ثم انكفأت على وجهي. على أربع زحفت يسارا إلى الممر القصير. رأيت شبعا ممهترا على الحائط أمامي فاستويت على اثنتين، فى تقويم حسن هربت إلى الممر الأيسر أيضا. فتشت بخوفى عن المفتاح، فلم أجده. متوترا أرقب الأشباح وأبحث عن المفتاح صاحب أمرين كاذب وصاحب ثلاثة منافق، تنهرنى خالدة. لا مفتاح مع الخوف وجدت، ولا بابا مع السباب فتحت. سقطت أرضا وبكيت. بكيت بخوف. بكيت طلبا لله. أغشنا. لست ابن النقاش ولست أبوزهر.

لست حسونة والفقير. أغشنا أغشنا. أنا سعد الشرفات المُرتَقِب. أنا التائه
صرخت. المفتاح أُمَامِي على الأرض والأشباح أُمَامِي على الحائط. الخوف
يعاودني، فأبتعد عن المفتاح. تناديني سلمى: ضوء وظل. مشيئة وزمن.
التقطت المفتاح وجربت، ثم عاودت، ثم أدركته فصار الباب مفتوحا
فدخلت. ارتميت أرضا وأسندت ظهري إلى الحقائق. أخذت نفسا عميقا
ونفضت حيث مدور المشهد الآلي. أتي صوت عبدالباسط وهو يبتدئ
سورة غافر التي أعشقها وكأنها إشارة للمرور خضراء. بها تجاوزت خوفاً
وأشباحي. حملت حقيبتين وجررت الثالثة وإلى مرفأ الفندق توجهت.
توقفت بين السيارات المنتظرة حتى يأتي صاحب السيارة التي جاء دور
مغادرتها المرفأ. رأيته أسفل عمود الكهرباء عارية مثل العجائز تجلس. كانت
تضم ركبتيها إلى صدرها ورأسها سجين الانحناء على ركبتيها. رفعت رأسها
قليلا مع سماع صوت محرك السيارة المنتظرة. نظرتني ولم تغادر مكانها
فنظرتها ووليت وجهي حيث الحقائق التي ربطها السائق بعناية أعلى
السيارة وتحركنا. لمحتها من مرآة الوسط، نهضت ثم ركضت خلف السيارة.
كانت خلفنا وأشباح ظلالها تسبقنا مرت العجلات على الظلال، ثم أدار
السائق المصابيح فتلاشت أشباحها تماما. أُرحت رأسي على المسند
ورحلت في نوم مطمئن.

لباعة الميدان صوت من حنين. أيقظني السائق مع النداءات المتداخلة
والمنتظمة بميدان النحاس "أصيل إيديا والندی نازل على يا لوز. يا فتاح يا

عليم يا رزاق يا كريم، كرنب ياللى هاتحشى. اصطبحننا وصبح الملك لله أحلى من الشهد يا بطيخ" سألنى عن وجهتى بعد الميدان، فاستوقفته ونزلت بحثا عن لوزة. افتقدت ساخن منتجها وحميمية ترحابها. لم تكن فى مكانها أمام مسجد سيدى إبراهيم الخواص. كانت مهيرة على الرصيف المقابل تعد الفرن والكيزان مع صباح يوم جديد. مر إبراهيم كارتيللا بحماره أمايت فسبته مهيرة وعليه بصقت. توجهت إليها وسألتها عن سبب غياب لوزة قالت: داستها الحمير ورفسها أمايت الوحش يوم مظاهرات تطبيق شرع الله فانكسر ظهرها ولازمت الفراش. ركبت السيارة وعبرنا جسر النهر. عند نهايته كان الطريق متوقفا من اختلاط مرور السيارات "بالتكاكت" بالناس بالبهائم أصوات تنبيه السيارات تقطع أصوات تنبيه التكاكت يتخللها خوار البهائم وصرخات نساء خائفات. نزلت أتبين هذا الزحام. رأيت مروان عبد القادر إلى جوار "توك توكه" يتعارك مع زميل له. يطوح مروان بمطواته فى الهواء ويأتقان يدخلها فى بطن المتعارك معه. يعيدها إلى الهواء ثم يمررها بجرح صغير متقن فى الوجه. دقة فى التطويج واحتراف فى العوار فاق نماذج مشروع تخرجه فى الكلية. بيد أن المميزين يتقنون صنعة التحول. الفارق ليس كبيرا بين إتقانه "للنانو تكنولوجيا" وضربات المطواة الاحترافية. الناس حول المعركة يشاهدون دون محاولة للإنقاذ. توقفت أمامه بما لدى من صداقة قديمة معه وخبز وملح يجعلان شفاعتى مقبولة إذا ما طالبته بإنهاء المعركة. لكنه بجرعة آلية متقنة مرر المطواة أمام وجهى، تفاديتها بجرعة ميدانية وأخذت ساترا مدروسا يمنعه الوصول إلى جسدى. صرخت فيه:

هل جنت يا مروان؟! زم شفنيه وأخذ نفسا عميقا من منخاره ثم أخرج الزفرة من فمه إلى وجهي. أحسست على أثرها بلدغات في خدى الأيسر، فمسحت عليه وتحسسته. الدماء غطت كفى الأيمن. أمسكت مكان الألم بقطعة صلب صغيرة. نزعتها فكانت قطعة موسى دقيقة. تحول مروان من خبير "نانو تكنولوجيا" إلى خبير "نانو" أمواس. أدركني الناس ببعض الماء. غسلت وجهي وتوجهت إلى السيارة التي مرقت من بين الزحام وتوقفت أول طريق النهر. ركبها وتحركنا ناحية الدار، فيما كان صوت مروان يصلني مطالبًا المضروب بسداد دينه المقدر بخمسة جنيهاً. طريق النهر مشوش بحركات مضطربة. أناس يخرجون من الأزقة وآخرون مجتمعون وسط الشارع. ازدحام يظهر بعيداً أسفل شجرة العجمي. بعضهم ساكن وبعضهم يهرول في اتجاه الشجرة. تمر السيارة بين المرتقبين بأعينهم ناحية الجميزة. على الحوائط ملصقات يدوية الخط. تحمل جملة واحدة "الشعب يريد قطع شجرة العجمي" بالطبع رأيت ذلك جنونا وارداً من الميادين التي غيرت ثوب مطالبها مع تغير وجوه الثوار. توقفنا نتيجة الزحام. بعض الغاضبين من عدم تطبيق شرع الله يحملون لافتات عليها "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها الشرع يحرم قطع الأشجار" فريقان مختلفان. أحدهما يقوده حفيد ابن النقاش والآخر يقوده حفيد أبي زهر. بينهما ابن خالي الصغير حفيد شيخ الحضرة ينتصف المسافة ويصرخ: لا الشرع يريد ولا القطع يفيد. الله غنى عن صراعات المحقق. فلننزل جميعاً إلى الشجرة. تحرك ابن خالي ناحية المهبط وقبل أن يضع قدمه على أول طريق الغاب والبوص، اندفع

أبوزهر الحفيد وجذبه من الخلف وهو يردد "لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" سقط ابن خالى على ظهره، فاندفع إليه النقاش الحفيد ونظره بسخرية وأطلق ضحكة مخزية ثم عاد إلى مواجهة الخصم. السائق ينهني بضرورة عمل ممر كي يتجاوز بسيارته. لم أعره اهتماما وذهبت إلى ابن خالى وساعدته على الوقوف. أردت أن يصحبني ويغادر هذا الصراع، لكنه رفض متعللا بأن الأزمة ليست فى الشرع ولا فى القطع. قال: الأزمة فى تحرير هذا. أشار إلى عقله، فضحكت من كل هذا الوقت الذى استنفذه فى شروحات أنهاكها الدهر ولم نستجب لها غضب منى وظنها سخرية. قام وانتصف المسافة بينهما. عند حائط المسجد الخلفى المواجه لجميزة العجمى، رأيت شابة من الفصيل المؤيد للقطع، تستند على الجدار بظهرها، قبلتها يقف شاب عفى من فصيل الشرع يرفض. علت الهتافات والمناوشات بين الفصيلين وهما على حالهما يتحدثان عن مقربة لحظة الاشتباك تنحى ولد خالى وتركهما للعراك. اختفت البنت والولد وخلا طريق النهر وأصبح الجميع أعلى الجسر أمام شجرة العجمى. أشرت للسائق الذى مر مسرعا وتوقف بعيدا عن المعركة. شباب القطع بما لديهم من "شقاراف وشراشر وبلاطى" كادوا يفتكون بشباب الرفض، فصرخ حفيد أبى زهر "لهدم الكعبة حجرا حجرا أهون عند الله من سفك دم امرئ مسلم. الشرع يرفض القتال" هدأت المعركة، حتى أتى شاب يشبه فى تفاصيله صديقى المهتز العطش. يقود حشودا توجهت ناحية الشجرة فعاود أبوزهر الصراخ: اقتلوا أعداء الإسلام. خالدة تنادى: عراك التعيس مع خائب الرجاء، فاخلع بنفسك من ممالك الأغبياء. عدت

إلى السيارة مسرعا وعند باب الدار أخذت نفس الراحة والهدوء. سويت الأجرة مع السائق ودخلت إلى ممر النور بحقائبى. باب الدار مفتوح كعادته وصوت حسونه يأتى من المشهد معلنا أن الأموال المهرية ستأتى إذا ما طبقنا شرع الله وتحجبت المتبرجات. على أطراف أصابعى مررت إلى حجرة أمى. كانت غرفتى مغلقة بمغلاق حديدى من زاوية الباب لمحت أمى نائمة على السرير. اللحظة أفاجمها وأستمع بكاء فرحتها. أخشى أن يرتفع السكر فى دهما نتيجة الفرحة الزائدة. ترددت كثيرا قبل الدخول. رحت أتأملها من خلال الزاوية. سميت الله ودخلت مسرعا عريانا على سرير أمى. مولودان لتوهما يتقلبان بعضهما على بعض. فتاة الجسر القاطعة وشاب الرض الغفى. البنت أعلى الولد تعض هنه وينقلبان الولد أعلى البنت يمص بظرها وينقلبان. لم ينتهيا بدخولى، وأمى نائمة كما تنالى الفيلة تنتظر الأموال المنهوبة. انتبه لسبابى: يا أولاد الحرام. انقلب الولد ونزل منتصبا وسط الحجرة وإلى جواره البنت لم تستتر. بصقت على وجهها فبصقت على وجهى، وقالت: حرية شخصية. نظرت إلى الولد فبادرنى بالتأنيب الرقيق: لا يجوز شرعا حتى لو كانت غرفة أمك، أن تدخل دون استئذان. فجأة صرخ بأعلى صوته: كافر. أخاف الكلمة مثل الموت أخافها حد الجنون. هربت إلى ممر النور ورحت أصرخ: أقتذوفى. كانوا منشغلين بمعركة الشجرة فلم يدركنى سوى العاريين بخروجهما مستترين إلى الشارع. دخلت إلى أمى مسرعا. رحت أعنفها وأصرخ فيها: يانتالى يا فيلة تل أيب، يا لارا القبيحة. أمى بلا عقرب مونىكا. بلا ذبول أميرة. ساكنة على سريرها. تنتظر الأموال بلا ضجيج. النور

على وجهها والراحة تشملها. أمى ماتت. سقطت على جسدها وبكيت
للحظة والانتظار بكيت الظن والفراق أمى غادرها الألم. فتحت حقائقى
ومنها أخرجت قرطا من ذهب. قماش من حرير. نقد من الأجنبي. نثرت
عليها الذهب وغطيتها بالحرير. تحت رأسها وضعت المال فلم تحرك ساكنا.
جدى بركات وسط الحجرة مثل طيف من سحاب. يقرأ فاتحة الكتاب
وينادى شيخ الحضرة ولويز والشيخ غراب. على كتنى يضع الأستاذ يارو
يده المنهكة. الممرضة البدينة تمسك صليب عنقها وتقدس. حسام يبكى بعين
واحدة وإيمىلى تصرخ فى طفلها: لا ترسم ذئابا احتلال احتلال. يمر عادل
بفرشاته على وجه أمى ويرسم بسمة. أبومالك الفقير يعرض صورة آجنس
العارية لحظة ضبطها مع الشاب فى خيمة الميدان. يقسم أنها مضبوطان أمام
قصر الرئيس. يعرض تقرير مشفى القصر العينى يوم إصابتي ويعلن للكفار
أنهم من صنعوا الثورة. عم رؤوف يتوسطهم جميعا، يمر كفه أمام وجوههم
فيتلاشون يتلاشون. يقبض على الفراغ فيمسك بلويز. يقبض على الهواء
فيأتى بممرضة المشفى البدينة يقبض على اللاشئ فيعيد بركات إلى الحياة.
يقبض فيأتى بجذ النور بمروة يقبض على أثير عادل وإيمىلى والغائبين بخزنهم.
الأشباح تزهينى وأمى لا تأخذنى فى أحضانها. حسونة يعلن موت أمى.
موت والدة الشيخ أبى مالك الفقير. كنت فى بكائى وسعد فى بكائه خلف
الشاشة. يقسم بأنه رغم المصاب لن يغادر حتى يفضح العلمانيين. صوت
غادة فى مداخلة تتوب من زناها مع حسونة. المخرج يعيد تشكيل أنوار
المسجل ويأتى الضوء على أبى مالك من أسفل إلى أعلى. حسونة يتعرى

وسعد يبدو كالشبح وسلمى تدخل بأوراق الرسم وتخط الجنازة. رفعت رأسى عن جسدها الهامد. فتحت عيني فرأيت الصورة من المشهد قد اختفت. لم يعد سوى صوتها. أبو مالك يقول: "إن المؤمنون"، وحسونة يردد: "كان الكافرين". حسونة يتكلم عن الزائف وأبو مالك يحدثنا عن الأصيل. قبل الفاصل والإعلان، انقطع الإرسال، فقررت تأجيل السفر والبدء فى القراءة من جديد. اقرأ

الحمد لله انتهى

طلال سيف

فى منية سمّود

2013/2/16

صدر للكاتب

- فن الإعداد التلفزيوني - ثلاث طبعات 2002-2011 - الحضارة للنشر
- اعترافات عضو في تنظيم القاعدة - رواية - 2008 - طبعة خاصة
- فن الإعداد التلفزيوني.. عالم الأطفال - 2009 - دار نفرو
- صانع الأفلام قراءة في اخراج الفيلم الوثائقي 2011 - الحضارة للنشر
- الفضائيات العربية... الطريق إلى الجهل - 2012 - الأمل للنشر
- كارتيللا - مجموعة قصصية - 2012 - الحضارة للنشر